رواية

يوليانا

نزار عبد الستار

نوفل

رواية

يوليانا

نزار عبد الستار

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2016 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© **هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2016**
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.
صورة الغلاف: © **Michael Trevillion / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
متابعة النشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-619-4
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-620-0

إلى الذين حَمَلوا الصَّليبَ وخَرَجوا من الموصل في ١٩ تمّوز ٢٠١٤

يفشل جَجّو في الهجرة إلى أميركا ولكنّه ينجب حنّا ووارينا ويرى يوليانا مجدّداً في الموصل.

حارس الذخائر المقدَّسة

منذُ أن مرَّ بها الإمبراطور الرومانيّ تراجانوس، سنة 116، إلى أن بدأت الحرب العالمية الأولى، وبلدة كرمليس منقطعة تماماً عن المفاخر. لم يتحرَّك فيها الأمل، إلّا حين توقَّفت في عام 1925، بالقرب من كنيسة القدّيسة بربارة، سيّارة رئيس وزراء المجر السابق الكونت بول تلكي، الذي أوفدته عصبة الأمم لتقرير مصير الموصل. كان الكونت متنكّراً بزيّ مبشِّر بروتستانتي، واتّضح له وقتها، أنّ البلدة مناسبة للتنزُّه، ولكنّه ما إن أدّى واجب الاحترام أمام المذبح، وقاده راعي الكنيسة، بدافع الفخر، إلى الضريحين في الجهة الشماليّة الشرقيّة، حتى اكتشف الحقيقة. استأذن الكونت من مضيفه الكرمليسي، ورجع إلى سيّارته ليكتب في دفتر ملاحظاته أنّ «أهالي كرمليس يتوهَّمون امتلاكهم عظام القدّيسة بربارة، وخادمتها يوليانا، وبما أنّ هذا يتعارض مع وثائق خطّ بروكسل، والقدّيسة وخادمتها، وفق ما نؤمن، وُلِدَتا ودُفِنَتا في منطقة أزمير في الأناضول، أوائل القرن الثالث الميلادي، فإنّ اعتقادهم يُعدّ جنوحاً خرافيّاً، وميلاً عاطفيّاً مؤثّراً يرجِّح عائديّة الموصل، والبلدات التابعة لها إلى تركيا لا العراق».

وما إن نُشِرَتْ هذه الملاحظة، بعدها بعام، ضمن أدلّة أخرى للجنة تقرير المصير، حتّى أرسل خوري الخورنة الروحيّة القسّ بولس تَمّو رسالةً إلى نائب القنصل الإنكليزيّ في الموصل يتّهم فيها بريطانيا بالتآمر على اليقين الروحيّ لبلدة كرمليس. لم يشكّك الخوري في قناعة مبعوث عصبة الأمم، وبشهادته البروتستانتيّة بشأن قبرَيْ القدّيسة وخادمتها يوليانا المزيَّفين، ولكنّه تساءَل عن

الغاية من جرح مشاعر أهل البلدة، ما دامت تركيا في النهاية قد تنازلت عن الموصل للعراق؟

وقبل انتهاء عام 1929 بأسبوع، وصل ردُّ الاعتبار الكاثوليكيّ الحاسم، فقد دخل حارس الذخائر المقدَّسة كرمليس بعد الغروب، قادماً من روما، ومعه عَظْمة حقيقيّة بطول ثلاثة سنتمترات، تعود لجسد القدّيسة بربارة، مأخوذة من الأماكن الصحيحة، ومرفقة بشهادة ضمان مؤرّخة في 22 تشرين الثاني تحت عدد 664/35، وعليها ختم الكاردينال باسيليوس النائب العامّ لقداسة البابا.

بعد ذلك بساعةٍ، وغير بعيدٍ عن المكان الذي يستريح فيه حارس الذخائر المقدَّسة من عناء ما صادفه في هذا البلد الغريب، كانت الجميلة روز تدفع آخر موجات طلقها كي تُنزل من بين ساقيها ابنها جَجّو الذي حبلت به من بنيامين. في تلك الليلة لم يَمُتْ أحد في البلدة، وكلّ الذين أعادوا رواية قصّة الرحمة الكاثوليكيّة على مدى نصف قرن، أكّدوا أنّها كانت ليلةً فريدةً، لم يُسمع فيها أيّ سعال، حتّى أخذت روز تصرخ كبوقٍ عسكريّ، متوجِّعة من تقلّصات رحمها، وكأنّها سبع نساء في حالة ولادة.

لم يستطع الكهنة الذين خرجوا من مقرّ الخورنة دفاعاً عن الهدوء، منع بنيامين، وهو يحمل ابنه ملفوفاً بمنشفة خضراء، من اقتحام غرفة حارس الذخائر المقدَّسة. غطّى الذهول الجميع للحظات، وبينما غاب عن فطنة الضيف الرسوليّ ما يجب عليه فعله أمام منظر الرجل الذي يتحرَّك كدمية الماريونيت، تَخشَّب بنيامين، ومعه أبناء عمومته، مأخوذين برهبة رؤيتهم أوّل أوروبيّ مقدَّس بثياب النوم. حضر الخوري بولس تَمّو مهرولاً. شَقَّ طريقه بقامته الطويلة النحيلة نحو سرير الضيف الرسوليّ، وهو يعتذر بالإيطاليّة عن هذا التهوُّر العاطفيّ الذي بدر من مؤمني البلدة. بالغ في عصر أصابعه تعبيراً عن خجله إلى أن عادت الطراوة إلى ابتسامة حارس الذخائر السمحة، ثمَّ استدار مواجهاً بنيامين، وجوقة أهله، وقال بوجهٍ أحمر ينتفخ غضباً:

– لقد أهنتم قداسة البابا بفعلتكم الشنيعة، وعليكم تَحَمُّل كامل المسؤوليّة إذا ما ندم الرسول على قدومه إلى كرمليس، وأخذ معه عَظْمة القدّيسة بربارة، وأعطاها لبلدة أخرى.. ماذا سنفعل في حياة ليس فيها شفيعة ترحمنا؟

مال بنيامين بثقله على ساقه الأقصر، ومدَّ ابنه الملفوف إلى الأمام قائلاً بكلماتٍ ثقيلة الأحرف، دفعها بصعوبة:

– أريد أن ينال ابني جَجّو بركة حارس الذخائر.

نظر الخوري إلى قبضة اليد الصغيرة البيضاء الظاهرة من ثنايا المنشفة، وقال بخيبة:

– كما أنّه لا إيمان بلا محبّة، فلا محبّة بلا أدب.

كان الضيف الرسوليّ قد ارتدى الروب دي شامبر، واقترب بفضول ناظراً إلى الطفل. تراجع الخوري بولس تَمّو بنقلةٍ حمائميّةٍ ثمَّ ضخَّم صوته قائلاً بالإيطاليّة:

– الشفقة خُلِقَتْ لهذا الأب، لأنّ السماء، منذ ألف عام، تمتحن عائلة بنيامين بعاهةٍ في العظام، وعلّة في النطق، وقبح في الشكل. هذا البائس أراد الاحتيال على قدره، وتزوَّج أجمل امرأة في كرمليس لكي تَلِدَ له طفلاً معافى، وقد حدث هذا قبل قليل، وجاء به راجياً التعطُّف ببركةٍ مقدَّسة من الكرسيّ الرسوليّ، عسى أن يكفَّ الربّ عن إصراره.

هبَّت أنفاس باردة من أركان الغرفة، فاضطربت الإضاءة، وارتعش الطفل باكياً. تواضع حارس الذخائر، ورفع يده بخفّة ملائكيّة، إلّا أنّ بنيامين ارتبك فجأةً من خاطر أنّ هذا السماويّ المترفِّع على مشقّة الفصول، الذي يخلو من روائح التبغ، والبصل، والثوم، وعَفَن الفقر، ليست له علاقة أبداً برحمة الربّ. وحين رأى الأصابع البيض تسم رأس الطفل وقلبه بشارة الصليب، تجلَّت له المصائر، وعرف أنّ ابنه سيكون مثله تماماً، يعاني النحافة، وفقر المرونة، وأنّه حين يكبر ويمشي، سيحرِّك ذراعيه في الهواء على طريقة السباحة الحُرّة، وسيبدو من بعيدٍ كطائرٍ أعرج.

***

مات بنيامين بعدها بعام متعذِّباً بمرض السلِّ، ومكتوياً باعتقاد أنّ رسول الفاتيكان رفع إلى الربّ التماس الرحمة من دون أن يرفقه بتوسُّلٍ جادّ. انتظرت كرمليس ظهور المعجزة، لكن جَجّو حين كبر، ودخل المدرسة، بانت عليه العاهة، وتأكَّد شبهه بأبيه، وأجداده، فقد كانت أطرافه لا تجتمع في نسقٍ مُنْسَدِل، كما الناس، وهيكله العظميّ تنقصه المرونة، ويمشي بإجهادٍ وهو يسبح في الهواء.

وفي عام 1937 هاجمت الكثير من الأمراض الغريبة كرمليس، ومات العديد من المؤمنين، وكانت البيوت والطرقات تُضاء في الليل بمشاعل إضافيّة لأنّ من غير اللائق، بعرف البلدة، خطف الأرواح في الظلام. وقبل وفاته بيومين، طلب الخوري بولس تَمّو من أحبّة الرب الكفَّ عن اعتبار جَجّو بشارة عَظْمة القدّيسة

بربارة، وأخبرهم أنّ نيفيل تشامبرلين أصبح رئيس وزراء بريطانيا، وهذا يعني أنّ البروتستانت لن تبرد همَّتهم في التشهير بنبوءات الفاتيكان غير المتحقِّقة. لم تلقَ هذه الوصيّة التوقير المناسب، وفسَّرها راعي كنيسة القدّيسة بربارة الجديد القسّ الشاب يوسف كوماني بأنّها عجرفة إنكليزيّة غير مؤذية، وتعاون مع روز، أرملة بنيامين، لتلفيق بعض المصادفات كي تظهر كإشارات سماويّة على أنّ جَجّو ينمو برعاية بربارة القدّيسة الشفيعة. كانت دوافعه طيّبة كما ظنَّت روز وقتها، فالقسّ يوسف كوماني يكافح بخياله، ويتوقَّع أن يتدخّل الربّ في أيِّ دقيقة لحسم مهزلة الحياة، وهو دائم التوتّر، ويميل إلى الاستعجال رغم يقينه أنّ مواقيت السماء ليست على هوى ساعات الناس، والمعجزات لا تتحرَّك بسرعةٍ مثل أفلام شارلي شابلن.

عاشت روز من عام 1929 إلى عام 1940 وهي متورّطة تماماً في قضيّة قطعة العَظْمِ الصغيرة العائدة للقدّيسة بربارة والمُهداة من الفاتيكان. لم يبقَ في كرمليس من أعمام جَجّو وأخواله أحد، فبعد أن اجتاحت ألمانيا بولندا بستّة أشهر، هجرت كبرى العائلات البلدة متَّجهة إلى بغداد لأنّ الزراعة كسدت، ونهاية العالم بدت وشيكة. تكيَّفت روز سريعاً مع الوحدة، ولكنّها تذكَّرت، بإلهام حسن التوقيت، القصّة الكاذبة لعائلة زوجها مع ناشر المسيحيّة مار أدي الرسول، ما جعلها تعيش سنوات عمرها اللاحقة، بلا غِلٍّ، وغير ميّالة لكره ذكرى بنيامين. في أشهر أمومتها الأولى، كانت ترى جَجّو عجينة لحم استُبدلت في الطريق إلى مقرّ الخورنة، يوم حمله والده إلى هناك فور ولادته. لم تشكّ أبداً في بطنها ورحمها، وكانت متيقِّنة من أنّ الرأس الذي خرج من بين ساقيها كان بديعاً، وملمسه مثل البطّيخة الصفراء المقشَّرة، وتفوح منه بتكتُّمٍ رائحة العلك المِسْتَكي، واتّهمت بنيامين بأنّه السبب في هذه الكارثة، وأنّه لو لم يُزعج حارس الذخائر في تلك الليلة لما انقلبت خلقة جَجّو. شاركها بنيامين الشعور بالخيبة، رغم أنّ ابنهما لم يُكمل بعد أسبوعه الدنيوي الأوّل، فقد كان، هو أيضاً، على يقين من أنّ شيئاً ما تغيَّر لحظة أزعج، بغير قصدٍ، قداسة حارس الذخائر، واحتقر نفسه لأنّه هو الذي ذهب بقدميه إلى بيت الربّ وجعله يتذكّر لعنة العاهات.

أخذت روز تتجنَّب لمس جَجّو حين بدأ يتحوَّل إلى بنيامين صغير، حتى إنّها كانت تكره أن يراها أحد وهي تحمله، أو تضعه على صدرها، لأنّه لا يناسب

جمالها، ولا يتجانس مع زهوها. عاشت تعاني حالات غضب غامضة من كلِّ شيء يتعلَّق بمراسيم الارتباطات، ورياح الهوى. وقضت نهايات خصبها وهي تكره جميع أنواع التكاثر البشريّ والحيوانيّ. كانت على ثقة من أنّ الإهانة التي تلقّاها جمالها عند إنجابها جَجّو ستُعوَّض بأعجوبةٍ لائقة، لذلك تعبت كثيراً من أجل إثبات حسن نيّة بلاء الربّ، وأشاعت أنّ زواجها ببنيامين كان بأمر من القدّيسة بربارة التي كانت تأتيها في المنام، وتحثُّها على عدم المماطلة في قبول عرض الزواج كي لا تفشل مخطّطات السماء للنصف الثاني من القرن العشرين.

بعد وفاة بنيامين بأربعين يوماً اختصرت روز بيتها، وباعت نصفه، وبقيت في عزلة مأتميّة لسنتين، مدّعية أنّها تنقّي روحها من أجل أن تكون لائقة بخدمة القدّيسة بربارة. ومع كلِّ محاولات التغيُّب عن الحياة التي مارستها بمزاج متعكِّر، بقيت روز ذكرى مثيرة باعتبارها الفخر الجماليّ الأوّل للبلدة، والشكل الإغوائيّ الأخطر بالنسبة للمراهقين. كان جَجّو وقتها يتضخَّم كعاهة تُتْلِف الأعصاب. لا يتحرَّك، ولا يميل، ولا يزعجه الذباب، ويطيل صمت جوعه إلى درجة أنّ النطق تأخَّر عنه طويلاً، وكان من النادر أن يكون نظيفاً لأنّه لا يستجيب للعلامات، وغير جادّ في التعرُّف إلى أمِّه. وحده القسّ يوسف كوماني من كان يُبَجِّل هذا الازدراء السماويّ ويجده ضرورةً واقعيّةً تمهِّد لشرارة الانقلاب على بلادة الحياة في البلدة، فلولا الصلب لما كانت هناك قيامة، معتقداً أنّ الأقدار لن تستعمل الرصانة في تعاملها مع العصر الحديث، فبعد ظهور السينما باتت كلُّ الآيات مهدَّدة. حاول بطاقات خياله الروحاني إيصال رسائل مشجّعة إلى روز تغريها بالتمسُّك بِهِبةِ حارس الذخائر، فكان يتعمَّد إيقاف المارّة بباب بيتها رافعاً صوته بتطمينات واثقة عن رخاء موسم الحصاد المقبل، واعداً بالمزيد من البركة حين يصبح بمقدور جَجّو الظهور كمعجزة ناضجة. كان القسّ يوسف وقتها ما يزال يفشل في تربية لحيته، ولكنّه يجيد، باعتباره أكثر شباب البلدة وقاراً، تكوين التجمُّعات الصغيرة في الطرقات، والحثَّ على عدم الانبهار بالحياة الأوروبيّة. كانت روز لا تفوِّت فرصة النظر إليه من ثقوب الباب، أو الاستماع إلى موجات صوته الأنثوي، معجبة بضيق مسوحه، وبشكل أنفه، وبالارتباكات الزمنيّة التي ترتخي بها نبراته فجأةً وكأنّه يستشعر حضورها الخفيّ. إلّا أنّ هذا الاتّصال المتستِّر كان يدفعها أحياناً إلى التهوُّر، فبينما كان في يوم يتكلَّم مع جارتها عن ذكرى دخول حارس الذخائر كرمليس، فتحت روز الباب، وقالت له وهي غير ظاهرة:

– حين يُكمل جَجّو دراسته الابتدائيّة سأهبه لكنيسة القدّيسة بربارة.
استدار القسّ، وقال بصوت مخمليّ:
– القدّيسة ستفرح بعودة ابنها يا روز.

***

لم تكن الكنيسة سوى بناءٍ كئيب من الحجر المغلَّف بالجصّ تبلغ مساحته، مع الفناء، 391 متراً مربَّعاً، يرتفع على سفح تلٍّ يحمل أيضاً اسم القدّيسة بربارة، إلى الغرب من بيوت الكرمليسيين الكالحة. ورغم الفرحة المجنونة التي عَمَّتْ إثر الرحمة التي أبداها البابا في إرساله حارس الذخائر المقدَّسة، لم تُغَطِّ التبرّعات وأفعال الإحسان سوى نفقات بعض التجديدات التي طالت مكان الضريحين، بينما بقيت الكنيسة بلا إضافات ذوقيّة لأنّها في النهاية ليست أكثر من مزار للتبرُّك، وهي أفضل منظراً من بيوت المؤمنين، كما أن الصلوات والقداديس اليوميّة كانت تُقام في كنيسة مريم العذراء التي تتوسَّط البلدة، وهي أوسع بكثير، وفيها برج ناقوس مُزَيَّن بأقواس حجريّة على الطراز الإيطاليّ.

أوكل راعي الكنيسة القسّ يوسف كوماني إلى جَجّو مهمّة العناية بضريحَيْ القدّيسة وخادمتها يوليانا، وقال له يومها إنّ هيكله العظميّ تنقُصه العَظْمة الصغيرة العائدة لجسد القدّيسة بربارة التي جلبها حارس الذخائر المقدَّسة يوم ولادته، وإنّ عليه البقاء قرب القدّيسة إلى أن تشمله بحبّها. كانت ملامح القسّ يوسف مركَّبة لتوحي بالامتعاض الدائم، وكأنّه عاد للتوِّ مهزوماً من معركة مع الإسكندر المقدوني، لذلك لم تكن لديه أيُّ فسحة للحديث عمّا يدور في رأسه، كما أنّ جَجّو الذي كان يرى الأطفال يبتعدون عنه مسافة ثلاثة أمتار لم تكن لديه إرادة لتوجيه أسئلة، أو انتظار أيّ معونة، فكان عليه اكتشاف الكنيسة بالاعتماد على موهبة عاهته، وأيضاً التوصُّل بقدراته الاستنتاجيّة إلى المعنى الحقيقيّ للأمر الذي وجّهه القسّ يوسف، وهو البقاء بجوار القدّيسة.

كانت غرفة المذبح بطول ستّة أمتار وعرض خمسة، مدهونة بلون أبيض يظهر الكثير من الظلال والتعرُّجات على الجدران وفي زوايا السقف، وقد تعاقبت على المكان العديد من الأفكار غير المدروسة، وكان القسّ يوسف هو من قلع المصاطب الثابتة واستبدلها بالكراسي الخشبيّة بحجّة أنّ الغرباء لا يحبّون عادةَ التلامُس الرائجة في البلدة. ولأنّ الطريق إلى الضريحين بحسب خريطة الكنيسة سنة 1940 يمرُّ بالمذبح، كان على جَجّو إعادة ترتيب نسق الكراسي

قبل إظهار الخشوع بين العمودين الرخاميّين المنقوشين بالحروف الكِلْدانيّة حيث تبدو في العمق الدكّة المرتفعة التي تُقام عليها الذبيحة وتحتوي على مزهريّات من معدن أصفر، وشمعدان رفيع من الفضّة المسوَّدة مع نسخة سميكة الجلد من الكتاب المقدَّس تعلوها صورة زيتيّة للقدّيسة بربارة وهي تطلُّ برأسها من بين الغيوم.

كانت رائحة أعماق الكنيسة تُشعِر جَجّو بالسعادة، فهي مختلفة تماماً عمّا تزفره طُرقات البلدة. نقيّة، وتشي بخلاصة واضحة لطبيعة الأخشاب، ورطوبة الجصّ، ورذاذ الأمنيات. ذابت المشقّة وتحوَّلت إلى جزء باطنيّ بمسار غير محسوس مثل أن يأكل الإنسان يوميّاً لينمو. الشيء الوحيد الذي كان جَجّو لا يقدر على فهمه هو كيف ستحبّه القدّيسة بربارة، وما هي الأشياء التي ترضيها. انتظر طويلاً أن يبلغه القسّ يوسف بخبر أنّ القدّيسة أحبّته، ومنحته العافية، لكنّ ذلك لم يحدث. يتنصَّت على الصلوات التي تلفظها الشفاه بحرقة من أجل أن يكتشف نوع الحبّ الذي تريده القدّيسة. ظنَّ طويلاً أنّ الأسئلة التي تدور في حجرات قلبه هي أسئلة ذاتيّة إلى درجة الخجل، فهو غير متيقِّن إن كان يحقُّ لشخص مثله تذوّق الحبّ. وحين بلغ الخامسة عشرة بدت الأمور أكثر تشابُكاً في رأسه لأنّه لا أحد يشرح له معنى التلميحات، وبقي يشعر بالقلق من أيّهما موجود من أجل الآخر، هل البيوت بُنيَتْ من أجل الكنيسة، أم الكنيسة جاءت من أجل أن تزداد البيوت حولها؟ وبات يجد صعوبة في فهم الآخرين الذين يخرجون بسرعة من الكنيسة بعد أن يطلبوا من القدّيسة بربارة منحهم السعادة، والحبّ، والأموال.

أدرك القسّ يوسف كوماني بآليّات تأمُّلاته الفطريّة محنة جَجّو، وتمكَّن من ملاحظة حزنه ونظراته المعاتبة للقدّيسة، وأرجع ذلك إلى قلّة الاختلاط، وعدم ممارسة كرة القدم. أخذ يتعمَّد أن تكون أوامره واضحة وكاملة المعنى، وحرص على أن يكون ظلُّهُ حاضراً في الكنيسة حين يغيب في مشاويره الإيمانيّة، وقال لجَجّو يوماً، إنّ القدّيسة بربارة وهبته نعمة معرفة لغة الأشجار، وجعلت أبواب الكنيسة تتكلَّم معه، وتُخبره بكلِّ ما يحدث أثناء غيابه، وشدَّ وجهه قائلاً بنبرة تخويف:

– الأشجار تراقبك يا جَجّو.

قال جَجّو وهو ينظر بريبة إلى صفِّ أشجار الزيتون عند السور:

– كنت أظنّ أنّ الله هو الذي يراقبنا.

توارت شفة القسّ السُّفلى تحت العليا، وقال بأسف:

– في الحرب تتغيَّر الكثير من الأمور.. لا أمان في هذا الزمن الأغبر، فحتّى الأشجار يمكنها العمل في الغيستابو.

كانت كرمليس تتجدّد، الأمر الذي زاد القسّ يوسف تحمُّساً لمواجهة التقلُّبات. يخبر جَجّو بكلِّ ما ينبت في رأسه من أفكار تحسّباً للأيام السود المقبلة. يفعل ذلك بخيبة واضحة منتقداً الطمأنينة الحالمة التي تعيش فيها المطرانيّة، ودائماً ما يكرِّر أمام جَجّو:

– لا أدري لماذا لا يُحارب الكرسيّ الرسوليّ صناعة السينما؟

فيردّ جَجّو مخفِّفاً التوتّر:

– حين يذهب البابا إلى السينما لقضاء الوقت والتسلية سيعرف أنّها من أفكار الشيطان.

– هنا المصيبة.. البابا لا يتسلّى أبداً.

كانت كلمات القسّ يوسف تُعَمِّر في رأس جَجّو طويلاً إلى أن يجدّدها بما يراه تصحيحاً، أو إضافة للكلمة الأولى، وكان جَجّو يحرص على حفظ تعليقات القسّ، ويعيد نطقها مراراً في حضوره كي يطيّب خاطره بروح التكاتف، مذكِّراً إيّاه بأنّه معه في حلف الحرب ضدّ الشيطان. كانا يزدادان ترابُطاً حتى إن جَجّو أخذ يتصرَّف كوكيل كامل السلطة والإرادة، وكأنّه القسّ نفسه لكن بنسخة معاقة، فأهمل قبر القدّيسة بربارة، واهتمَّ كثيراً برخامة قبر الخادمة يوليانا لأنّه اعتقد أنّ القسّ يوسف حين لم يكرِّر، منذ سنة، دعوته للتقرُّب من القدّيسة كي تشمله بحبّها، فإنّ ذلك معناه أنّ شيئاً قد حدث يمنع بربارة من أن تشفيه. كان جَجّو هو أيضاً يطوّر استنتاجاته وسط انشغال القسّ يوسف بمحاربة الشيطان، وتعلَّم استغلال الصمت الليليّ ليحاور عقله، وصار أكثر شجاعةً من ذي قبل في التعبير عمّا يزهر في رأسه من أفكار حتى إنّه قال يوماً بجرأة:

– كيف يمكن للقدّيسة بربارة احترام حبّي وأنا أطمع بأن تشفيني من عاهتي؟.. أنا الآن أحبّ يوليانا لأنّني لا أريد منها شيئاً.

سأله القسّ يوسف بوجل:

– من علّمك هذا؟

ردَّ بلا ارتباك:

– المنطق قانون العقل، والحبّ قانون القلب.

***

في الصباح الباكر طرق القسّ يوسف كومانيي باب روز، وقال لها:

– لقد ظهرت بركة حارس الذخائر المقدَّسة.

ردَّت وهي تواجهه بكامل صدرها العريض:

– لا علاقة لحارس الذخائر بأيِّ شيء يظهر على جَجّو، وأولاده، وأحفاده.

عائلة بنيامين وثيقة النسب بناشر المسيحيّة مار أدي الرسول.

كانت عائلة بنيامين قد توقَّفت منذ أكثر من قرن عن الادّعاء أنّ نسبها يعود إلى مار أدي الرسول، فقد مرَّت حقبة كانت العاهات فيها تتكرَّر في العائلة مخلوطة بالجنون، والفضائح الساخرة، فتطلَّب الموقف عدم توريط الرسول في هذه المهازل. بحث القسّ يوسف عن أدلّة واقعيّة، واتّصل بمن بقي من أعمام جَجّو في بغداد، وبعد ذلك كتب إلى الخورنة طالباً رأي الكنيسة بأقوال وقصص دوَّنها في ثلاثين صفحة. لم يستغرق الردُّ سوى ساعات، فقد أعيدت إليه الرسالة مذيّلة بعبارة: كلُّ شيء جائز بعد أن احتلّ هتلر باريس.

احتاج القسّ يوسف إلى أسبوعين فقط كي يُكَبِّر في رأس جَجّو معلومة أنّه وريث مهمّة الإصلاح، فوجَب على بلدة كرمليس أن تعاني بعد ذلك، ولسنوات، محنة أن يظهر فيها قدّيس أبله.

قدّيس كرمليس

يحدث ذلك يومي الجمعة، والأحد، حين يتجوّل جَجّو بنيامين في كرمليس ليعظ المؤمنين، وهو ظاهر الرأس من قماش أبيض يسدله على بدنه كي يكون مقْنِعاً. يوزّع بين الفلّاحين، وأصحاب المتاجر، بركاته السريعة، قبل أن يستعمل الأمثال اليسوعيّة في تخفيف طمع الأغنياء، وفي حثِّ الفقراء على تقبّل المزيد من الشقاء. لم يحدث أبداً أن تمكَّن من سبق الخطيئة، وحين يتدخَّل كمندوب ربّانيٍّ بصليبه الفضّي الثقيل، ليمنع وقوع الإثم، يتلقّى الشتائم، وأحياناً الركلات، وفي النهاية تلاحقه الأحجار، فيجرُّ آلامه إلى الكنيسة، مُلَطَّخاً بوحل الانكسار، وقد صغُرت روحه، وتفطَّر قلبه. عندها يرسم القسّ يوسف كوماني شارة الصليب، معزّياً إيمانه، ويقول له جملته التقليديّة:

– الشرّ يحقِّق الثروات، ويبني القوّة، ويجلب الاحترام، أمّا الخير فيصلب المسيح.

يفحص القسّ يوسف، بعنايته الرحيمة، جَجّو المهان، ويجري له، أمام المذبح، الإسعافات الإنجيليّة المعتادة، ثمَّ يأخذه في جولة طواف، شبيهة بتلك التي تحدث في عيد القدّيسة الشفيعة، فيتقدَّم قارئاً المزمور 150 وجَجّو يتبعه بثوبه الأبيض المتّسخ. يدوران حول الكنيسة، وبعد أن يتمكَّن منهما التعب يجلسان ببابها لتأمُّل خيبتهما الكُبرى.

وبينما القسّ يوسف يوجّه نظراته الدامعة إلى السماء، يحكي جَجّو تفاصيل نزوله إلى حياة البشر:

– قلتُ عن الخير إنّه خير، وعن الشرّ إنّه شر، لكن يا أبتِ لا أعرف لماذا الإنسان لا يحبّ الإنسان.

يجيبه القسّ بصوته الناعس:

– لا يجوز يا بُنَيَّ أن نحبَّ البلبل، ونكره البعوضة. الخير يعني أن ننظر إلى ما علينا فعله، لا إلى ما ننتظر أن نتلقّاه.

كانا كقطعتين، تكملان بتلاحمهما شكلاً مفيداً، مثل رأس ملعقة وساقها. جَجّو في الثالثة والثلاثين، ويبدو بمفاصله غير المزيّتة، وبأعواد ذراعيه وساقيه، كَلَقْلَق يشكو سوء التغذية، والقسّ يوسف في الستين، يُخلِّف مروره رائحة كَمّون في الهواء. قصير القامة، ناعم الأطراف، له صوت بنت، إلّا أنّه عنيد، وتدلُّ نظراته على التحدّي والتربُّص. كان يندهش من قوّة اليقين التي تُحرِّك جَجّو فجراً، وهو يراه يكنس فناء الكنيسة، ويغسل، بماء البئر، شواهد القبور المنسيّة في الرواق الشرقيّ، ويولي المذبح السامي اهتمامه، ثمَّ ينتقل إلى الضريح الزاهي في الزاوية الشماليّة الشرقيّة، حيث ترقد القدّيسة الطوباويّة بربارة الشفيعة، حامية الزرع، وبجوارها قبر خادمتها المملوءة رجاءً يوليانا العروسة، معيداً البريق لألوان الحروف السريانيّة البارزة، قبل أن يترك قبلته العفيفة على رخامة قبر يوليانا، ويذهب ليسلق أربع بيضات تجلبها ابنة خالته شمونيا، مع خبز رقاق وطحينيّة. لم تقبل الكنيسة رسم جَجّو برتبة شمّاس لأنّه موضع سخرية الجميع. كانت تلك صدمة القسّ يوسف ووجعه المرير، فقد كان جَجّو يؤدّي الرتب الشمّاسيّة الثلاث: القارئيّة، والرسائليّة، والإنجيليّة، ويمشي في درب مار إستيفانوس، ويشترك في جميع نشاطات الكنيسة، مثل مراسيم العماد، والزواج، ومراسيم صلوات الموتى ودفنهم، وتهيئة الأطفال للتناول الأوّل، بالإضافة إلى التدريب على التراتيل الكنسيّة، والمشاركة في صلاة الورديّة، ودرب الصليب، والصلوات أيّام الباعوثة. كان جَجّو يفعل كلَّ هذا دون أن يحزن قلبه على عدم اعتراف الكنيسة به شمّاساً حقيقيّاً. وحده القسّ يوسف من أدرك عمق هذه التضحية إلى درجة أنّه رفع إلى قداسة مثلّث الرحمة المطران عمانوئيل ددي رسالة شفّافة عن طريق البريد الحكومي مؤرّخة في الأوّل من آب عام 1961 كتب فيها "أقول لقداستكم إنّنا سنخجل كثيراً لتورّطنا في إهمال معجزة إنسانيّة كهذه، وأعترف أمامكم بأنني أرى الحقيقة كلَّها في إيمان هذا الرجل الذي يعرف الربّ جيّداً، وأتأسَّف لأن الكنيسة لا تريد أن تفرحه بعنايتها. وبحزن

أقول إنّنا سنندم آجلاً على أننا ضيَّعنا قدّيساً عصريّاً اسمه جَجّو بنيامين". لم يتلقَّ القسّ يوسف الردَّ على رسالته، ولكنّه سمع توبيخاً مشفوعاً بالشفقة حين مال المطران عمانوئيل ددي إلى أذنه في الساعة الرابعة من عصر يوم الرابع من شهر كانون الأوّل عام 1962، بعد دقائق من انتهاء القُدّاس الحبري لعيد القدّيسة بربارة، قائلاً له:

– هَذِّب توقّعاتك، فكلُّنا لا نعرف من نحن.

يومها هبَّت عاصفة مرتبكة الاتّجاهات، وأخذت السماء تمطر بإسراف، وقبل أن يناما انتفض جَجّو لصوتٍ خرج من قلبه. غادر لوح فراشه المستند إلى قطع من كسر شاهدة قبر، ووقف تحت منتصف السقيفة قائلاً:

– سمعتُ مار أدي الرسول يقول لقلبي توّاً اخرج يا جَجّو لتعظ الناس في الطرقات.

ارتجف القسّ يوسف من قطرة مطر أصابت رقبته، وقال:

– هو يمزح معك.. أعتقد أنّ مار أدي الرسول يقدّر حجم الخراب الذي أحدثه الشيطان في البلدة، لذلك لا أظنّه يغامر ويرسلك إليها.

ردَّ جَجّو بحلق يابس:

– لقد كرّر ذلك ثلاث مرّات.

تثاءَب القسّ، وقال وهو يعطيه ظهره:

– سيسخرون منك، وسيكون عليك أن تبدو مجنوناً.. قل لمار أدي الرسول، إذا ألحَّ عليك مرّة أخرى، لن أكون شمّاساً حتى لو زرعت القمر، وأطعمت كرمليس أبد الدهر.

دَعَكَ جَجّو عينيه، وتنفَّس طويلاً من فمه المتقدِّم كمنقار، ثمَّ أطلق سؤاله الفتّاك، وهو يسبح في الهواء عائداً إلى فراشه:

– لماذا نضع صلاتنا بين الجدران؟

بقي جَجّو يتسكَّع خمسة أيّام دون أن يقدر على تحديد مكان الخطيئة، ولم يعثر على مخالفة أرضيّة تجعله يفتح فمه بالكلمة الصادقة. خَشيَ القسّ يوسف أن تنكسر روح جَجّو جرّاء سوء حظِّه مع السماء، وتتلبَّسَهُ بعدها عقدة فشله الشمّاسي، فأخبره بأنّه سمع أنّ إيليا الحدّاد يشرب العرق ليلاً، ويضرب زوجته نقيّة بلا رحمة، ولقَّنه كيف يكون بشوشاً، حين يقدِّم النُصْحَ إلى إيليا، ويدعوه

إلى الصلاح. وفي اليوم التالي ضرب إيليا، بفارق أربع ساعات، زوجته نقيّة وجَجّو، على التوالي، حتى تورَّما، وتلوَّنا بالزُرقة، دون أن يشرب قطرة عرق واحدة.

لم يخطّط جَجّو لذلك، لكنّ الإصابات أجبرته على الاكتفاء بيومي الجمعة والأحد لممارسة الوعظ، ليستغلّ باقي الأيّام في تحصيل نقاهة مقبولة. ساعدته في ذلك ابنة خالته شمونيا التي أخذت تُهَرِّب له العسل، وأطباق البرمة، آمِلةً أن ينتبه إلى حنانها، لا إلى رحمة الربّ.

اكتشف جَجّو يومها أنّ هناك الكثير من الأشرار في البلدة. كان يقضي الليل في نبش ذاكرته كي يستخرج الأسماء، ويسجّلها في دفتر صغير. زوّده القسّ بقائمة طويلة، تضمُّ أسماء الذين لا يحبّون دخول الكنيسة، ونبّهه إلى واجب أن يتابع بنفسه تعاملات البيع والشراء، لتقدير الحجم الواقعيّ للظلم الاجتماعيّ. صنَّف جَجّو أهالي كرمليس إلى صالحين، ومؤمنين، وجشعين، ومنافقين، وكذّابين، وظالمين، وغشّاشين، وقُساة، ومجرمين، وسَفَلة، ودنيويّين، وقد دقَّق القسّ يوسف الحصيلة النهائيّة، وشذَّبها بأكبر قدر من التسامُح، لكنّه صُدِمَ بالنتائج، وقال لجَجّو بأسف:

– مع كلِّ الرحمة التي بذلناها، فإنّ الشياطين في كرمليس لا يقلّ عددهم عن الألف.

ردَّ جَجّو وضميره يتعذَّب:

– علينا معرفة رأي الربّ في هذا الإحصاء.

بعدها بأسبوع، اشتبك إسحاق حبيب مع جَجّو، لأنّه طلب منه ألّا يغشَّ في بيع الشاي والسُكَّر. أسقطه أرضاً، وجرَّده من الصليب، ومزَّق ثوبه الأبيض، وربطه على ظهر حمار، وأعاده إلى الكنيسة. ولم تمضِ على الحادث سوى ساعة حتى تقدَّم ثلاثة تُجّار، بينهم إسحاق، بشكوى إلى مركز الشرطة اتّهموا فيها جَجّو بالجنون، وعرقلة مصالحهم، والتهجُّم عليهم بلا سبب. وفي اليوم التالي شكَّل الصِبية فريقاً لمطاردة جَجّو، ورشقه بالحجارة. كانت تلك نهاية مأساويّة لحُلمه بنيل الشموسيّة، وبداية أبديّة لتهمة الجنون.

تدخَّلت روز، ومعها الخوري توما كرمو، لإجبار إسحاق على التنازُل عن الشكوى مع وعدٍ غير مضمون منها بإرجاع ابنها إلى البيت. وقتها استمرَّ مار أدي الرسول بالظهور لجَجّو في منامه، لذلك وجب عليه الصمود في الوعظ، متحمِّلاً الرضوض والإهانات. لم تكن تكلُّساته الغضروفيّة تسمح له بالهرب. يلتقط أنفاسه

محتمياً بالزوايا، وهو حزين لأنّ مار أدي الرسول ورَّطه في هذا، وهو يعرف أنّه لا يملك القدرة على الركض بسرعة، وإن فعل، فإن ذلك يجعله يبدو مضحكاً، وشبيهاً بعنزة عمياء. حاول القسّ يوسف أن يكون قريباً منه معتقداً أنّ آلام جَجّو هي رسالة سماويّة تمهيديّة للانتقال إلى مرحلة أخرى، لكنّ فائدته لم تتعدَّ تأمين عودة غير مذلّة إلى الكنيسة، وأخذ، بدلاً عن ذلك، يؤنِّب الكرمليسيّين في قُدّاس الأحد في كنيسة مريم العذراء، ويتوعّدهم بلعنة ستنزل عليهم من الربّ إن هم تصرَّفوا كوثنيّين وبرابرة.

***

في عام 1963 استأنف القسّ يوسف اتّصالاته، مع مُحسنين أثرياء من بغداد، من أجل خطّة تجديد كنيسة القدّيسة بربارة، لكنّه وجد صعوبة بالغة في ذلك، فقد افتُتحت كنيسة مار أدي في الجهة الشماليّة من البلدة، وإليها تحوَّلت نشاطات الخورنة الروحيّة، وأصبحت مقرّاً لكلِّ الاحتفالات، ومنذ عام 1959 وكنيسة مار أدي تستحوذ على كلِّ التبرُّعات القادمة من بغداد. وفي تلك السنة أيضاً، أخذت روز تزيد من عدائها للقسّ يوسف كوماني، متَّهمة إيّاه بتوريط ابنها في حياة لا يقدر عليها سوى قدّيس، محاولة إثارة قلق رئيس الأبرشيّة المثلّث الرحمة المطران عمانوئيل ددي بشأن ما يتعرَّض له جَجّو من إهانات وإصابات في معارك الخير والشرّ. كانت روز تظنّ أنّ القسّ يوسف لن يتمسَّك بجَجّو، إذا ما نال فخر إعادة إعمار الكنيسة التي كانت أحجارها تتعرّى، وجدرانها المائلة إلى السواد تتآكل، لذلك عملت في الخفاء على إقناع ابن عمِّها إسطيفان لحثِّ المؤمنين في بغداد على إنقاذ الكنيسة، وأن يتدخَّل بعد ذلك لتحرير جَجّو من القسّ يوسف قبل أن يفقد ابنها عقله. استغرق الأمر ستّة أشهر حتى تمكَّن إسطيفان من جمع تبرُّعات مجزية، وجاء إلى القسّ يوسف ليعطيه المال مع رجاء إعادة جَجّو إلى أمِّه.

نظر القسّ بكبرياء إلى المال، واضعاً يديه خلف ظهره، وقال جملته التي أخجلت الثريّ إسطيفان:

– أيُّ خير هذا الذي نفعله، إذا ما عَمَّرنا بيت عبادة، وخرَّبنا الإنسان؟

كان جَجّو في حينها قد صار شخصاً مملّاً. يبالغ كثيراً في التضحية، دون أن يمتلك الدافع للعيش مثل البشر. توقَّفتْ روز عن محاولات دسِّ النساء في ثنايا تبذُّلاته الذكوريّة، لأنّ جَجّو هدّدها بقطع عضوه، وتعليقه على باب البيت، إذا ما

استمرَّت في التعاون مع الشيطان لتحريك غرائزه الدنيويّة. واضطرَّت إلى الاعتماد على ابن أختها كوركيس في إدارة شؤون الأرض لقاء تنازلها عن محصول بستان الزيتون الذي تملكه في قرية ترجلة. كانت روز تقول لجَجّو إنّها مثله تتمنّى التعرُّض لامتحان تثبت فيه للربّ أنّها لا تستحقّ العيش مثل ذبابة، مبرهنةً له بحكايات كثيرة أنّه ليس من مصلحة السماء أن تتحوَّل كرمليس إلى بلدة قدّيسين. حاولتْ جهدها منعه من أن يكون تافهاً، إلّا أنّه بقي يظنّ أنّ المرء بإمكانه صنع حياةٍ بلا خطيئة، وأنّ عليه مصارعة الرذيلة كي لا ترتفع درجات الشرّ في البلدة عن معدّلاتها في السنة الماضية. ويوم تلقّى جَجّو ضربة قويّة على رأسه أفقدته وعيه، إثر مطالبته الوجيه بطرس كنّي بالسماح لبناته الثلاث القبيحات بالذهاب إلى المدرسة، هجمت روز على الكنيسة، وجرَّت القسّ يوسف إلى الحوش، وهدَّدته بسلخ جلده إذا ورَّط ابنها الوحيد في مسائل هي من اختصاص الأنبياء.

انزعج مثلّث الرحمة من الأنباء التي وصلته، وزار جَجّو في المستشفى الجمهوري في الموصل. طلب من روز مغادرة الردْهة، وتغلَّب على مخاوفه من ركود الهواء، وقال لجَجّو:

– بُنَيَّ، الإيمان هو أن تقاوم شرور نفسك. أن تكون صادقاً، وساعياً في الخير، وتنجد الإنسان الضعيف، ولا ترتكب المعصية. الناس يحبّون الله بعد الخطيئة لا قبلها. أنقذهم بالرحمة، ولا تروِّعهم بالعقاب. الله منحنا الحرّية كي يرى أعمالنا، فلا تُقَيِّد الناس، واعمل على توسيع قلبك.

عاد جَجّو، مع أمِّه، بسيّارة بهنام الفورد البيك آب إلى كرمليس، وفي اليوم التالي عرض على راعي الكنيسة فكرة شراء ماكينة خياطة. توقَّع القسّ يوسف أن تنزل على كرمليس نعمة إلهيّة، فجَجّو سواء كان خيّاطاً، بلا موهبة، أو شمّاساً فاقد الشرعيّة، فهو في النهاية، مفاجأة من صنع الله، لكنّه لم يدقِّق في الأمر، وبقي لأيّام يقتصد في الكلام، ويهتمُّ بواجباته اليوميّة، متوارياً عن الأنظار خوفاً من جنون روز. جَجّو أيضاً بدا هادئاً، وأقلّ اكتراثاً بما يفعله الشيطان بالبلدة. كانت تلك بداية مرحلة التفكير عنده إلى درجة أنّه أهدى شمونيا، صباحاً، كيساً من حلوى الغزنايج، وقال لها إنّه تذكَّرها وهو في الموصل.

تأثَّر قلب القسّ يوسف كثيراً حين أعلمه بهنام بما جرى في المستشفى الجمهوري، وشعر بالقلق لأنّ جَجّو لم يخبره بزيارة مثلّث الرحمة. تلاعبت به

هواجسه، لكنّه سرعان ما استعاد ثقته بأنّ جَجّو لن يستغلّ ميل الأبرشيّة إلى السِّلْمِ، في نيل رتبة الشموسيّة لقاء التضحية بحربه الرسوليّة على شرّ الغرائز. قضى نهاره وهو مرتبك المشاعر. تسلَّق ظهراً تلَّ بربارة، وجلس يتأمَّل بؤس بناء الكنيسة في الأسفل إلى أن غابت الشمس. تعذَّبت روحه لأنّه تعامل مع وشاية بهنام بدنيويّة مقيتة. وانتقد، مع نزول الليل، انغماسه في تفاهات لا تليق برتبته الكهنوتيّة. كان جَجّو ينام منطوي الأطراف مثل لَقْلَقٍ أخطأ في قياسات بناء العشِّ، فقارن القسّ بين أن ينال جَجّو المخبول راحته الكبرى في الإهانات، وبين أن يتخوَّف هو من توبيخ مثلّث الرحمة.

في الصباح ركب القسّ يوسف مع بهنام في سيّارته الفورد، ونزل إلى الموصل. اشترى ماكينة خياطة ماركة singer من ماله الشخصيّ الذي ادَّخره لتجديد كنيسة القدّيسة بربارة، ثمَّ عاد إلى كرمليس قبل المغيب. لم تظهر الفرحة على جَجّو، وبدا غير متيقِّن من أنّها له. تبادلا عبارات باردة بشأن ما يمكن عمله للتغلُّب على قباحة فناء الكنيسة، فوُفّق القسّ إلى فكرة زراعة المزيد من أشجار الزيتون للتستّر على دمامة السور، وتنقية الجوّ من أنفاس موتى الرواق. لحظتها قال جَجّو، وهو يُحرِّك يديه سابحاً في دوّامة الهواء:

– قلبي يُفكِّر بالهدايا.

تأخَّر القسّ يوسف قبل أن يسأله:

– هل تعرف كيف تستخدم ماكينة الخياطة؟

ردَّ جَجّو بإعياء:

– أعرف ما كانت تفعله أمّي.

تخلّى القسّ يوسف عن المزيد من المال من أجل شراء الأقمشة، لكنّهما اضطرّا في النهاية إلى الاستعانة بشمونيا كي توجّه جَجّو الخيّاط إلى ما ينبغي عليه أن يتوخّاه في موهبته الجديدة. كانت في الثانية والعشرين. مدوَّرة الوجه ببشرة خمريّة، وفي عينيها الضيّقتين نظرة طازجة. مصبوبة القامة بإتقان، إلّا أنّها رقيقة البنية، ولا يبدو عليها أنّها تملك عضلة واحدة كعذراوات البلدة. لم يكترث شقيقها كوركيس بالشفقة الكبرى التي كانت تظهرها أخته شمونيا لابن خالتها جَجّو، وعدَّ ذلك من باب العطف الذي على الأقرباء القيام به تخفيفاً للنكبات التي تتعرَّض لها عائلة بنيامين الشقيّة، لكنّ شمونيا انحرفت قليلاً عن الواجب، وراحت تحترم أفعال ابن خالتها الوحيد جَجّو، وهي معجبة بمبادئه الصامدة.

أخذت تتردَّد كثيراً، في فترة ما بعد الظهر، إلى الكنيسة، لتقديم الدعم الممكن لخياطة دشداشة مقلَّمة، بينما جَجّو يعتاد بتمهُّل على الزفير المختلف الذي يفوح من صدرها، وهو أحمر الوجه، وأنفاسه متسارعة.

أضافت شمونيا تطريزات باللونين الأحمر والأسود إلى ثوب جَجّو الأبيض كشفت في النهاية عن مشهد تصويريّ متخيَّل لمعاناته في طقس الوعظ. فرح جَجّو بذلك، ووعدها بأن يجلب لها المزيد من حلوى الغزنايج، إذا ضربوه مجدَّداً، ونقلوه إلى المستشفى الجمهوري في الموصل. بقيت ساعتين تعصر أصابعها مداريةً وثبات قلبها، وغير قادرة على رفع رأسها.

لا أحد في كرمليس توقَّع أن يعود جَجّو ليظهر في الطرقات بزيّه الذي يوتّر الأعصاب. بدا في الجمعة الأولى من شهر نيسان أكثر أناقةً وهو في ثوبه الأبيض المطرَّز بصور تمثيليّة بدائيّة تشبه تلك المشغولة على الشالات التي تلفُّها الأمّهات من تحت الإبط إلى ما حول الرقبة في الأعياد والأعراس. مرَّ اليوم بسلام رغم أنّ جَجّو لم يترك الوجيه بطرس كنّي لحاله، ودعاه مجدَّداً إلى أن يرحم بناته، ثمَّ تفقَّد نقيّة زوجة إيليا الحدّاد، وأعطى الثياب التي سهر على خياطتها لأرملة زخريّا لأنّ أولادها الأيتام بعدد ما صنع.

صباح السبت ذهب الوجيه بطرس كنّي إلى كنيسة مار أدي، والتقى الخوري توما كرمو، وحرّضه على التدخّل لإنهاء مهزلة جَجّو الذي جعل بلدات برطلة، وبحزاني، وتلكيف، تسخر من كرمليس التي باتت تشعر بالخجل لكثرة المجانين فيها، واقترح إبعاد القسّ يوسف كوماني عن كنيسة القدّيسة بربارة إذا ما وجدت الخورنة المقدَّسة أنّها ستكون محرجة أمام بقايا عائلة بنيامين المنكوبة بنسبها إلى مار أدي الرسول. كان الوجيه بطرس قد تعمَّد الظهور بأبهى حُلّة، وهو بالطاقيّة المخروطيّة، والغترة التي لا توجد لها أخت، وبالزبون الذي يفرض نعومته عن بعد، وقال بنبرة جديّة:

– جَجّو يخطّط لثورة. كلُّ شيء كان هادئاً في حقولنا حين كانت كلمات الربّ تُقال في الكنيسة فقط.

انكمش الخوري توما كرمو ثمَّ تكلَّم:

– علينا البحث فينا عمّا يُخجلنا، قبل أن نقول لجَجّو لا تفعل ما تفعل. لقد خجل الوثنيّ ديوسقورس من ابنته بربارة لأنّها اعتنقت المسيحيّة، وكان وقتها من وجهاء مدينة نيقوميديا. هو قطع رأس القدّيسة، فماذا أنت فاعل بجَجّو؟

تورَّم بطرس بالغضب، واحمرَّ أنفه العريض، ورفع سبّابته محذِّراً:

– جَجّو يرقد على بيوض الجنون، وقريباً سترى العديد خلفه. لن يكون بمقدورنا جذب أحد إلى عيد بربارة، وستتخلّى القدّيسة عن زرعنا وكرومنا بسبب العار.

***

كان جَجّو قد طبع قبلته العفيفة على رخامة قبر يوليانا، وخرج لملاقاة شمونيا تحت سقيفة المطبخ، عند رواق الموتى، حين لمح الخوري توما كرمو يتكلَّم مع القسّ يوسف في فناء الكنيسة. وجد شمونيا قد سبقته إلى سلق البيض وهي تفتِّش بعينيها عمّا يمكن فعله من أجل البقاء أطول فترة بجوار جَجّو. كانت في ثوب أزرق طويل مزيَّن بنسخ كثيرة من نجمة الهداية الذهبيّة، ملتفّة على نفسها مثل خيزرانة البامبو، وبخدين رطبين. سألته وهي تعصر أصابع يدها اليسرى، وبصرها يحرث الأرض:

– لماذا تُقبّل قبر يوليانا ولا تفعل هذا مع القدّيسة بربارة. هل تحب يوليانا أكثر؟

نظر جَجّو إلى الأرض مثلها، وقال:

– أنا أواسيها، فقد نسيها البابا، ولم يرسل إليها عَظْمة من جسدها كما فعل مع القدّيسة بربارة. لقد جلبوا عَظْمة صغيرة من جسد بربارة من الأماكن الصحيحة، ولكن لا أحد انتبه إلى أن قبر يوليانا بلا ذخائر مقدَّسة. لا أحد فكَّر بأن يعيد إليها شيئاً من جسدها الجميل المقدَّس رغم أنها هي أيضا آمنت بالمسيح، وقتلوها لأنها رفضت العودة إلى وثنيتها. لا أريدها أن تحزن بسبب هذا.

حرمهما القسّ يوسف من إطالة الحديث حين قدم ليقف بينهما. نظر إلى جَجّو بوجهٍ قلق، وقال:

– الخوري توما كرمو حذَّرني من خطر قد تتعرَّض له إن خرجت للوعظ. وجهاء كرمليس لا يريدون أن تتحدَّث عن الخير والشر بعد الآن.

أخذ جَجّو خطوة إلى اليسار، وقال لشمونيا:

– كم أنتِ محظوظة، يبدو أنني سأنام قريباً في المستشفى الجمهوري.

نجح القسّ يوسف كوماني في جعل جَجّو يوافق على تكفُّل أخويّة الحبل بلا دنس بمهمّة توزيع الملابس التي ينتجها بين المحتاجين، وقد رحَّب الخوري توما بفكرة أن تكون الراهبة تيما الوسيط الخيري بين جَجّو ونساء البلدة، كما وعد

بتقديم الدعم المالي لتنمية عواطف الإحسان والرحمة بين الكرمليسيين. التزم القسّ يوسف بكل توصيات الخورنة الروحيّة بشأن المحافظة على وقار جَجّو النفسي، وعدم المبالغة في تقدير حجم النشاطات الشيطانيّة في البلدة، وقد استغل هذا الودَّ في حثِّ الخورنة مجدداً على منح جَجّو رتبة الشمّاسيّة كونها الضمان الأكيد لحمايته من الغدر. تجنَّب الخوري توما كرمو النطق بالحقيقة المؤلمة، فقد كانت حكمته السبعينيّة مبهمة أحياناً، وغير مستوفية لشروط الواقع لذلك احتاج إلى أسبوع قبل الانفراد مرّة أخرى بالقسّ يوسف في فناء الكنيسة وبقلبه عزيمة جادّة على إبادة الأمل:

– مهما بالغنا في تحقيق الإرادة الإلهية، فإننا لا نملك أن نكون أصحّاء. أنا وأنت نعرف السر، ولكن الناس يحتاجون إلى رجل محترم، وعاقل ينقل إليهم كلام الله.

ردَّ القسّ يوسف:

– كأنَّك تريد القول إن على جَجّو الاكتفاء بالإيمان فقط، وألا يطمح إلى نيل احترام الله والناس معاً.

تساءل الخوري بعد أن عصر الحزن قلبه:

– ألا تساعدنا ملابسنا الكهنوتيّة على تغطية الكثير؟.. مهما حاولنا تسلُّق سماء الحقيقة، إلا أن الإيمان في الواقع يشبه إعلانات الكوكا كولا.

***

كان صباح يوم جمعة حين جاءَت شمونيا في موعدها حاملة ثوب جَجّو الأبيض النظيف مع البيض والطحينيّة وخبز الرقاق. انتظرته إلى أن ختم واجباته بالقبلة العفيفة. كانت منشرحة لأنها ستمضي فترة ما بعد الظهر في الخياطة، ولن تغادر الكنيسة إلا بعد عودة جَجّو من جولة الوعظ. ذكَّرها بتوصيات الراهبة تيما التي تعرف كلَّ أيتام كرمليس. تيبَّست ملامح شمونيا، وهي تخبره:

– سمعت الرجال يقولون عن الراهبة تيما إنها جميلة.

حاول التوازن مستنداً بنظره إلى عينيها:

– أنا لم أسمعهم.

– ظننتك سمعتهم.

أبقى كلام شمونيا في رأسه، وفكَّر بالطريقة التي يمنع فيها الرجال من قول هذا. تناول طعامه بلا انتباه حتى أنه لم يركِّز في صلاة القسّ يوسف، ولم يستغرب كعادته من طريقة شمونيا في سرقة اللقمة. لأول مرّة يشعر أنه من

غير المناسب إخبار القسّ يوسف بأمر كهذا، فقد تأثَّر كثيراً لأنه لم ينتبه إلى أن الراهبة تيما جميلة. ارتدى ثوبه الأبيض وترك شمونيا تدقِّق في كمال صورته الإيمانية. ألبسته الصليب الثقيل، وبقيت وسط فناء الكنيسة، تتأمَّل سباحته في الهواء إلى أن خرج، هابطاً إلى الشارع.

كانت شمونيا على وقفتها المنتشية تلك حين سمعت الرصاصة وهي تنطلق من مكان قريب لتشقَّ السكون بدويٍّ مفزع. ركضت بخوفها إلى خارج الكنيسة. كان جَجّو ممدَّداً على ظهره في عرض الطريق، والدم ينبع من كتفه.

انحنت شمونيا عليه حاصرة ثوبها بين ساقيها وكل ظنها أنها تنظر لأول مرّة إلى إنسان ميت. فتح جَجّو عينيه ببطء محاذراً الاتيان بحركة تزيد الألم، وقال لها بأنفاس متسارعة:

– قولي لأمّي أن تجلب بهنام وسيّارته الفورد، وتأتي لتأخذني إلى المستشفى الجمهوري.

الأميركي ساس

في يوم الأحد المصادف الثالث من كانون الثاني عام 1965 ظهر في البلدة رجل لا يجيد اللغة السورثيّة، ويتكلَّم العربية باللهجة البغداديّة يُدعى إسماعيل دنحا، جاء ومعه ابنته أراسيا بصفته ممثّلاً عن شركة ساس الزراعيّة الأميركيّة العراقيّة. كان الوجيه بطرس كنّي أول من بشَّر بقدوم إسماعيل إلى كرمليس، فقد جمع في بيته ستة من كبار مزارعي السهل المسيحي الشرقي، ومعهم مستشار الأزمات، المهرِّب الشهير، أبلحد بابكا، وتنبّأ لهم بأنّ نجماً جديداً سيظهر في السماء، وعصراً انقلابيّاً سيولد في البلدة. اتفقوا على إبداء التفهُّم لكلِّ ما ستطرحه شركة ساس من منتجات ونصائح لرفع مستوى الإنتاج الزراعي وتحسينه، وقرّروا تقديم الدعم كي يحظى ممثّل شركة ساس بكلِّ أوجه الراحة. واقترح أبلحد بابكا إظهار الكرم الفدائي أمام الأجانب بأن يتكفَّل الآغوات بالإنفاق على مراسيم استضافة ممثِّل الشركة، ونصحهم باختيار بيته ليكون دار الاستقبال الأوّل أثناء مرحلة التعارُف، لأنّه الأقرب معماريّاً إلى روح الحياة العصريّة. ونبَّههم إلى أنّ هذا السلوك الغزلي سيجعل الولايات المتّحدة الأميركيّة تنظر بعين شرهةٍ إلى رؤوس الأموال في كرمليس. وتطوَّع بإحاطة ممثِّل الشركة بأرقى مظاهر النعومة، واعداً بخفض بدل إيجار بيته إلى النصف إسهاماً منه بالترحيب.

كان الثريّ إسماعيل شخصاً أنيقاً، خشن العظم، أصلع، وبأنف كبير، حادّ النظرات، ومتنبّهاً، ويبدو عليه المكر. وهب الخورنة، بعد وصوله إلى البلدة بيومين، ألف دينار، واشترى، في اليوم السادس، أرضاً شرقيّة معزولة عن روائح

البلدة. وما إن طلع عليها النهار حتى شرع العشرات من العمّال ببناء القصر الحجري الذي سيُعرف لاحقاً بقصر أراسيا.

في ذلك العام، اكتشف الكرمليسيّون أنّ الحياة حلوة. كان العديد من شبابها يغادرون البلدة إلى جامعات الموصل وبغداد، وبينما أخذ شيوخها ينحازون إلى فكرة المتعة، اشتعلت خلافات الميراث، وكثرت الأموال، وصار بالإمكان سقوط قتلى، وظهور اللصوص.

بدا على الثريّ إسماعيل دنحا، الذي أخذ يُعرف لاحقاً باسم الأميركيّ ساس، أنّه غير مستعجل، ولا يملك أيَّ تصوّرات مؤكَّدة عن نوع التطويرات التي يمكنها تغيير كرمليس زراعيّاً. يظهر دائماً برفقة الوجيه بطرس، والمهرِّب أبلحد اللذين كانا يُروِّجان لمزايا ومواهب أراسيا أكثر من تلميعهما قدرات شركة ساس. كانت البلدة معتادة على رؤية الأجانب، وواثقة هذه السنة من جدّية الحظّ. ورغم أنّ الأميركي ساس استعرض كامل هيبته، وأخرج من الحقائب كلَّ ملابسه، عمَّق، دون أن يدري، انطباعاً بأنّه قوّاد أكثر منه رجلَ أعمال، جاء ليحارب واقع التفكير الزراعي المتخلِّف في كرمليس. استغرق الأمر أكثر ممّا تتطلَّبه الاستراحة من السفر، وسرعان ما استولت أراسيا بجمالها، وبملابسها الغريبة، ولكنتها المتكسّرة على فضول الجميع، ومعهم أبلحد بابكا الذي أخذ ينسى نفسه كثيراً.

تراجعت همّة آغاوات السهل الشرقي، بعد انقضاء شهر ونصف الشهر على الكسل، وانقطعوا عن حضور ولائم الشرف، فهم لا ينقصهم المال الذي ينفقه الأميركيّ بقلب ميت، ولكنّهم يتحسَّرون على العقل النظيف. حاول الوجيه بطرس كنّي إنقاذ الموقف بأن وجَّه دعوات لمعاوني محافظ نينوى، ونظَّم زيارات لمهندسين كبار في بلدية مدينة الموصل موحياً بمباركة الحكومة طموحات البلدة، لكنّ ذلك جاء بنتائج عكسيّة، لأنّ الحكومة، منذ انقلاب عام 1958، لا تغيِّر، في العادة، سوى زيِّ أفراد الشرطة في مركزهم الوحيد في البلدة. تصرَّف أبلحد بابكا بنباهةٍ سريعةٍ لمعالجة سوء الثقة، واستأجر مجموعة من المسّاحين مع طاقم هندسي ببزّات صفر عليها شعار ساس ومزوَّدة بخوذات مناجم، وأجبر الأميركي على الظهور مع أوراقه، ومساطره، وأقلامه، متعرِّقاً بين الناس، وقد خفَّف من أناقته، وانهمك في التحضير للازدهار. لم يطمح الوجيه بطرس بأكثر من

استعادة مركزه التوجيهي كرجل يعرف ماذا سيحدث، لذلك أبقى على قلقه، وكثَّف شكوكه المتربصة لأبلحد، وراح يتعامل بحذر.

كانت البلدة تعتز، بكثير من المرح، بتلك الظهورات المتكاثرة لسيّارات المراكز الثقافيّة الإنكليزيّة، والفرنسيّة المنتشرة في الموصل، التي كانت تجوب القرى المسيحية، وتعرض أفلاماً مضحكة، أو توزِّع الحلوى، وتقيم مسابقات غبيّة، يمكن لأيِّ شخص بعدها كسب سلّة متخمة بإنجازات أوروبا المعاصرة. لم تكن أكثر من منافسة غير واضحة الجديّة بين البروتستانتيّة والكاثوليكيّة، تمدّ الأهالي بالسعادة، لأنّ ذلك يعني أن أوروبا كلَّها مهتمّة بشيءٍ اسمه كرمليس. كان واضحاً للوجيه بطرس أنّ أبلحد يريد من حثِّ القنصليّات الأجنبيّة على هذا التهريج، صناعة أجواء مناسبة للتودُّد إلى أراسيا، وكان يراه يزداد تورّطاً في الحب، بذريعة أن أرجل الأميركي ساس وابنته غير كافية لقطع الخطوات نحو الأمام، واستدراج المستقبل، وإذا ما أرادت كرمليس أن تكون لها مكانة محترمة، فعليها أن تزدحم بالناس على مدار السنة، لا في عيد القدّيسة بربارة فقط. وقد أثبت أبلحد للوجيه بطرس نجاح خطَّته، فقد وافقت المحافظة على ضمِّ ألف دونم من الأراضي إلى الحدود الإداريّة للبلدة، وأبقت التفاصيل طيّ الكتمان.

***

أبلحد الذي وُلد في برطلة عام 1914 من بابكا البعشيقي وصوفيا الإيطاليّة، وعاش عمره بلا قانون، ولا عقيدة، يدرك أنّ كرمليس لن تصبر كثيراً على حيلته، لذلك أوعز بمضاعفة قوافل الحمير لنقل البضائع الزراعيّة المهرَّبة من إيران إلى العراق، وتعاقد مع أتراك لإدخال بذور البصل الأحمر الإيطالي، وشتلات الزيتون، وأسلاك مُجَلْفَنة لزراعة العنب، ورشّاشات محوريّة مستعملة. كان أبلحد يشعر بمسؤوليّة أخلاقيّة عميقة تجاه الذين يوقعهم في حفرة احتياله. لم يتخلَّ أبداً عن زيِّه العربي الذي يوحي بالترف، وكان طوله المتفوِّق على الرجال، واستطالة وجهه، وسمرة قسماته، وقلبه الذي بحلاوة البقلاوة، عوامل دعم لتطلُّعاته لأن يكون مبعوثاً من السماء. رفعته مكاسب تجارة التهريب إلى مرتبة القدّيس الدنيوي، وتحديداً مع بلدة كرمليس التي تحتوي على أكبر عدد من المغفَّلين، فهو، رغم كلّ أفعاله، لم ينجح أبداً في إقناع أحد بخسَّته المدمِّرة. كانت له يد ملاك مثقوبة تتخلَّص سريعاً من الدنانير، وعندما يُفلس يتحوَّل إلى شيطان يسلب الأراضي، والبيوت، والأحلام، بالنصب، ويسجّلها كديون بذمّته. عاش

أبلحد ينافس أبرشيّة الموصل على البرِّ والإحسان. رمَّم في حياته كنائس قلب يسوع، ومازينا، ومار يعقوب، والطاهرة، وسركيس، وباكوس، ومار يوحنّا، في قضاء الحمدانيّة، وموّل خمس مؤسّسات خيريّة من أرباح تجارة السلاح. أمّا ما كان يجنيه من نقل المخدِّرات، فكان يعوّض به الذين خدعهم ونكَّل بحياتهم. كان جَجّو يرى أبلحد أيقونة رجاء، ويثق تماماً بأهدافه، فكما أنّه عاش شمّاساً بإخلاص دون أن ترحمه الكنيسة برتبة الشموسيّة، جعل أبلحد من نفسه نسخة طبق الأصل من ملاك دون أن يتلقّى من الأبرشيّة اعترافها بسقوطه من السماء، وكثيراً ما كان يردِّد جَجّو، وهو تحت تأثيره الروحيّ، الأغاني الرعويّة التي تُمَجِّد حكاية أبلحد مع رئيسة أخويّة الحبل بلا دنس، الراهبة تيما، التي عاشت على درب المجد السماويّ دون أن تفتح شعرها للشمس إلّا مرّة واحدة وذلك للتداوي من جرح أصابها، وحتى لا تحزن على بتوليّة رأسها، وهبها الربّ شُقرة وبركة في بروتين الكيراتين، وجعل شعرها ينمو تسعين سنتمتراً كلَّ ستّة أيّام، وهو عدد الحوامل اللواتي تعاركت تيما مع عزرائيل من أجل إنقاذ حياتهنّ. كان أبلحد قبل أسبوع من يوم المعجزة قد استأجر عشرين مضمِّداً مأذوناً مع مستلزماتهم الطبيّة ونقلهم إلى كرمليس ليلتحقوا بخدمة الراهبة تيما التي جاء في بالها شنّ حملة توعية ضدّ دودة الأنكلستوما. ويوم أصابتها معجزة الربّ أقنع أبلحد قداسة الطيّب الذكر المطران عمانوئيل ددي أن يمجِّد الروح القدوس بأن تكون الراهبة تيما طقساً عجائبيّاً علنيّاً لعبادة وإكرام المؤمنين، وأن تقصّ الراهبات شعرها كلَّ يوم أحد في فِناء كنيسة مريم العذراء على أن يتكفَّل هو بنقل الشعر الأشقر إلى كنائس العالم للتبرُّك. ولكنَّ الحقيقة أنّ أبلحد أخذ يُصدِّر شعر تيما إلى أوروبا، وعقد صفقة مع شركة إيطاليّة لتصنيع الباروكات، وبالأرباح أدخل المكننة الزراعيّة إلى القرى الشرقيّة، واشترى ثلاث حاصدات جعلها وقفاً لشيرا [1] بربارة. وكانت الفضيحة حين وصلت ملصقات فيلم جولييت والأشباح إلى سينما الفردوس في الموصل، واتّضح للخورنة الكرمليسيّة أنّ الممثّلة ساندرا ميلو تظهر في مشهد عاريةً تماماً، وهي ترتدي باروكة شقراء ماركة تيما، فأصدر قداسة الطيّب الذكر المطران عمانوئيل ددي مرسوماً منع بموجبه أبلحد من دخول الكنيسة، وأسقط عنه سوابقه الخيريّة.

كانت أراسيا، بقناعة أبلحد، أكثر إشاعة للأمل ممّا يمكن لشركة ساس الأميركيّة أن تفعله لتحسين زراعة الحنطة والشعير. أتمَّت العشرين في اليوم

التاسع من السنة. صافية البياض، شقراء، دقيقة القياسات، روحها تتنفَّس من عينيها الواسعتين اللتين لا تتّحدان بالنظر إلّا عند الانتقاء الصائب. تبدو معتنية بحركاتها ومترفِّعة. تظهر وحدها بفساتينها الزاهية، وقبّعاتها الناشرة للظلِّ، مرهفة الخطوات، نقيّة البشرة، وتعطي شبهاً للصورة التي تنقلها الروايات عن القدّيسة بربارة حين ظهرت للمؤمنين، مطلع القرن العشرين، لتخمد النيران التي شبَّت في بيدر قاسم آغا الجليلي. تجول مثل طيف. تصنع ابتسامتها المشرقة دون أن تتكلَّم. تظهر وتختفي مثل لمعة محظوظة لنجم سيّار. كانت شمونيا تنقل أخبارها إلى جَجّو وهي متوتّرة، وحادّة الكلمات مثل فأس، متعمِّدة أن يحدث ذلك بحضور القسّ يوسف كي يناصر ضغائن غيرتها. هي تعرف أنّ القسّ يوسف لم يفرح بظهور نعمة الأميركي ساس، ويقرن تبدُّل الحياة في كرمليس، حين يذكر اسمه، بمكائد الشيطان الإغوائيّة، حتى إنّ الخوري توما كرمو حذَّره من خطر الانغماس في خطيئة الظنّ، وعدَّ ذلك تشكيكاً غبيّاً في تدابير السماء، لكنّ القسّ يوسف كان يكشف في توجُّساته عن حقائق جليّة للنظر، فقد اختلفت البلدة حين ظهر الأميركي ساس، وابنته البسكويتيّة، وأخذ التهذيب يصبح حالة مشاعة في عموم كرمليس التي قلَّت نفاياتها، وخمد غبارها على الطرقات، فضلاً عن ظهور النظافة على هيئة الشباب، وتحسَّن ملبسهم، كما شاعت ألعاب القوى، وانتشرت الفكاهة، وحدث إقبال على شراء دهن الشعر، والعطور، والسجائر الأميركيّة، وأخذ بهنام يغسل سيّارته الفورد البيك آب موديل 1959 كلَّ يوم، ويقودها بسرعة في الطرقات متعمِّداً إظهار النزق. وبينما كان قصر أراسيا يتأسَّس بمهابة وسرعة، كاشفاً عن اختلافه الساحر، تيقَّن شباب كرمليس أنّ ابنة الأميركيّ ساس تجد جَجّو شخصاً مبهجاً. لقد ابتكر القسّ يوسف العديد من الذرائع كي لا يواجه أراسيا وهي جالسة في الصفّ الأوّل مع المؤمنين في الكنيسة تراقب الشمّاس غير المرخَّص جَجّو بنيامين وهي تحبس انفجار ضحكتها، لكنّ المصادفات التي تقع كانت أكثر تحقّقاً من قدرة القسّ يوسف على إبطالها، وجَجّو مثل اللقالق، لا يتمتّع بالنباهة.

في العام الذي ظهرت فيه أراسيا، كانت كرمليس تشعر بأنها ليست طيّبة كما تعتقد، ما دام أحدهم قد فكَّر في اغتيال جَجّو الذي قطع مسافة طويلة نحو أن يكون مقبولاً مثل صياح الديكة. حدث ذلك دون تخطيط، رغم أنّ حادث إطلاق النار مضت عليه ثلاث سنوات، فقد كفَّ الجميع عن توجيه الإهانات إلى جَجّو،

وباتوا ينظرون إليه على أنّه الرجل الوحيد في تاريخ البلدة الذي ضحّى في سبيل الخير، والحق، والسلام. ومن أجل الضغط على الكنيسة جرى تأسيس أخويّة برئاسة شابّ ورع اسمه نوئيل يلدا السادس، فقد إحدى خصيتيه في مباراة لكرة القدم، وقد أطلق على الأخويّة المكوَّنة من سبعة أطفال يرتدون الدشاديش المقلّمة اسم «جَجّو الشمّاس الحقيقي». استغلّ القسّ يوسف الاسم لإطلاق المزيد من الانتقادات للكنيسة، الأمر الذي دفع الخوري توما كرمو إلى تحذيره من أنّ علاقته بجَجّو قد تكون محلّ شكٍّ إن استمرَّ على سلوكه الغرّ والهوائيّ. تلقّى القسّ يوسف هذا التوبيخ حين استُدعي على عجل إلى مقر الخورنة بطلب من مثلّث الرحمة الذي انزعج من رسالة مجهولة المرسل وصلته عبر البريد الحكومي تحذِّره من شياطين جُدد دخلوا كرمليس.

لم يكن أمام القسّ يوسف من خيار سوى الدفاع عن نفسه بأنفاس متقطِّعة، واستطاع أن يقول في النهاية:

– البنت الأميركيّة رصاصة الشيطان القاتلة.

قَلَبَ الخوري توما كرمو شفته السفلى، وقال:

– إن كان هذا هو اعتقادك، فليتها تنهي لنا هذه القصّة المملّة.

اعترف القسّ يوسف بأنه لا يتمتّع بمزايا الحكمة كغيره من المؤمنين الرفيعين، ولكنّه يعرف أنّ أوّل رتبة ينالها القدّيس هي الجنون.

أشفق الخوري توما على مرارة الحقيقة التي في فم القسّ، وقال له:

– عُدْ إلى كنيستك واصنع ما شئت.

***

كان صباح يوم أحد حين اعترض ظلُّها المجنَّح طريقه.

لم يكن جَجّو قد سار ما يكفي لإيصاله إلى مركز البلدة حين وجد أراسيا بثوب برتقالي فضفاض تقطع خطواته. تمعَّنت فيه مديرة رأسها على رقبة ثابتة مثل قِطّة، وسألته:

– هل أنت مجنون؟

سخن دمه قبل أن يتمكَّن من القول:

– كلا. أنا شمّاس متدرِّب، واسمي جَجّو بنيامين.

– ولماذا ترتدي هذا الثوب القبيح، والمطرَّز بصور مضحكة؟

نظر جَجّو إلى الأسفل حيث مجسَّمات الخيوط، وقال:

– شمونيا صنعت هذا وقالت إنها ستؤثِّر في الناس حين أخرج إلى الوعظ، وأنا رأيتها مؤثِّرة فعلاً. هذه الصور بعدد المرّات التي جلبت لها فيها حلوى الغزنايج من الموصل. أنا وشمونيا والقسّ يوسف لا نجدها مضحكة بل حزينة، فهذا الرجل الأحمر الذي له أجنحة ملائكة والساقط على الأرض هو أنا.

انحنت مدقِّقة في التطريزات، وهي تُحرِّك رأسها مثل رقّاص الساعة، وسألته:

– لماذا سقطت على الأرض؟

أجاب:

– لقد ضربوني على رأسي. وهنا فقدت الوعي، فجاءت سيّارة بهنام الفورد مسرعةً.. هذه.. أترينها؟ وأخذتني إلى الموصل.

– أهذه السيّارة الصفراء هي الفورد الأميركيّة؟

– نعم. إنّها سيّارة بهنام وهي زرقاء اللون في الحقيقة، وهو يحملني فيها إلى المستشفى الجمهوري حين أسقط أرضاً. لم تكن شمونيا تملك خيوطاً زرقاً وقتها، وأنا أخبرتها أنّ اللون غير مهمّ ما دامت الأحداث حقيقيّة.

اعتدلت ناظرة في عينيه وسألته:

– لماذا تعظهم إن كانوا يفعلون بك هذا؟

ردَّ بابتسامة بلهاء:

– مار أدي الرسول طلب منّي ذلك، وأنا وُلدت بعد ساعة من وصول حارس الذخائر المقدَّسة إلى كرمليس عام 1929.

سألته:

– هل تعرف لعبة الكونكان؟

– كلّا.. أنا أعرف ترتيلة بربارة قديشتا كويلخ مشقيوثا على وزن إلهي رجائي.

– سأعلمك إيّاها. عليك أن تزورني في البيت كي نلعب معاً.

***

المتجر الذي استأجره أبلحد في وسط البلدة كي تفتتحه أراسيا باعتباره المقرّ التذكاريّ الأوّل لشركة ساس الأميركيّة لا يختلف عن متاجر كرمليس سوى بالصورة الكبيرة التي تُزيِّن صدره، وتُمثِّل تراكتوراً تقوده فتاة ترتدي فستان سهرة، بينما الأشياء الأخرى التي احتواها المتجر الذي يفتقر إلى التهوية، ودُهن على عجل، لم تكن أكثر من أدوات مناحل، وأجهزة رشِّ مبيدات، وأكياس

أسمدة، ومصائد جرذان، وكلّها اعتادت كرمليس فشلها في دعم الكسل الزراعي. تبدَّلت انطباعات الوجيه بطرس كنّي عن الأميركي ساس سريعاً، فلم يعد يتمتّع بالوجاهة التي ظهر عليها أوّل مرّة، وبالتدريج أخذ يفقد الموهبة المطلوبة لأداء دور كهذا. ذَبُلَتْ انتصابات الذكاء في مظهره، ومال إلى الشراهة، وأكثر من شرب الكحول أثناء النهار، وأخذ يتحدَّث عن معاناته مع البواسير. ورغم تأكُّد الوجيه بطرس التامّ من صحّة ما قاله أبلحد بابكا بشأن نشاطات الأميركيّ ساس في اللاذقيّة، وإن هذه هي أوّل عمليّة نصب واحتيال يقوم بها في العراق، اشتدّ قلقه من فخامة القصر الذي كان يُبنى في البلدة، وكذلك من تودِّد أبلحد غير العقلاني إلى أراسيا. لم يكتفِ بمقاسمة أبلحد، وإسماعيل، ولجنة البلديّة، الخيرات المستقبليّة لألف دونم أفرزتها الدولة لمصلحة اختبارات زراعيّة وهميّة، بل تعمَّد أن يبدو على غير عادته منتظراً أن يبادر أبلحد إلى الاستفسار. وقد حدث هذا وكشف الوجيه بطرس عن تخوُّفات ابتزازيّة، وقال لشريكه إنّه غير متيقِّن من نيل مكاسب استثنائيّة من بيع الأدوات الزراعيّة والأسمدة، وضيَّق على أبلحد إلى أن أجبره على إشراكه في صفقات الأسلحة مع المتمرِّدين الأكراد في السليمانيّة كي يرتاح باله. وكان ذلك الربح السريع الذي ناله الوجيه بطرس من صفقة الألغام الدليل الأكثر فعاليّة على أنّ أسطورة أبلحد بابكا قد مسحها الحبّ من الوجود.

كان بيت أبلحد في كرمليس، حيث نزل الأميركيّ ساس مع ابنته، أنموذجاً للكتمان الذي ينشده الخليط البشري المتوزِّع بين الموصل وأطرافها. شكله الخارجي يبدو قبيحاً، وينمُّ عن بدائيّة، وجبهته لا تتجاوز خمسة أمتار إلّا أنّ عمقه يعطي حصّة للاعتداد بالنفس، والتمسّك الشغوف بملذّات الحياة. كان الأميركيّ ساس يتنعَّم برفاهية الوجاهة في الجناح المتقدِّم حيث توحي الغرف المبطَّنة بالرخام الأزرق بسقوفها التي نحتها البنّاء اليهوديّ الشهير إلياهو زعرور على شكل زهرة البيبون، بالسيادة، وقوّة الإرادة. وكان أبلحد يُعمِّق هذا في مسامع المزارعين، فينهمك في رسم الأحلام إلى أن يتمكَّن مشروب العرق من الضيوف، فيتسلّل إلى الجناح الثاني حيث تجلس أراسيا محاطة بأثاث عصريّ، ومتقيِّدة بتعليمات مُربّية كرديّة اسمها سورما. يتبادل معها استفسارات عاديّة يسلسلها بلطف حتى تثير المشاعر، ولكنّه سرعان ما يكتشف أنّ محاولته غير مشجِّعة، فينسحب صاعداً إلى حجرة علويّة تتوسَّط الطريق بين السُّلَّم

والسطح بعد أن يكون قد كسر العرق بالماء في زجاجة متوسّطة الحجم، وأخذ معه حبّات من الفاكهة.

لم يؤمن أبلحد أبداً بوجود عنصر الخير في روحه، لذلك لم يهتمّ لمردودات أن يتحوَّل في ظروف معيّنة إلى كائن بلا شفقة وعدائيّ. وحين أبلغه الخوري توما كرمو بقرار مثلث الرحمة منعه من دخول الكنيسة اعتزل الحياة مدّة أسبوع في الحجرة العلويّة. كانت سورما تسمعه يبكي بحُرقة دون أن تجد الفرصة لتصدمه بالحقيقة. انتظرت حتّى استعاد القدرة على التخطيط للانتقام، وقالت وهي تقدّم له على الفطور نصف كيلو باسطرمة مع خمس بيضات:

– لماذا تحزن على قرار المطران، وأنت لم تدخل كنيسة في حياتك؟

ردَّ وهو يضرب رغيفاً برغيف:

– لا تعجبني الكنائس لأنّها باردة، ولكنّني أحبّ الله.

كان أبلحد قد اتّفق مع إسماعيل دنحا الذي يملك علاقات واسعة مع شيوخ منطقة ربيعة الحدوديّة على أن يعود من اللاذقيّة إلى مسقط رأسه في الموصل من أجل الإعداد لحملة كبرى لتهريب الأغنام إلى سوريا، ولكنّ قرار المطران جعل أبلحد يفكِّر، إضافة إلى ذلك، في تدمير القدرات الزراعيّة لكرمليس، وتسخير أمواله من أجل إذلال الكنيسة، وجعلها تلجأ إليه طالبةً النجدة. وصل إسماعيل إلى الموصل برفقة ابنته أراسيا، وقد فوجئ أبلحد بوجودها ولكنّه تفهَّم تعمُّد إسماعيل، طوال عقد من الشراكة الإجراميّة، إخفاء خبر أنّ له ابنة قدمت إلى الدنيا قبل أوانها بنصف قرن، فأعراف المهرِّبين في الستينيّات تقتضي حجب الارتباطات الأسريّة لضمان عدم قيام القلب بتخريب كلِّ شيء. بَقيَ إسماعيل مدّة شهرٍ متخفّياً عن الأنظار في الموصل حتّى لمعت في رأس أبلحد، بوحي من رفاهية جمال أراسيا، فكرة شركة ساس الأميركيّة العراقيّة، وقد تطوَّر المخطّط بعدها إلى حدِّ استغفال الوجيه بطرس، وإقناعه بالاشتراك في عمليّة نصب واحتيال بريئة. شعور أبلحد الدائم بجبروته يعود إلى قدرته على التضحية بكلِّ شيء في نوبة غباء عابرة دون أيِّ ندمٍ يُذكر، فهو الوحيد من بين أسرته المشتّتة الذي لا يعرف كم تبلغ ثروته. كان قويّ الثقة بعشيقاته اللواتي بعدد بلدات السهل الشرقي المسيحي، فيخصّهنّ بودائع له، إضافة إلى أجسادهنّ المكبّلة بعهود الوفاء. يوزّع أمواله بينهنّ كأمانات قابلة للردِّ كي لا يُضطرّ إلى خسارة ثروته في لحظة طيش، وكانت إشارة منه لواحدة من

العشيقات كفيلة بتجهيز مبلغ فاحش الكميّة. وحدها هناء، زوجته، لم يستخدمها كبنك لأنّه لا يثق أبداً بامرأة مقدّرة له من الربّ. ويوم ماتت بالربو في عيد ميلاد ابنته تريزا السادس، عرف مقدار حكمته في أمور المال، فقد نهب أهلها بيتها بالكامل لأنّها كانت زوجة مهرِّب أطعمها من المال الحرام. لم يعاشر أبلحد سوى نساء جشعات تتعرَّق أرحامهنّ في كلِّ لحظة، ويوم وقفت أراسيا أمامه عرف أنّ على عضوه أن يُجرِّب، هذه المرّة، القيمر بالعسل.

أخذ أبلحد ينزعج من تلميحات الوجيه بطرس، ولكنّه في المقابل انتبه إلى اهتمام أراسيا بجَجّو. كانت تلك الإشارة هي مصدر حزنه. راهن على ترتيبات عشوائيّة من صنع الحياة السخيفة. نبَّه سورما إلى عدم التضامن مع عذريّة أراسيا. حاول إبعادها عن النساء كي لا تتوقَّع ما ستلاقيه لاحقاً. غامر بالظهور معها في الموصل وحرص على أخذها إلى السينما كلَّ يوم اثنين في حفلة العاشرة صباحاً كي يصدمها بعد ذلك بالشمس القويّة. حارب خجلها بقسوة، وكان يُجرِّدها من الخيارات، فتضطرّ وهي معه إلى استخدام تواليت الرجال، واحتساء الشاي على دكّات خشنة. لم يتنازل عن زيِّه العربيّ، واكتفى فقط بأن يكون ناعم الوجه، وبلا شارب. لا يسألها إن كانت مستمتعة أو متضايقة. يغيّر لها المنظر بسرعة قبل أن تكره، أو تحبّ. يأخذها إلى شارع السرجخانة، ويجبرها على خلع ملابسها مراراً في غرف القياس. يمدُّها بقطع الملابس كي لا تتكوّن عندها عقدة الاحتماء بمظهر واحد، وتتعوَّد فعل ذلك بخفّة، وبلا تردُّد، ومتوقِّعاً أن تذهب معه الاثنين المقبل إلى الموصل وقد خسرت الكثير من طيشها. يضعها دائماً أمام حقيقة أنّها خلعت ملابسها خمس مرّات في غرف قياس متعدِّدة، وأنّها خرجت من هذا الجهد بقطعة ملابس واحدة، ورخيصة. بدأ بالأشياء الكبيرة، وانتهى إلى أن ينتقي لها ملابسها الداخليّة. لم يمنحها الفرصة لتكون جاهزة لشيء حتّى إنّه كان يأخذها إلى الموصل بسيّارات مختلفة دون أن يعترف بملكيّتها. كان من الغباء الوقوع في الوهم، فهو يكبرها بثلاثين سنة، لذلك لم يفقد عقله معها، وعزم على تدمير ما حولها كي لا تجد في النهاية أحداً غيره.

كان يعلّمها قيادة السيّارة في غابات الموصل حين سألته أراسيا وهي تضغط على دوّاسة البنزين:

– ما معنى أن يولد شخص بعد وصول حارس الذخائر المقدَّسة بساعة؟

ردَّ ببرود:

– معناه أنّه سيأكل الخراء طوال حياته.

---

[1] عيد، باللغة السورثيّة التي تتكلّم بها البلدة، وهي لهجة من اللهجات السريانيّة الخاصّة بالمسيحيّين.

Madame Rochas

انكسرت قطعة كبيرة من قلب القسّ يوسف كوماني. لم يتمكَّن من التصدي لرغبة الخورنة في ترميم كنيسة القدّيسة بربارة من إحسان الأميركي ساس. غلَّفوا السور بأحجار الرخام الأسمر، وزرعوا عدداً كبيراً من أشجار الزيتون، وأعادوا طلي المذبح، وأصلحوا المقاعد، وجدَّدوا بلاطات الفناء، وغيَّروا شكل البئر، ومسحوا من الوجود القبور المجهولة في الرواق، ووضعوا لأضرحة الأغنياء صُلباناً حديديّة جديدة. وبنوا ثلاث غرف في الخلف عند حدود التلِّ لمبيت راعي الكنيسة، والزوّار، وأصحاب النذور.

رفض القسّ الانتقال إلى غرفته الجديدة، وشرع فور انسحاب العمّال بإصلاح السقيفة القريبة من القبور من جيبه، وسدَّ ثقوبها، وحسَّن نظام التدفئة فيها. حافظ جَجّو على صمته احتراماً لهزيمة القسّ يوسف الذي بدا أنحف من السابق، ويعاني رجفة في يديه، وغير سعيد بما يأكل ويشرب. شمونيا شعرت هي أيضاً بالاختلاف لأنّ فناء الكنيسة الجديد لا يعطيها إمكانية أن تبذل جهداً كبيراً ينال استحسان جَجّو، وغمرها الحزن لعدم حاجة الكنيسة إلى العناية.

أخذت كرمليس تتفتّح، وازدهر متجر شركة ساس، وكثَّفت بلديّة الموصل تعاونها مع البلدة، ونظَّمت حملات توعية، ووسّعت امتدادات الإسفلت، وأخذت الحدائق بالظهور، وتأسَّست النوادي الرياضيّة.

انتظرت شمونيا أن يضع جَجّو قبلته العفيفة على رخامة قبر يوليانا، وقالت إنّها ترى أنّ صحّة القسّ يوسف ليست على ما يُرام، لأنّه لم يعد يحبّ البيض.

سألها جَجّو:

– هل تعرفين ما هو الروك أند رول؟

ردَّت بقلق:

– لم أسمع به.

قال بذهن مشتت:

– القسّ يوسف يخاف منه كثيراً، ويقول إنّه انتشر.

دخلا إلى السقيفة وهما يسيران ببراءة كما الدجاج. جلست شمونيا على فراش جَجّو القريب من الباب، وهي منتصبة الظهر، وبارزة الصدر، مقلِّدة جلسة ابنة الأميركيّ ساس في القدّاس. تصنّع القسّ يوسف النوم. كان قد شاهد جَجّو، في اليومين الماضيين، يقف مرّات عدّة مع أراسيا عند البئر، الأمر الذي جرح فيه عاطفة التبنّي، كما أنّ عدم معرفته بما كانا يتحدَّثان به، أصاب كبده بالتهاب الهزيمة. تعامل جَجّو مع ظهر القسّ يوسف باحترام كامل، وطلب منه، وهو يهبط على ركبتيه، مباركة خروجه للوعظ، وقبول أن تعدَّ له شمونيا وجبة البيض المسلوق التي يحبّها.

ردَّ القسّ يوسف بصوتٍ عكسه الحائط بخشونة:

– خروجك للوعظ لا يتطلَّب كلَّ هذا. أنت أيضا تطوَّرت، ولم تعد بحاجة إلى بركات أحد. أبلحد يحملك في سيّارة كاديلاك، وأنت جالس في الخلف، وكأنَّك البابا بولس السادس. لا أحد يضربك الآن يا جَجّو، أو يشتمك. حتّى إنّك لم تصب بالزكام منذ ظهور أراسيا في كرمليس.

نهض جَجّو بخيبة، وهو يشدُّ على شفتيه. لحقته شمونيا إلى فناء الكنيسة. أمسكت به من كتفه فرفع رأسه، ونظر في عينيها. دارت أصابعها حول غلافه الهوائي، لكنّها لم تجرؤ على ملامسة موضع قلبه. تساءَلت بوجهٍ منكمش:

– هل تقبل أن يقول عنك الربّ، وهو يراك هكذا، إنّ جَجّو خرج بحزنه، لا بشجاعتي؟

بَقيَ على وقفته إلى أن ألبسته ثوبه الأبيض والصليب. سبقته شمونيا إلى الشارع متفحِّصة بنظراتها الاتّجاهات قبل سماحها له بالخروج من الكنيسة. سارت معه حتى أوصلته إلى الناس.

قال لها قبل أن يفترقا:

– كوني قريبة منه.. يبدو أنّ القسّ يوسف أصيب بالروك أند رول.

***

اعترض أبلحد طريق جَجّو حين لمحه يعبر من أمام متجر شركة ساس، وأخبره أنّه يفكِّر بافتتاح ورشة خياطة خيريّة لإنتاج الدشاديش المقلَّمة، وملابس النساء، وأنّه اشترى دكاكين إسحاق حبيب وسيهدمها ليبني مكانها كازينو سيطلق عليه اسم صوفيا. وحين لم يردّ جَجّو بشيءٍ قال أبلحد، وهو يمدُّ يده متفحِّصاً ثقل الصليب على صدره:

– كرمليس مكتفية الآن بإيمانها، وحان الوقت لكي توسّع نشاطك إلى أماكن أخرى. البشريّة بحاجة إليك يا جَجّو.

استطاع أن يبتسم، ولكنّه لم يكن بمقدوره الجمع بين فكرتين، وحين ترك أبلحد الصليب، تابع جَجّو سيره وقد خفَّت روحه أكثر.

كان الأميركيّ ساس قد التزم بتعليمات أبلحد بابكا بشأن السير ببطء، وعدم استعمال أيِّ مفردة ترد في خطابات جمال عبد الناصر، واستعدَّ لتأميم نفسه. كفَّ عن الظهور مخموراً، وانقطع عن شرب الويسكي، واكتفى بالعرق المحلّي، وبدا زاهداً، ووقوراً، وأمنية قلبه أن يزوِّج ابنته أراسيا، ويرتاح من همِّ الدنيا. أخذت لقاءاته مع موظفي البلدية يشوبها الحذر، مظهراً الكثير من الحزم بشأن الأرباح والأحلام. وبالمقابل خفَّف أبلحد من تعامُلاته مع أكراد السليمانيّة، وأعلن أنّه اشترى من الأميركي ساس بيته الحجريّ الذي أوشك على الاكتمال، موحياً بقوّة سلطته على أراسيا، وبدأ بلا تردُّد ببناء كازينو صوفيا.

تضامن أبلحد مع روز، وأخذ يتردَّد عليها في فراغات وقتيّة مؤمنة، مقدِّماً النصائح بشأن أشجار الزيتون في ترجلة، وأخبرها بقلقه من نوايا القسّ يوسف، وإن كان جَجّو الآن أفضل حالاً، وانقطعت رجله عن المستشفى الجمهوري، فإن ذلك جاء لقاء إلصاق تُهمة الجنون به، وأن لا فرصة للخلاص من هذا، إلّا إذا هجر جَجّو كرمليس.

كانت روز قد فقدت فرصتها الأخيرة بشأن تخليص ابنها، وتشعر بالحقد على الأميركي ساس لأنّه لم يهب القسّ يوسف فرصة الشعور بالزهو، وراحت تخطط للّجوء إلى الراهبة تيما بعد استقرار رأي الخوري توما كرمو في البقاء على الحياد.

لم تكن الراهبة تيما ميّالة إلى أن يفقد درب الربّ شخصاً نورانيّاً مثل جَجّو، وكانت متيقِّنة تماماً من طيبته النقيّة الشبيهة بالجنون، وأنّه حتّى عندما سألها

إن كانت جميلة، فإنّ سؤاله الغبيَّ ذاك أفرح أعماقها القصيّة، لأنّها كانت قد نسيت هذه الحقيقة تماماً، ورأت أنّ ما يخلقه الربّ لا يجوز نكرانه.

القسّ يوسف هو أيضاً فكَّر في الراهبة تيما، لأنّها الوحيدة التي يمكنها إثبات أن أراسيا وأبلحد يُمثِّلان خطراً على العفّة في كرمليس. حاول في إحدى المرّات توجيه تسلسل الحوار بينهما نحو الريبة التي تتأجَّج يوم الاثنين بين الناس حين يقود أبلحد سيّارته خارجاً من البلدة، وبجواره أراسيا، أخذ وجهها استدارة بدريّة، وهي تبتسم له برهافة زهرة برتقال:

– إنّهما يذهبان إلى السينما.

صُدِمَ القسّ يوسف، لكنّه تمالك نفسه، وقال لها بنبرة منبِّهة:

– أعتقد أنّهم لا يصنعون أفلاماً عن المسيح أيّتها الأخت.

ردَّت بشفقة:

– أرجو ألّا تُرهق نفسك كثيراً في محاربة الشيطان كي لا تقع في خطيئة كُره السينما.

لم يستسلم القسّ يوسف، وانتهز، بعد أيّام، فرصة خسارة فريق كرمليس لكرة القدم أمام فريق تلكيف الضعيف ليهاجم في جلسة توعية دينيّة التهاون المخزي لشباب البلدة، وتفريطهم بقوَّتهم البدنيّة. وحين رأى ابتسامة أراسيا الجالسة في الصف الأول وهي ترمق جَجّو بنظرات الإعجاب قال بدمٍ محترق:

– ملعونة كلُّ امرأةٍ تتسبّب بخسارتنا كأس بطولة الأقضية والنواحي.

وفي المساء اقتحم الخوري توما كرمو السقيفة، وواجهه بالإنذار الأخير:

– لا تخرج عن المحبّة والوئام والسلام، وإذا لم تستطع، فعليك ترك الكنيسة، والذهاب لحرث الأرض وأنت صامت.

وضع القسّ يوسف يده على فمه كي لا تُفلت منه عَطْسة، واستطاع الردَّ بإيماءة وصلت إلى حدِّ الانحناء كي تكون واضحة.

وفي ظهر اليوم التالي طرق أبلحد باب روز التي أخذته إلى مطبخها لتلحق بالبرغل قبل أن يحترق. غابت الرؤية عن أبلحد للحظات بسبب العتمة. وجّهته روز للجلوس على برميل صغير لزيت المكائن مغطَّى بجلد خروف. كانت حاسرة الرأس، وشعرها القطني الوفير مقسَّم إلى الخلف بجديلتين طويلتين. أبلغته أنّ البرغل بخير، وقالت له وهي تقابله بوجهٍ نقيِّ البشرة، ومليح القسمات، بينما ثوبها الأزرق الباهت الخالي من الجيوب والأزرار يقفل جسدها الضخم:

– إن كنت ستتكلّم عن جَجّو، فعليَّ أن أقدِّم لك صحن برغل مع رأس بصل.

أومأ أبلحد برأسه موافقاً، وراح يُحصي براني [1] الزيتون الفخاريّة تحت رفوف القدور التي يوحي عددها بأنّ المطبخ يعود إلى ثكنة عسكريّة. قطَّعت روز البصل إلى شرائح ونثرته فوق البرغل، وقدَّمت الصحن لأبلحد قائلةً إنّها لا تستطيع الانتظار طويلاً:

– سآخذ جَجّو إلى الموصل، وهناك أزوِّجه ابنتي تريزا، وبعدها يُهاجران إلى أميركا. أريدك ألّا تعترضي على طريقتي القاسية، وتتقبَّلي الأمر بكلِّ خسائره. سأجعله يُغيِّر نفسه أولاً، ويعيش مثل البشر بلا أوهام ثمَّ أهبه ثروتي في النهاية.

ردَّت روز على الفور:

– أوافق شرط ألّا تجعلني أموت وحيدة.

قال أبلحد:

– سأبقيه في الموصل إلى أن تموتي.

وقبل أن يبدأ بأكل البرغل سألها:

– أنت امرأة جميلة جداً، ومن عائلة غنيّة، فكيف قُدِّرَ لك أن تنجبي هذا اللقلق؟

قالت روز:

– جَجّو كان يشبهني، ورائحته من رائحتي، ولكنّ الربّ غيَّر شكله بعدما أنجبته بدقائق ليصبح شبيهاً بأبيه، وأعمامه، وأجداده. إنّهم يتكرَّرون بالشكل، ويرتكبون الحماقات نفسها لاعتقادهم بأنّ مار أدي الرسول كان هكذا، وسيظهر في أحدهم من جديد، وإن كانت هذه هي خطّة الرب حقّاً، أظنّ أنّ جَجّو هو أقرب من فيهم إلى المعجزة، وحين يتزوَّج ابنتك، فسينجبه شرط أن يكون اسمه حنّا.

***

أخذت شمونيا تظهر كثيراً برفقة الراهبة تيما، وتُشارك كمتطوّعة في استنفارات التحضير للمناسبات المهمّة، وتنوب عن الراهبات المسنّات في حثِّ النساء على إظهار الاهتمام بنشاطات الأخويّات رغم معرفتها أنّ التشبُّه بالراهبات سيؤدّي في النهاية إلى ظهور الشعر في ذقنها. كانت تعتقد قبل وصول أراسيا إلى كرمليس أنّ النساء متشابهات، وأنّ الأمر يتعلَّق بإرادة الربّ فقط، ولكنّ

الانكسار نال من فرحتها حين رأت فساتين أراسيا، واكتشفت في الصيف أنّ الاختلاف يكمن في المكان الذي يولد فيه الإنسان، لا في درجة العفّة، فنساء كرمليس يُغطّين سيقانهنّ بالصوف، ويَنمن على حزمٍ من شوك أسرا الذي ينفث رائحة تكرهها الأفاعي، والعقارب، ويلبسن ثلاث طبقات من الملابس كي يتدرَّعن بسُمكٍ يفوق طول إبرة البعوضة. كانت شمونيا تغسل الصحن من بقايا الطحينيّة حين سألت جَجّو عن مصدر شجاعة أراسيا وهي ترتدي فستاناً قصيراً ينفخه الهواء ويكشف عن ساقيها.

فهم قصدها على الفور، وقال وبصره في الأرض:

– نحن الفقراء سعادة الأفاعي والعقارب.

توقفت شمونيا عن الحركة، وسألته بقلب مثقوب:

– وما سعادتنا نحن الفقراء؟

تحرَّك جَجّو إلى الجهة المقابلة كي لا تعرف أنه يُفكِّر، وقال:

– سعادتنا برضى الرب عنّا بعد أن نسعد الأفاعي والعقارب بلدْغِنا، وتسميمنا، وموتنا.

وفي يوم أحد بذلت شمونيا مجهوداً كي تجلس بجوار أراسيا في القدّاس. تحسَّن الهواء فجأةً في محيط مذبح كنيسة مار أدي، وظنَّت لوهلة، وهي منتشية بالتراتيل، أنّها تَشمّ رائحة فم الله. أخذت تتنفَّس بعمق بينما روحها تتمدَّد. عندها انتبهت أراسيا والتفتت إليها قائلة:

– إنه عطر Madame Rochas.

كانت الراهبة تيما تعرف أنّ اسم أراسيا له ثقله عند بنات كرمليس، متعمّدة ألّا تضيف أكثر من ابتسامة باهتة عند التهامس بقصصها مع أبلحد، لكنّها لاحظت بشيءٍ من الاهتمام وقع هذا الاسم على شمونيا. لم يكن بالإمكان فعل أشياء مهمّة في البلدة، فما عدا قلّة بسيطة من القدّيسين الذين تحتفي بهم كرمليس، كان عيد بربارة هو الأهمّ، والأكثر بذخاً، وتمسّكاً بالتقاليد، وهو العيد الذي تُرصد له أغلب التبرُّعات، وبالتالي فإنّ نشاطات تيما لا تكاد تظهر، إلّا من خلال متطوِّعات يحلمن بالزواج، أو الإنجاب، لكنّ شمونيا التي تصغر الراهبة بخمس سنوات كانت مختلفة عن الجميع، فهي على صلة نزيهة بأعمال الخير، ولا تريد ارضاء الرب، بل جَجّو الذي طلب منها ألّا تخدم الكنيسة بتقديم البيض والطحينيّة فقط، لذلك سارت شمونيا بفطرتها المؤدَّبة مع الراهبة الشابّة التي

فرحت من أعماقها لأنّها أخيراً حازت صديقة دنيويّة. أدركت تيما أنّ عليها عدم تقييد صديقتها بجداول الكنيسة الصارمة، وكانت لا تخبرها بالطقوس الاحتفاليّة المعتادة، ولا بالغاية من الاستذكار، وتحرِّرها من الرتابة كي لا تستخرج من عقلها أسئلة وثنيّة، وتترك لها فرصة استخلاص إلهامها من طبيعة قلب جَجّو، ومن تشبّعها بطيبته لأنّ الحبّ في النهاية هو درب الربّ.

تعاطفت الراهبة تيما مع نوبات الانقطاع التامّ عن اللحظة المعيشة التي تستولي على صديقتها بين الحين والآخر، ويوم كانتا تتعاونان مع وزارة الصحّة في حثِّ الحوامل على أخذ لقاح ضدّ الكزاز ألصقت شمونيا جملة توعية قالتها لامرأة بجملة أخرى عن استغرابها من الاحترام الذي يُقابل به جَجّو ابنة الأميركي ساس. أخذتها غيبوبة الصورة فجأةً، وكأنَّ جَجّو قفز إلى حجرة جمجمتها، وجلس فيها معطِّلاً بصرها وسمعها عن العمل. شكَّت تيما أولاً في الشيطان، إلّا أنّها ما لبثت أن تمالكت أنوثتها، وتذكَّرت أنّ صديقتها لا تملك من جزاء حبّها سوى ذكرى كيس حلوى الغزنايج. كانتا على وشك مغادرة المستوصف إلى مقرّ الخورنة حين طلبت تيما من الممرِّضة الخروج. دعت شمونيا إلى الجلوس، ووضعت يدها على رأسها قائلة:

– بفستان، وحذاء، وحقيبة يد تركع لك محافظة نينوى بأكملها، لا جَجّو الأحمق فقط.

اعترفت شمونيا بما فعلته في قدّاس الأحد، وكيف أنّها حين جلست بجوار أراسيا تعرَّفت إلى رائحة فم الله، فقالت لها تيما بنفور إنّه عطر نسائي ليس أكثر. ثمَّ تفتَّح وجهها وتذهّبت الشُقرة في حاجبيها وأردفت:

– يوم جاءتني أراسيا قبل شهر لتتبرَّع بمبلغ للأخويّة ظننت أنّني أشمّ منها رائحة نهر الأردن، ولكنّها قالت لي إنّه عطر Madame Rochas.

سألتها شمونيا وهي بكامل وعيها:

– إذا ارتديت مثل ثياب أراسيا فهل سأكون جميلة؟

ردَّت الراهبة، وهي تعيد ظهرها إلى استقامته:

– إذا أردت أن تكوني جميلة، فعليكِ تَعَلُّم اللغة الفرنسيّة.

***

انتظر أبلحد مدّة شهر عودة جَجّو إليه ليسأله عن البشريّة التي بحاجة إليه لكنّ ذلك لم يحدث، فطلب من أراسيا استدراجه إلى المتجر بعد أن وصلته من

الموصل صورة فوتوغرافيّة لابنته تريزا بعدسة مراد الداغستاني الذي لعب بخلقتها وجعلها تشبه بريجيت باردو. لم تجد أراسيا صعوبة في جرِّ جَجّو إلى أبلحد. وحين ظهرت بفستانها الأحمر بدوائره البيضاء بباب المتجر، ودفعت بالواعظ المسكين إلى الداخل وكأنّه أسيرها الذليل، أدرك أبلحد أنّ عليه، من اليوم، فتح أربع عيون أخرى في رأسه.

تعلَّقت أراسيا بعُقدة الحبال التي عند الباب قائلةً إنّها ستذهب إلى البيت لأنّها تكره عَفَن البصل. تعمَّد أبلحد استقبال جَجّو باحترام باذخ. ترك مكتبه خالعاً عباءته العربيّة المذهَّبة، وخرج ليوصي له على استكان شاي من المقهى المجاور. تحنَّط جَجّو في مكانه ناظراً إلى البنت التي تقود التراكتور [2] ، وهي بفستان سهرة، شاعراً بالبرودة، ومتخيِّلاً نفسه يوزِّع لكلِّ بيت في كرمليس تراكتوراً كهذا. عاد أبلحد ليُزيح من جهة جلوس جَجّو إلى المكتب نماذج الاختراعات الجديدة في عالم الأدوات الزراعيّة. امتنع جَجّو عن شرب الشاي قائلاً إنّه في واجب الوعظ، ولا يجوز له التمتُّع بالملذّات. تَلَبَّسَ الخشوع وجه أبلحد، وأخبر جَجّو بتلقّيه رسالة من المؤمنين العراقيين في مدينة ديترويت في أميركا يسألون فيها عنه لأنّهم سمعوا أنّ قدّيساً جديداً ظهر في كرمليس ويريدون التحقُّق من الأمر.

سأله جَجّو:

– ولماذا يسألون عنّي؟

أجاب أبلحد، وهو يركِّز في عينيه:

– يعتقدون أن القدّيس الجديد هو أنت.

ظنّ أبلحد أنه لم يكن مقنعاً في نقل مضمون الرسالة فجَجّو لم يبدِ أيَّ تأثُّر، وبدا كأنّه لم يسمع شيئاً، فأقسم له أنه لا يمزح، عندها اضطر جَجّو إلى القول:

– أنا شمّاس متدرِّب يا أبلحد. القسّ يوسف يقول لي هذا كي لا أحزن، وأنا أردِّد هذا حين يسألني أحدهم كي لا أورِّط القسّ يوسف في خطيئة الكذب، ولكنّ الحقيقة أنّ الكنيسة لن تمنحني أبداً رُتبة الشموسيّة لأنّها تراني شخصيّة غير محترمة في كرمليس.

قال أبلحد بقلبٍ هَرَسَهُ التأثُّر:

– لهذا السبب خلق الله لنا أميركا كي يُهاجر إليها الفقير ليصير ثريّاً، ويهاجر إليها الفاشل في الشموسيّة ليصبح قدّيساً.

تساءل جَجّو:

– من يفشل في إصلاح كرمليس كيف له إصلاح أميركا؟

أخذ أبلحد فترة صمت قبل أن يشبك أصابعه ويقول بوقار:

– الربّ يفعل أشياء لا نُدرك حكمتها إلّا بعد آلاف السنين، ويبدو أنّه تخلّى عن شعب ديترويت إلى درجة أنّهم صاروا يرون في الشمّاس قدّيساً. ذنوبهم كبيرة. هكذا قالت لي ابنتي تريزا التي عادت من هناك مع رسالة شعب ديترويت. إنّهم يبحثون لهم عن مخلِّص جديد. أنا أرسلت إليهم قبل شهر صديقك نوئيل يلدا السادس الذي بِخِصْية واحدة، ويبدو أنّه حكى لهم عنك. ابنتي تريزا معجبة بك أيضاً. هذه هي صورتها.

أعطاه الصورة وسأله:

– ألا تشبه بريجيت باردو؟

ألقى جَجّو نظرة محتشمة على الصورة، وأعادها قائلاً:

– نعم.. إنّها تبدو كقدّيسة.

استرجع أبلحد جديَّته بعد ابتسامة مخنوقة، وقال:

– عليك التفكير في هذا يا جَجّو. أعتقد أنّ كرمليس الغبيّة ستبقى ظالمة وشرّيرة، ولكن هناك الكثير من المؤمنين الذين يحتاجون إليك، ورسالتك تقتضي أن تذهب لتعظهم. من الإثم أن ترفض مدَّ يد العون إلى شعب ديترويت.

أمسك جَجّو بصليبه وتساءَل:

– أنا لا أعرف كيف أصل إلى هناك.

قال أبلحد وهو يضرب صدره بقبضته:

– أنا سأهرّبكَ إلى ديترويت.

***

طبع جَجّو قُبلته العفيفة على رخامة قبر يوليانا ولحق بالقسّ يوسف عند البئر. كانت شمونيا تكنس بلاطات الرواق، فتذكَّر أنّ القسّ قال له يوماً: لا تنظر إلى امرأة تنظِّف بيتها. سأله وهو يلهث:

– هل سمعت بما جرى لشعب ديترويت؟

جلس القسّ على سور البئر مسترخياً في دفء الشمس وقال:

– يبدو أنّ أراسيا وأبلحد نجحا في تعليمك حبّ الاستماع إلى الراديو، وبما أنّ هذا قد حدث فعلاً، وصرت تعرف أسماء المدن البعيدة، فأنا أرجِّح أنّ الربّ ضرب

ديترويت بزلزال.

شعر جَجّو بالأسى، وقال وقد بردت فيه رغبة النقاش:

– لم يحدث هذا، ولكنّهم أرسلوا رسالة يقولون فيها إنّهم بحاجة إلى قدّيس.

أنزل القسّ ساقيه إلى الأرض وسأله باهتمام:

– أرسلوها لمن، ومن أخبرك بهذا؟

تردَّد جَجّو قبل أن يقول:

– أرسلوها إلى أبلحد، وهو الذي أخبرني.

انقلب وجه القسّ بانفعالات الغضب، فقال جَجّو مشكِّكاً:

– أنا لا أصدق أبلحد.. كيف يفعلون هذا، وفيهم القدّيسة بريجيت باردو؟

---

[1] كلمة موصليّة من أصل سرياني وتعني الزير الفخاري الكبير الذي يعتّق فيه المخلل.

[2] شاحنة صغيرة لحرث الأرض أو ما يُسمّى المحراث الآليّ.

يوليانا العروسة

مع علامات الربيع الأولى لعام 1966 اكتمل بناء القصر الحجري في الجهة الشرقيّة المعزولة من البلدة، ومعها أيضاً بدت العلاقة بين الشركاء الثلاثة: أبلحد، والأميركي ساس، والوجيه بطرس كنّي مهدَّدة بالتشتُّت، فقد عارض أبلحد مشروع افتتاح نسخ من متجر شركة ساس في أقضية السهل الشرقي بحجّة أنّ الحرب مع إسرائيل على وشك الوقوع، وإذا ما تدخَّلت أميركا، فإنّ الأمر لن يكون مشجِّعاً للتوسُّع. كان الوجيه بطرس يريد مدَّ نفوذه إلى الأماكن التي ترى أبلحد مهرِّبَ حيوانات حقيراً، وكسب المزيد من الأعوان حتى لا يكون لقمة سائغة في فم الإيطالي وشريكه الأميركي، لكنّ معارضة أبلحد الدائمة لطموحاته كانت تزيد من إحساسه بالخطر، ومن شكوكه، فالأموال التي تضخ في كرمليس تدلُّ على أنّ نشاطات تهريب السلاح أكبر ممّا يعلم، وقطعاً ليست بحجم ثلاثة صناديق من الألغام الروسيّة تُرسل لأكراد الجبال بين الحين والآخر. وحين أخذ الأميركي ساس يتغيَّب كثيراً عن البلدة، جاء من أخبر الوجيه بطرس أنّ النشاط الحقيقيّ ليس مع أكراد السليمانيّة، بل مع أكراد سوريا.

كانت كرمليس في ذلك الوقت تزداد انبهاراً بسلوك أبلحد، وترى في استحواذه على أراسيا حالة تقتضيها السمعة المشرِّفة لفحولة رجال البلدة. كان يجيد إظهار اختلافات دمه الايطالي باعتبارها مكتسبات ثقافيّة أصيلة. يُعطي لنفسه لمسة هيبة. يظهر في الوقت المحدَّد، ويتابع أحوال الناس ومشكلاتهم بقلب كبير. يعدهم بالأفضل، ويبشِّر بعصرٍ ذهبيٍّ دون نسيان مقتضيات دعم الأحلام سواء في كرة القدم، أو في الترتيب لحفلة عرس، لذلك لم ينجح سخط

القسّ يوسف في إبطال الأثر العميق الذي خلّفه كازينو صوفيا في عقول شباب البلدة. وفي المقابل لم يفوِّت أبلحد فرصة تلميع مزاياه في الإبداع الزراعي، وهو يخطّط ويهندس الحديقة الملحقة بالكازينو مدّعياً أنّها قطعة أولى من حلم شركة ساس التي تسعى لخلق ثورة جديدة في فنِّ تصميم وتنسيق الحدائق المنزليّة.

اعتقد الوجيه بطرس أنّ أبلحد ينوي افتتاح حانة للمهرِّبين، ولكنّ شريكه كان يتطلَّع إلى تغيير العادات العريقة للأسلوب المنزلي في شرب العرق. وما إن بانت ملامح حديقة الكازينو حتّى انتشرت في كرمليس ملصقات إعلانيّة تتعهَّد فيها شركة ساس بجعل الجنائن المعلَّقة حقيقة ملموسة، ورخيصة الثمن. لم يكترث أبلحد لتشنُّجات الوجيه بطرس، وطلب منه ألّا يتدخَّل في أمر الكازينو لأنّه من المشاريع الخيريّة التي ينوي تحقيقها من أجل الراحة الأبديّة لروح أمِّه صوفيا الحنون. الأميركي ساس أنكر علمه بما يجري، وشوهد في الصباح التالي يركب سيّارة بهنام الفورد، ويذهب إلى الموصل لإجراء عمليّة البواسير. كان ذلك آخر ظهور له في البلدة.

أحبَّ جَجّو مشاهد النشاط التي عمّت كرمليس، وقال لنفسه إنّ هذا من عند الربّ، وفرح باستنتاجاته، وتنعَّمت شمونيا أيضاً بهذا. لم تنقطع الحركة طوال فترة الصيف، فالشاحنة الشيفورليه البيضاء التي كانت تحمل إلى قصر أراسيا الحجري الأثاث، والتكنولوجيا الأوروبيّة الجديدة، كانت تتوقَّف أيضاً أمام كازينو صوفيا حاملة طاولة بيلياردو، وصناديق البيرة. تلقّى جَجّو دعوة من أبلحد لمباركة الكازينو قبل أن يظهر على جماله الحقيقي المكتمل. لبّى جَجّو الدعوة وهو غير مصدّق للمكانة الكبيرة التي خصَّه بها أبلحد، فكرمليس في الغد ستقلّده بهوس، وسيطلب الجميع بركته، حتى لو كان الأمر يتعلَّق بولادة جرو جديد في البلدة، وسيسعد القسّ يوسف بهذا، لأنّه سيُمسك أخيراً بالبرهان الذي سيحرج الكنيسة ويجعلها تندم. رتَّل جَجّو ما يحفظ من المزمور وتحرَّك نحو الجهات الصحيحة ورسم شارة الصليب وهو وسط أكوام الرمل، والحصى، وأكياس الإسمنت. وبعد أن بارك لأبلحد تساءل بصوتٍ معذَّب بالخجل:

– هل ستقدّمون في الكازينو الكوكا كولا؟ شمونيا تحبّها كثيراً.

هزَّ أبلحد رأسه قائلاً:

– وشراب السوس أيضاً.

***

لم تمضِ سوى أشهر قليلة حتى أحيط الكازينو بشوارع معبَّدة، ومضاءة جيداً، وصارت حديقته الواسعة تشيع في البلدة رائحة الورد على مدار الوقت، ومن حفلات الأعراس بات بالإمكان استدراج العوائل إلى لعبة البنغو. كان جَجّو يذهب إلى الكازينو وهو في طريق العودة من بيت أمِّه إلى الكنيسة. بهذه الطريقة فقط يستطيع أن يكذب على القسّ يوسف. لم تكن المشروبات، بأنواعها، تستهويه، فهو يراها عائقة للعزيمة، وتحبط الصبر. وإذا ما اضطرّ إلى شرب الشاي هناك، فإنّه يفعل ذلك دون إضافة السكّر. كانت تُلهمه انطلاقات أبلحد في الجوّ الشتوي، فيدخل إلى الكازينو على أمل أن يسمع شيئاً عن شعب ديترويت المنكوب، إلّا أنّ أبلحد كان يقوّي في الشباب حاسّة احترام الواقع دون التخلّي عن الزهو بالماضي. لم يكن جَجّو الوحيد الذي تصعب عليه تلك الكلمات الكبيرة التي تخرج من فم أبلحد بعد أن يشرب قنّينة كاملة من العرق، ويأكل كميّة مرعبة من اللحم المشويّ، ولكنّه كباقي المستمعين، ينتظر أن يقلب أبلحد قدحه، ويبدأ بتلمُّس السماء مبْعِداً الغيوم بأصابعه، وهو يروي قصصه العجيبة عن آلاف السنين الماضية، وعن البشر في أماكن أخرى، بينما شباب البلدة يفتحون أفواههم غير مصدِّقين أمجاد كرمليس القديمة، وحكايات الجيوش العظيمة التي مرَّت على سفوحها، والأباطرة الذين طمعوا بها وأهلكتهم الأحلام.

كانت الأسئلة تتقطَّر في رأس جَجّو، ولكنّه لا يجرؤ على توجيهها إلى القسّ يوسف، ويكتفي بإخبار شمونيا بتصوُّراته، فكانت تستمع إليه بانتباه شديد، وهي مفتونة في أعماقها بالدنيا التي يحملها إليها صباح كلِّ يوم. تتحوَّل فجأةً إلى مهتمّة، ومتيقِّظة، ومشغولة البال، وباحثة عن أجوبة، ومحشوّة كليّاً بقضايا البشر، ومتأسِّفة لأقدارهم، ومغلَّفة، مثل جَجّو، بذلك الأسى الذي تستمرّ في ارتدائه لأيّام، حتّى إنّ الراهبة تيما كثيراً ما نبّهتها إلى أنّ عليها المشي كما أراد لها الله، ولا تقلّد جَجّو في قطع الخطوات.

لم يعد أبلحد إلى ذكر ديترويت أمام جَجّو رغم أنّه كان يعترض طريقه كثيراً، ويتحدَّثان كصديقين عن أشياء عابرة. بقيت علاقتهما مميَّزة في الفترة التي كان القسّ يوسف يعتبرها فترة الشيطان الذهبيّة. كان جَجّو ينتظر أن يفعل أبلحد الكثير من أجل أيتام البلدة، وظنّ أنّ الرجل يفكِّر في شيءٍ لم يأتِ أوانه بعد. هذا التأخير منحه شجاعة أن يتحدّى إرادة القسّ يوسف، ويخبر شمونيا بأنّه سيقبل

بتبرّع أبلحد لأنّ الله هو الذي يحرّك الأموال وليس البنوك، ولكنّ الشيء الوحيد الذي لم يدخل عقل جَجّو إلّا بكثير من الريبة هو نصائح روز الجديدة، ففي كلِّ زيارة يقوم بها للبيت تخبره أنّها ظلمت أبلحد في أيّام شبابها، وتريده ألّا يخسر فرصته معه لأنّ ذلك سيجعل الزمن يتخلّى عنه سريعاً. لم يكن ججّو وحده من يشعر بالاختلاف، فشمونيا أيضاً باتت ترى أنّ جَجّو لم يستطع مواكبة تطوُّر البلدة. كان في أحيان كثيرة يقف وحيداً، والشمس تضرب رقبته، وتتحلَّل الألوان في عينيه، وهو حائر، لا يمتلك أدنى يقين عن مكان وجود الخير والشر. يشعر بأنّه تورَّط باختلافه عن الناس. يتابع بنظراته المضبَّبة ابتساماتهم وتعبهم. يتحرَّكون كما ينبغي للبشر في يوم جديد. يتعاملون بطريقة طبيعيّة، وهم يعرفون بفطرتهم من هو الجيّد، ومن هو السيّئ. يحبّون تلك الاشواك المتناثرة هنا وهناك، لذلك ليس لديه أيُّ إثباتات على أنّهم يخرقون نواميس السماء. كان جَجّو يشعر بالحرج من ثوبه الأبيض حين يرى أنّ كلَّ شيء على ما يرام، يبدو مأخوذاً بديمومة الحركة، وطراوة الأحاديث، وذلك التشبُّث العميق بالعيش، وانتظار ما ستأتي به الشمس. يرى أنّهم لا يحبّون النقود فقط، بل أن يرزقهم الله نكتة، أو زيارة شخص محبوب، وربما عزومة ما، أو دعوة لشرب كأس عرق، أو مشاهدة أحدهم يرتكب حماقة ما، أو حتى رؤية ملابس أراسيا الداخليّة. يترقَّبون أيَّ شيء ممكن، ويعيشون يومهم بينما هو في الطرقات يفتِّش عن شرٍّ قد لا يقع.

كانت شمونيا تتمتَّع بقدرة على إنكار نفسها حين يحتاج جَجّو منها أن تكون متفهِّمة وحنونة. مرَّت فترة طويلة قبل أن تُدرك حقيقة حزنه، وأنّه لا يمتّ بصلة إلى المصير المؤسف للبشريّة، وإنّما هو عذابه الشخصي المميَّز. كان من السهل عليها الانتباه إلى تردُّد خطواته وارتباك قلبه، عندها تتخلّى عن اهتماماتها كلِّها، ويذهب حبّ الكنيسة والله من قلبها، وتكون له تماماً. كان يوم ثلاثاء حين همس جَجّو في أذنها بأنه سيذهب ليتفقّد المذبح، ويطبع قبلته العفيفة على رخامة قبر يوليانا، ويريدها أن تنتظره عند البئر.

أرادت أن تقول له إنّه كلَّما قبَّل يوليانا يذهب عنه العرج مدّة خمس دقائق، ويحرّك ذراعيه بكمال مثل كلِّ الشباب، لكنّها سكتت، وعزمت على أن تتأكَّد من هذا لثلاثة أيام متتالية قبل أن تخبره. عاد جَجّو سريعاً. مشى إليها بذراعين مسدلتين وخطوات سليمة، وقد بدا لها شديد الوسامة. نظر في عينيها، وهو يلهث، وقال:

– أخبرني أبلحد أنّ مغنّية اسمها عفيفة إسكندر ستقيم حفلة في الكازينو يوم الخميس، وقال إنّ هذا ثاني أهمِّ حدث في تاريخ كرمليس منذ مرور الإمبراطور تراجانوس في البلدة عام 116.

تفتّحت ملامح شمونيا، وهي تقول بفرح:

– عفيفة إسكندر مغنّية مشهورة يا جَجّو وصوتها ساحر، وإذا ما جاءت إلى كرمليس حقّاً كما يقول أبلحد فمعنى هذا أنّ الله يحبّنا.

انقلب وجهها وهي تسأله:

– هل تفكّر أن تذهب لتعظ عفيفة إسكندر في الكازينو؟

ردَّ وعلى وجهه ابتسامة فريدة:

– كلّا.. ما رأيك أن نذهب أنا وأنت إلى الحفلة؟

***

كانا بلا تذاكر، وبلا نقود، لذلك بَقيا في الشارع قرابة نصف ساعة إلى أن خرج إليهما أبلحد وأدخلهما إلى الكازينو. فرح لأنّ جَجّو جاء وهو يرتدي ثوب الوعظ، فهذا سيوحي للجميع بأن الكنيسة تدعم بقوّة كازينو صوفيا، ولن يتجرّأ أحد بعدها على التذكير بالأخلاق. قادهما أبلحد إلى زاوية من منطقة الفراغ البَصَري بين المنصّة وخطِّ المتفرِّجين الأوّل. جلبوا منضدة بمفرش أحمر مع كرسيّين خشبيّين وتيبل لامب صغير وصلوه بالكهرباء. جرى الأمر أمام صمت الجمهور المتطلِّع بذهول إلى جَجّو الذي كان يحمد الربّ بقلبه لأنّه أخيراً صار بإمكانه الجلوس على مَبْعَدة قصيرة من الشيطان دون أن تتملَّكه الرهبة. عصر الشحوب وجه شمونيا، وبقيت متلاصقة الكفَّين وهي تتجنَّب النظر إلى الخلف. لا أحد تجرَّأ على تحيّة جَجّو وشمونيا، فهذا الفصل المكاني جعلهما في مرتبة شرف عليا. أدرك أبلحد أنّه حمَّلهما أكثر ممّا ينبغي، فاقترب منهما، وقال إنّ الكوكا كولا ستحضر حالاً، وسألهما إن كانا يُعانيان من لسعات البعوض. انحنى جَجّو إلى الأمام ليتأكَّد من وجود الفرحة على وجه شمونيا، فقد أخبرها أنّه سيحقِّق لها أمنية كبيرة، ثمَّ قال لأبلحد:

– أنا وشمونيا نحبّ البعوض كحبّنا للبلابل.

تعالت الهتافات، واشتدَّ الصفير مع دخول الفرقة الموسيقيّة إلى الحديقة. سار العازفون بنسقٍ منْضَبِط، وهم بطول واحد، وببدلات سود مفصَّلة بدقّة على الأجساد الرشيقة، وبربطات بابيون حمر، حتّى إنّهم كانوا يحملون الآلات

الموسيقيّة باليد اليسرى. أخذوا أماكنهم بهدوء وهم يتبادلون الإشارات الصامتة مع قائدهم الأكبر سنّاً. دقائق وارتبك الجوّ ونهض الجميع مصفِّقين لدخول عفيفة إسكندر التي تقدَّمتها فتيات بفساتين بيض يحملن السلال وينثرن أوراق الورد على مسار خطواتها. اعتلت عفيفة المنصّة وهي ملفوفة بفستان أحمر مكشوف الصدر وبلا حمّالات. أخذت أوضاعاً عدّة أثناء تلويحها بيدها اليمنى قبل أن يقع بصرها على جَجّو الجالس كغبار راكد، فاستأذنت الجمهور بإشارة من أصابعها المضمومة وهبطت متّجهة إلى جَجّو الذي لا هو ولا شمونيا سمعا جيّداً الكلمات التي قالتها عفيفة قبل أن تأخذ كفَّ جَجّو وتترك عليه دائرة قُبْلَتها الدهنيّة الفوّاحة وتعود بقفزات خفيفة لاعتلاء المنصّة.

في تلك اللحظة تحديداً مات الشيطان ولم يخطر بعدها على بال جَجّو أبداً.

***

سارت أيّام البلدة وفق السوداويّة التي توقَّعها القسّ يوسف، فقلَّت انفعالاته وخفتت عصبيّته. ورغم أنّه بقيَ يعاني من الظلم مثل فيلسوف حكم عليه بتجرُّع السم، كانت أحوال كرمليس تدلُّ على صواب تكهّناته، فقد سلب الكازينو عقول الرجال الذين أخذ الكسل يظهر عليهم صباحاً بسبب السهر وشعوذة الحداثة التي يبثُّها متجر شركة ساس، وعادت الكنيسة تشكو من قلّة المؤمنين، وعُسر التبرُّعات، وبدت البلدة ضائعة بين الماضي والمستقبل. لم يكن القسّ يوسف يعرف وقتها أنّ أراسيا كانت تسهر في الكازينو، وأنّها هي المحرِّض الأكبر على احتساء البيرة بكثرة، فقد انشغل بتبدُّلات جَجّو إلى درجة أنّه كان يشعر بفراغ قلبه وتنتابه في خلواته الحسابيّة مشاعر الندم على إيمانه به، وتلبَّسه الخجل من هدره وقت مثلّث الرحمة بتفاهات رسائله، ولكنّ انقلابه العاطفي لم يُغلق تحسُّساته أمام ما كان جَجّو يعانيه من وحدة إيمانيّة، فكان يبتعد بدلاً من أن يصحِّح، ويقول لنفسه: لا غرابة في أن تكون الكنيسة مأوى المجانين لأنّ هذا يجعل الرحمة الإلهيّة تقوم بواجبها حسب الأصول. كانت شمونيا هي المعين الوحيد لجَجّو، تُشاركه الاعتقاد بأنّ القسّ يوسف ربّما فقد شيئاً من جدّيته بسبب سرعة تبدّل الفصول في البلدة. إلّا أنّهما لم ينتبها، وهما يفكِّران في هذه المحنة، إلى أنّ القسّ يوسف كان يزداد تسفيهاً لهما إلى حدِّ الضحك من بتوليّة نظرتهما إلى العالم، وتجرَّأ أكثر من مرّة على الاعتراف بأنّه يراهما أحمقين، وكان يقسو على جَجّو ويجرحه كثيراً، ويمضي عنه وكأنّ ضميره قد تُوفي قبل قليل.

كان صباح يوم سبت حين استيقظ جَجّو على فكرة غريبة ولكنّه وجدها ذكيّة ويمكن أن تكون عمليّة إذا ما جرى التعامل معها بعقل مفتوح. استغلّ حبّ القسّ يوسف لكسل الدقائق الأولى من الاستيقاظ وقال له وهو يدنو من فراشه:

– لقد سمعت أنّ الكثير من الأموال تذهب إلى جيوب الشرّ في كازينو صوفيا.

انتعشت ملامح القسّ، واعتدل بمساعدة يد جَجّو، وقال له بصوت رقيق:

– منذ أشهر طويلة لم أستمع إلى صوت الشمّاس المؤمن بقضيّته الذي فيك، وظننت أنّه غادرك إلى الأبد. يبدو أنّ الرب خلَّصك مرّتين.

تشجَّع جَجّو وقال وهو يحاول التوازن معتمداً على ركبة القسّ:

– بإمكاني لعب البنغو مع الشباب في الكازينو، وبما أنّ مار أدي الرسول معي فإنّني سأربح الأموال، وبها يمكن شراء المزيد من الأقمشة وخياطة الدشاديش للأيتام والفقراء.

تشنَّج وجه القسّ يوسف وهو يقول:

– أيُّها الأحمق، البنغو قِمار.

تساءَل جَجّو وبصره ينجذب إلى شعرة طويلة نافرة من حاجب القسّ الأيمن:

– الشرّ غنيّ والخير فقير.. لماذا؟

نظر في عينيه طويلاً قبل أن يردّ:

– أنت تظنّ أنّ بريجيت باردو قدّيسة، وتريد لعب البنغو من أجل إسعاد الأيتام والفقراء.. قلبك كبير جداً يا جَجّو، ولكنّك للأسف لست أكثر من جحش.

غادر جَجّو السقيفة بقلب معطوب. لم يشمّ في الفناء رائحة شمونيا. رأى أوراق زيتون يابسة بالقرب من البئر ولكنَّه لم يكترث وتوجَّه إلى باب المذبح وهو يعرج أكثر من أيِّ وقت آخر، وكما علَّمه القسّ يوسف، وقف ناظراً إلى الرخامة التي فوق الباب وقرأ في قلبه «عظيمة كانت الرؤيا التي رآها أشعيا في الهيكل المقدَّس، إذ رأى السرافين بأعداد غفيرة تصرخ قدّوس قدّوس قدّوس الربّ الإله. الأرض مملوءة من مجده والسماء مغطّاة ببهائه». وتوجَّه بعدها إلى الزاوية الشماليّة الشرقيّة. انحنى أمام قبر القدّيسة بربارة، وألقى نظرة على صورتها المعلَّقة على الحائط. على رأسها التاج، وتحمل بيمناها كأس المسيح، وبيسراها السيف. قال في قلبه إنّها أجمل امرأة مقتولة. كانت الرطوبة عالية حتى إنّه شعر بها في عظامه وهو يُقَرِّب شفتيه من رخامة قبر خادمة القدّيسة.

وحين تمكّن أخيراً من طبع قبلته العفيفة على الرخامة التذكّارية ليوليانا تساقطت دموعه وهو يسألها:

– هل أنا جحش يا عروسة المسيح؟

تبدَّلت الرائحة، وخُيِّل إليه أنّه سمع صوت شمونيا، فتحرَّك ليخرج إلى الفناء عندها استوقفه ذلك الصوت الرقيق الذي يشبه نغمات المطر:

– جَجّو.

رأى أشعّة الضوء الأبيض تخترق فراغات هيكله من الخلف، وتدفع بظلِّه إلى الحائط. استدار ببطء فوجد أمامه فتاة من بياض مخلوط برذاذ الذهب تبتسم بملامح عجينيّة أخذت تتَّضح شيئاً فشيئاً.

قالت له:

– لا تحزن.. حتى لو اختلف المكان وتغيَّرت الوجوه، فأنت تحمل قلبك نفسه. اذهب إلى أمِّك الآن ولا تعد إلى هنا.

سألها:

– من أنتِ؟

ردَّت وهي أكثر وضوحاً:

– أنا يوليانا التي تحبّها.. شكراً على قُبُلاتك الجميلة يا جَجّو.

***

سألته روز وهي تصدر تأوُّهاتها الخاصّة بأوجاع المفاصل:

– من أبلغك أنّني أريدك؟

– القدّيسة يوليانا.

توقَّفت روز عن الحركة، فكاد جَجّو يصطدم بظهرها. قالت:

– أبلحد على حقّ.. لن أتأسَّف عليك، أو أحزن.

سحبته إلى غرفة نومها. بقيَ واقفاً وهو مستمتع بروائح الماضي. بدت هرمة أكثر ممّا تظنّ. فتحت خزانة ملابسها بضجّة عارمة ثمَّ استدارت بتثاقُل وسلَّمته صُرّة تلفُّ شيئاً مستطيلاً:

– هذه ثلاثة آلاف دينار. عند الفجر ستغادر كرمليس برفقة أبلحد مهاجراً إلى ديترويت، لكن قبل ذلك ستتوقَّف في الموصل، وتتزوَّج تريزا، وإذا أنجبت منها ولداً يشبهك تماماً، فعليك أن تسمّيه حنّا.

سألها:

– من هي تريزا.
ردَّت مبتسمة:
– بريجيت باردو أيُّها الغبيّ.

شارع حلب

بعدها بسبع ساعات، أي مع ظهيرة الرابع من أيلول عام 1966، شعرت بلدة كرمليس بالراحة، لأنّ جَجّو بنيامين أصبح ذكرى.

***

نال جَجّو تعاطف آل الدبوني من الذين ارتبطوا بعلاقات تجاريّة مع أبلحد. ولأنه يملك تصوُّراً وافياً عن خياطة الأزياء التقليديّة لقرى الكلدان مثل الدشاديش المقلَّمة، والشوقتا، والشبوكثا، والزخما؛ فقد اشتغل بالملابس العسكريّة، واستأجر، بتزكية من الوجيه نذير الدبوني، دكّاناً في شارع حلب بمدخل زقاق بتول بقلاوة. كان ذلك امتيازاً كبيراً، فكل الذين يلوذون بالموصل من قرى الشرق والجنوب لا يحصلون سوى على الأرصفة، وفي ذلك الزمن لم يكن من المسموح لأحد بأن يكبر فجأةً. استعان جَجّو كثيراً برأفة الأرمني المخضرم، آكوب المصوِّر، الذي كان يرى في خيبته صورة بلا ضوء لمهاجر وُلد يتيمَ الوطن، فعمل على مدِّه بزمر من الضباط الصغار، وبأفواج من جنود الصور الفوريّة. عاش مقهوراً من خدعة أبلحد وخسارة فرصة الهجرة إلى ديترويت، وغير قادر على التودُّد لأيّ نجاح عارض، لذلك لم يُدرك أنّه تمكَّن، بعد زمن قصير، من فرض شهرته على قطعات مقاتلة كثيرة من الجيش العراقي، وأنّ اسمه أصبح يُلحق بمدرستي المُشاة، وضبّاط الصفّ مع المفاخر الحماسيّة.

لم يستيقظ جَجّو من غيبوبة استسلامه لقدره إلّا بعد أن خرج بعروسه من الكنيسة، وسمع أبلحد يعظه ببرود كاهن:

– بُنَيَّ جَجّو، زوجتك تريزا غير جميلة، بل قبيحة، وقريبة جداً من الجنون، ولكنّني أضمن لك أنّها كأمِّها تعرف أسرار السعادة، وعليك إدراك أنّ اشتهاء النساء لنا هو عون كبير لرجل مثلك لا أهل له، ويعيش في مدينة لا يعرف لغتها. لا تنظر كما ننظر، نحن الحمقى من الرجال، إلى الأشياء البارزة والمثيرة في النساء، بل ركِّز على الاختيار السماوي الذي أرادك أن تقترن بابنتي المنغوليّة، وحاول بكامل عقلك ومشاعرك اكتشاف الحكمة.

وقد حاول جَجّو ذلك طويلاً لكن دون جدوى. وبعد حفل الزواج، الذي لم يحضره أحد من كرمليس، بيومين، سجَّل أبلحد بيته الذي في منطقة الميّاسة باسم جَجّو، وأعاد تأثيثه، وقَدَّم له وعداً سخيّاً بتسفيره إلى أميركا إذا استمرَّت تريزا على عنادها، ولم تتخلَّ عن عذريّتها.

لم تنسَ تريزا وحشيّة تلك الأساليب التي ابتدعها جَجّو ليجعلها تنجب له حنّا ووارينا. كانت في بداية عرسها بلا لحم وأضلاعها ظاهرة بشكل أفقد جَجّو قشعريرة التلمُّس. تملك مؤخرة غير نضرة، متهدِّلة من حوضها، مزروعة بالبثور، ومشقوقة بطول بسيط مثل مؤخرة رضيع. وكان على جَجّو فوق هذا تحمُّل صدمة ألّا يحلم بمداعبة، أو مصِّ أيِّ شيء؛ فقد خدعت بصره بكثرة ما ترتديه من ملابس داخلية لمعاناتها من برودة أطرافها صيفاً وشتاءً. كانت محاولته الأولى مخيّبة لانتصابات ثلاثة عقود قهرها باستمناءات غير ناضجة. حفظ لتريزا قيمة أنّها ابنة أبلحد، واكتفى بأخذ الطرف الآخر من السرير، وانتظر طويلاً أن تدفعه بإغراءات فلكلوريّة إلى نسيان أبيها، وقداسة نظرته إلى المرأة، لكنّ تريزا كانت تجهل سبب تحمّلها عناء وجوده معها في بيت واحد. كان أبلحد هو أوّل من اكتشف انكسار جَجّو وذلّه، فطلب عون سيتا زوجة الفاضل نوئيل يلدا السادس لترشد تريزا إلى متعة الزواج وفضيلته، ودبَّر مكيدة أن يتدخَّل نوئيل أيضاً حين منعته عزّة نفسه من المشاركة في أمر يتعلَّق بأوّل مضاجعة لابنته مع زوجها. ورغم كلِّ تلك المحاولات لم يستطع جَجّو تجاوز أنّ مشدَّ صدر تريزا كان بالحجم الخاص بتفتّح الآنسات الصغيرات، ويفقد بروزه الهوائيّ في أقلّ لمسة، ويسهل على كفٍّ واحدة الإحاطة بكامل فخذها. كانت تصرخ بهلع، وتضربه بكلِّ ما تجده بقربها عندما يجرؤ، بلا هدف ماكر، على الكشف عن عريه لحظة تغييره ملابسه الداخليّة، فقد ظنّت، لأشهر، أنّه يحمل شيئاً خرافيّاً يشبه ما يتدلَّى بطول عجيب من حيوانات التهريب كالبغال والحمير، وصار جَجّو، في نهاية فشله الزوجي، يظنّ

مثلها أنّ ذلك الشيء الطويل والبشع سيؤدّي حتماً إلى انفجارها وموتها إذا ما حاول دفعه إلى أداء واجبه المقدَّس.

تعاطف أبلحد مع خيبة جَجّو وشاركه محنته. كانا يحتسيان العرق حتى الصباح في حوش البيت، ويُسمعان تريزا أفحش النكات، وأخسَّ القصص عن انحرافات المهرّبين وشقاواتهم، ويفضحان نساء كرمليس لتعليمها وظائف الأعضاء المخفيّة، وحقيقة الزواج. وفي أوقات اكتمال النشوة، ينسى أبلحد نفسه، ويتحدَّث بشهيّة عن شقراوات أميركا، بينما العرق الثقيل يشطف قلب جَجّو مبقياً على الودّ والأخويّة الليليّة.

كان الوقت منتصف النهار، وكانت تمطر بجنون، وجَجّو يأخذ بماكينة الخياطة سروال نائب ضابط وقف مستحياً من نصفه السفليّ المدني عندما قفز أبلحد ليقف أمامهما، على كتفيه فروة بنيّة، وقد لفَّ رأسه بشماغ أحمر. تصاعد البخار من فمه وهو يقول:

– بُنَيَّ جَجّو آن لك أن تهبط على الأرض، وتمشي كالرجال.

أخذه من يده وعاد به إلى البيت. دفعه إلى غرفة النوم، ودلف إلى المطبخ لصنع الشاي. كانت تريزا مستلقية على ظهرها، مربوطة إلى السرير بحبال من النايلون. استطاعت رفع رأسها ورؤية جَجّو الذي تراجع فاتحاً الباب. قالت بتوسُّل مخنوق:

– إذا أوجعتني فسأكرهك إلى أن تموت.

فجاءهما صوت أبلحد من الحوش منغَّماً بالمطر:

– بسرعة.. نائب الضابط سيموت برداً يا جَجّو.

***

لم يكن وقتها شارع حلب أكثر من إسفلت مستقيم بطول 800 متر، اكتسب عاره من كونه مأوى المهاجرين، وأفدح أخطاء التخطيط الحضري للمدينة. يبدأ من شارع العدالة، وينتهي بميدان 14 رمضان. تتوزَّع بين جانبيه نزل من طابقين تفتقر إلى البهجة، يبدو صاخباً فجراً بحركة الجنود، وموحشاً بالتعب ليلاً. دائم الكآبة، وينام مبكراً رغم كثرة مقاهيه، واحتوائه سينما من الدرجة الثالثة، وعشرات المتاجر، والمطاعم، وقد تمكَّن جَجّو بذلك العطف الذي حصل عليه من أصدقاء محنته، ومنهم الكرمليسي الفاضل نوئيل يلدا السادس، والقوّادة بتول بقلاوة،

من المحافظة على أخلاقه، ومن ألّا يدع شارع حلب يعوق نموّه الروحيّ كشمّاس متدرِّب، وكشخص وُلد لينتسب إلى الجوقة الملائكيّة.

أكمل جَجّو سنته الأولى في شارع حلب وهو لا يعرف أنّه وصل إلى مرتبة أفضل خيّاط في المدينة، بسبب عدم قدرته على التفاهم اللغوي مع اللهجات المحليّة، واضطراره إلى القبول بأيِّ أجر كي لا ينطق بما يهزّ كرامته كقروي يتكلَّم العربيّة بلسان أعوج. تحكَّم، طوال ما بقي من عمره، بإرادة ألّا يُخطئ بشيء مع العساكر خوفاً من أن يرجع أحدهم فيضربه، أو يرميه بالرصاص، وفوق هذا كان لا يتوقَّف عند حدّ تقصير السراويل وضبط قياساتها الخصريّة، بل يهرس نفسه في تقوية الأزرار، وعمل تحويرات غير مطلوبة، وتسليم البدلات مكْويّة وجاهزة للاستعراض.

استمرّ جَجّو على إخلاصه غير منتبهٍ إلى الحقد الذي تعوم فيه عيون الخيّاطين وهم يرون زبائنه لا يقلّ تعدادهم، على مدار النهار، عن سَريّة. بقيَ، برغم الفلوس الكثيرة التي كسبها، يحتقر تهاونه مع قائمة أسعاره التي يُعلقها، وتبدو أكبر من لوحة فحص طبيب العيون، لأنه لم يتلقَّ، ولا مرّة واحدة، الأجر المثبَّت عليها، ولم تجلب له سوى الإحساس بأنّ الحياة غير عادلة.

كانت زوجته تريزا توشك أن تلد له حنّا حين قرَّرت بتول بقلاوة وضع جَجّو بنيامين تحت حمايتها الأموميّة، منهيةً بذلك عدّة سنوات من التخبُّط في مهنة الدعارة، فشقَّتها التي تقع فوق دكّان جَجّو عانت طويلاً من نكران الجميل بعد أن اقتحمتها الشرطة في خريف عام 1963 وقتلت في تبادل إطلاق نار شابّاً محكوماً غيابيّاً بستّة أشهر سجناً. أدركت بتول وقتها أن الوضع يتطلَّب الانتظار، فالرجال الذين يقلبون الوطن برشاشاتهم يحبّون الظهور في البداية كشرفاء، لذلك استعملت التمويه، وحوَّلت شقَّتها إلى مخزن للبضائع، وبعدها إلى مصنع حلويات لتؤمّن العمل لخمس عاهرات شارفن على الثلاثين. ويوم ظهر جَجّو في زقاقها بهيئته المثيرة للشفقة، تأكَّدت من أنّ الوقت قد حان. وبالفعل لم يخذل جَجّو تطلُّعاتها، فسرعان ما صار على صلة شرفيّة بضباط كبار حين أخذ بخياطة ملابس عسكريّة وصلت إلى رتبة لواء، وتسارعت الأيّام حتى ازدهر الزقاق بالحركة وبات يتمتَّع بحصانة.

كانت بتول بقلاوة وقتها توشك على بلوغ الخمسين من العمر، ولكنّها تملك وجهاً مدوَّراً جميل التقاطيع، وجسداً متناسق الطول والعرض. كانت امرأة مكثَّفة

الإيحاءات، تحرق دم كلِّ من ينظر إليها. تظهر على الدوام بملابس لا ينقصها سوى حقيبة اليد لتكون رسميّة. تقضي النهار جالسةً بوضع جمالي مثل منحوتة رخاميّة لامعة الأسى على دكّة إسمنتيّة بين الباب الصاعد إلى شقَّتها ودكان جَجّو. تدخل في حوارات عابرة سرعان ما تتعمَّق إلى صفقات. تحثُّ بناتها على تقديم الشاي والماء إلى المنتظرين أمام إبرة جَجّو وهي تتطلَّع بنشوة إلى المستقبل. لم يمضِ وقت طويل حتى تمكَّنت من ضمِّ ثلاث فتيات في سنّ العشرين إلى حضانتها والتخطيط لتوسيع مجالات الخدمة. كان جَجّو يشعر إزاء مواقفها المشجِّعة، ومبادراتها الطيّبة بامتنان يخز قلبه بالندم على العداء القروي الذي كان يضمره في قلبه حين ينزل إلى أسواق الموصل أيّام مواسم الحصاد. حتّى الفاضل نوئيل يلدا السادس، الذي يحمل أفكاراً وسواسيّة، اقتنع في النهاية بأنّ سلوك بتول علامة مفرحة على تدخّل الربّ لنصرة الضعفاء. وعندما شرعت بتقديم الرعاية التربويّة لحنّا عند بلوغه السادسة، وإخضاعه لتعلُّم الصنعة عن أبيه، كانت بتول قد دخلت مرحلة أن تكون لها القدرة على حكم الموصل. كان جلوسها على الدكّة يمنح جَجّو راحة مسكِّنة لا تقلّ عن الخدر الوجداني الذي تهبه إيّاه التراتيل وهو يشقُّ حلقه بالغناء من أجل مرضاة الربّ. كانت تتفقّده، وتُعاين الزبائن، وتنتفض إذا ما توتّرت نغمة صوته في أذنيها. تُظهر شراسةً وهي تتصدّى للذين يُعكّرون مزاجه. تُحاور هذياناته الداخليّة مثل عرّافة، وتكمل له جملته التي ينطقها قلبه بينما هو يزخُّ عرق الحياء من عُري روحه.

أدركت بتول بقلاوة، بحنكة عذاباتها، أنّها مكلّفة بإحسان كبير عليها تقديمه لهذا الرجل الذي لا يعرف الحياة. كانت تستغلّ دقائق الراحة لتقتحم توحُّد جَجّو، متيقّنة من أنّها مهما غالت في انتقادها له فإنّ جَجّو في النهاية دُمْية موصولة بخيوط تتدلّى من السماء، وفي المقابل كان جَجّو لا يملك سوى الانصياع الكامل لإرادتها لأنّه كان يحنُّ بشدّة إلى رائحة شمونيا التي خذلها.

لا يعرف جَجّو لم أنّ الجميع، ما عدا زوجته تريزا، يحاولون إقناعه بأنه يُشيع الثقة في نفوسهم أكثر ممّا تظنُّ كآبته، وأنّ الحياة تمضي به نحو أن يكون شيئاً له قيمة في عالم البشر. لم تتيسَّر له تلك المساحة الرحبة من الثقة بالنفس؛ فهو وإن أمضى ساعات الصباح كقدّيس في عين بتول بقلاوة، فإنّه سرعان ما يعود إلى البيت مساءً ليجد نفسه، للأسباب نفسها، أكثر البشر خسّة في عين تريزا. وإذا ما عاش لساعات محاطاً بتعظيم الفاضل نوئيل يلدا السادس، فإنّه

سرعان ما يواجه أبلحد بابكا الذي لا يستطيع أن يحترمه لأكثر من دقيقتين. كانت بتول تشدُّ مهابة الزيِّ الملائكيِّ الذي عليه، بينما تريزا تنتف ريشه كي لا يرتفع إلى السماء.

***

لم ينجح أبلحد في جعل زوج ابنته يعيش طبيعيّاً مثل البشر، أو على الأقلّ أن يصبح نبيهاً في مهنته، فقبل أن تستغلّ بتول بقلاوة طيبته كان جَجّو عرضة لأن يكون جباناً مرّات عدّة في اليوم، كأن يجد صباحاً نفايات الشارع مكوَّمة أمام دكّانه، فيرفعها وكلُّه خجل من قذارته، أو أن يقطع سكّير طريق عودته إلى البيت ليأخذ منه ثمن قنّينة عرق، وفي اليوم التالي يعود السكّير نفسه ليأخذ منه ثمن العرق مع العشاء بما يكفي أربعة أشخاص دون أن يستخدم السكّين في إجباره على الدفع كما فعل في المرّة الأولى. كان جَجّو يقع بسهولة في خدعة أن يأتيه أحدهم، بالتواطؤ مع أصحاب الدكاكين المجاورة، ويلزمه بدفع تبرُّعات، أو غرامات. كان شارع حلب بأسره يتآمر على جعل جَجّو أضحوكة، ورغم شكّه في ما حوله، وامتلاكه الكثير من التصوُّرات عن سوء العالم، ما كان ليتخيّل أنّ الموصل شرّيرة إلى هذا الحد، وبلا قلب.

لم يكن أبلحد يترك هذه المضايقات تمرُّ، وكان يراها تصفية حسابات قديمة، وقد اضطرّ مراراً إلى استخدام القوّة، ولكنّه سرعان ما ملَّ الإحراج، وآمن بأنّ زوج ابنته ليس أكثر من جحش، وإلّا لما صدَّق قصّة ديترويت، وقبل الزواج بتريزا. وحدها بتول بقلاوة التي استطاعت إجبار سكّان الشارع على التعايش باحترام، موحية لجَجّو أنّه هَزَمَ شر النفوس بسلوك الواعظ النزيه، وأنّ هناك قوّة أثيريّة تحفظه في الخفاء مجسَّدة في امرأة هو الوحيد في المدينة الذي لا يعرف أنّها قوّادة شهيرة، وقَحْبة سابقة.

استمرَّ جَجّو على انبهاره بأبلحد دون أن تخلّ الخسّة والنذالة بارتباطات الإعجاب والثقة التي تجمع بينهما. كان يحاول باستنتاجات بلهاء التأكُّد في الصباح من أنّ أبلحد لم يغادر المدينة، ويسعده كثيراً سماع خبر عودته من مكان ما قبل أن يكتشف غيابه. احتاج جَجّو إلى وجود أبلحد كي يقاوم غرابة الهواء، والماء، والطعام، والبشر. وكان شديد التعلُّق بأمل تبشيره بسفر جديد، وغربة حقيقيّة، ويقول لنفسه، كلَّما هزَّ الشكُّ يقينه، إنّ قلب أبلحد تحت لسانه، وإنّه لم يكذب قطّ، وإنّ إرادة الربّ هي التي لا تريد لثلاثة أرباع كلامه أن تتحقَّق.

***

كان أبلحد يحفظ لجَجّو جميل قبوله الزواج بتريزا. وكان هذا يثير شفقته ويستنزف كرمه، لذلك وجد من الواجب تركهما دائماً في عهدة الفاضل نوئيل يلدا، الذي وشَّحه أبلحد بالإسكيم الرهباني، ورسمه برتب مزوَّرة، بعد أن فشل في تهريبه إلى مدينة فاطمة البرتغالية. كان نوئيل يعتقد بحقيقة المراتب العليا التي يتنعَّم بها، فلولا خُدعة أبلحد لانضوى إلى دير ما، وتلقّى السريانيّة، والعلوم الدينيّة، والبيعيّة، ولرُسم شمّاساً، وراهباً، وكاهناً ثمَّ مطراناً، لذلك كان يرتدي مسوح القساوسة، استناداً إلى رفعة ثقافته اللاهوتيّة والوجدانيّة المستخلصة من الفطرة الربانيّة، يقوده قلبه، ويؤمن بأنّ الدنيا زائفة وغادرة، وأنّ الإساءة لا تُردُّ إلا بالإحسان. هذه القناعة دفعت أبلحد إلى الاستمرار في العيش دون أن يلكزه ضميره، فقد ساعد ضحاياه على اكتشاف محنة الوجود الكبرى، ومكَّنهم من تقوية إيمانهم.

لم يكن من السهل على جَجّو، ومواطنه الكرمليسي المؤدِّب نوئيل يلدا، أن يتنازلا عن هِبات أبلحد. كانت تريزا قد ولدت حنّا، وراحت تستعدّ لأن تحبل بوارينا حين أخذت علاقة جَجّو بنوئيل تأخذ مساراً مباركاً. عاشا صداقتهما استناداً إلى تعاليم أبلحد الدنيويّة، وهما أكثر حنيناً لصور ماضيهما. يبحثان باستماتة عن علامات يجدّدان بها عذابهما الحسّي. ينشطان بعيداً عن الغواية مثل القدّيسين، ولكنّ هذا الزهد كان يسقطهما أكثر فأكثر تحت أقدام امرأتيهما. أخذت تريزا تنضج بمساعدة سيتا ونوئيل بينما زوجها يتمتَّع بسمعة محترمة لا ينقصها سوى التطوُّر. عاش جَجّو مكتسياً الصدأ. يحزن كثيراً عند شراء الخيوط، والإبر، وتزييت الماكينة. يتعبه هذا لأنّه يحبّ الاستمرار في الخياطة بإبرة أبديّة لا تنكسر، وبخيط لا ينقطع، ولا ينتهي. اعتاد شراء كمّيات كبيرة من الخيوط، والأزرار، والإبر. يضعها بغزارة في مدى يده متجنّباً، إلى أقصى حدٍّ، النهاية المعذِّبة حين ينقطع الخيط، أو تصل الخياطة إلى الاكتمال. كانت تريزا تُقدِّر، بموهبة خاصّة ونادرة، قيمة ألّا يتحدَّث جَجّو عن أمِّه وأبيه وذكريات فشله كشمّاس. نبّشت كثيراً حتى عثرت على ماضيه. تتبَّعت روز حتى موتها، وكانت ترسل إلى كرمليس بيانات أسبوعيّة تفيد بأنّ جَجّو ما يزال على قيد الحياة. تتركه يقيس نموَّ أعضائها بلمسات سريعة تظهر تقديسه لأقمشة نومها، وكانت تنهي عذابه بأن تطلب منه لَحْسَها وهي مدهونة بالطحينيّة وعسل التمر.

بدأ جَجّو يهرم بين يديها بسرعة. كان الشعر ينمو كثيفاً في صيواني أذنيه، ويبدو مجفَّف الشكل، وتصعب استعادته. كانت قد درَّبته على ألّا يكون بمقدوره الاكتفاء بنفسه. تخفي عنه الأشياء، وتغيِّر أماكن الأدوات المنزليّة الأكثر استعمالاً بما في ذلك ملابس العمل. لم يكن يعرف أبداً أين يمكن أن تكون شفرة الحلاقة صباحاً. كان استيقاظه هو التيه الأكبر، فيأخذ بالدوران في مدار بيضويّ، وهو يكبس أنفاسه دافعاً بطنه إلى تحرير الغازات. لم تفطن تريزا إلى افتتانه بما وراء الحجب. ظنّت أنّ اختفاء حاجاته سيدفعه إلى الانزعاج فقط واللجوء إليها في نهاية المطاف. ظنّت أنّ طريقتها تبقيه كثير السؤال والبحث، وتدفعه إلى النشاط لإيمانها بأنّ البلادة إذا ما تُركت دون تحفيز، فإنّها يمكن أن توصل صاحبها إلى الجنون، ولكنّها لم تنتبه، إلّا بعد فوات الأوان، إلى أنّ جَجّو كان من الرأفة بحيث إنّه تخلّى تماماً عمّا يمكن أن يقطع عليها نومها.

كان من الواضح للجميع أنّ جَجّو بنيامين وصديقه المغترب نوئيل يلدا السادس لا يعيشان في الموصل. لم تكن تريزا وحدها المفتونة بذلك الغياب الكامل عن الواقع، فقد كانت سيتا زوجة نوئيل أكثر تخوُّفاً لولا الإسكيم الصوفي الأسود المنقوش بصلبان ذهبيّة الذي يُحَصِّن زوجها من الأمام والخلف، فقد كان الهمس بينهما يصل حدَّ التلاصُق، وكانا يُصدران التعابير نفسها، ويقومان في وقت واحد بحركات موحَّدة. كانا يتبادلان الزيارات يوميّاً، فمنزل جَجّو لا يبعد سوى زقاق واحد عن بيت الفاضل نوئيل، وثمّة تشابه كبير بين البيتين في الهيكل والروائح. كانا إذا ما تكلَّم أحدهما، فإن الآخر ينصت مأخوذاً، ويهزُّ الرأس تعجّباً. لم تتعارض كلماتهما مع أفكارهما، ولا يملّان التكرار، وحديثهما لا يخرج عن مساحة كرمليس. لم تعبث تريزا بقدسيّة هذا اللقاء اليومي، لأنّهما يتكلَّمان بحبّ عن أبيها. كانا يزدادان أسفاً وندماً، وهي تنتفخ فخراً واعتداداً. الشيء الوحيد الذي كان يزعجها هو عودة الفاضل نوئيل ليطرق الباب بعد منتصف الليل كي يصحِّح معلومةً أخطأ فيها. كان جَجّو ينهض من نومه خالعاً النعاس، ويفتح الباب ليعود بعد دقائق وقد احمرَّ وجهه من تفاعُلات التفكير قائلاً لتريزا إنّ الفاضل نوئيل يلدا السادس يقول إنّ أبلحد لم يكن موجوداً في القدّاس الحبري الذي أقامه سيادة المطران في شيرا بربارة عام 1959، ومعنى ذلك أنّ أبلحد لم يكن حاضراً عندما طعن شمعون البستاني، قبل القدّاس بساعة، فؤاد الإسكافي لأنّه تحرّش بأخته. كانت تلك التصحيحات الليليّة تدفعهما في اليوم التالي إلى إعادة بناء

القصّة، وكان ذلك يثير تريزا، ويجعلها تظنّ أنّها ابنة رجل لا يقلّ أهميّة عن مار أدي الرسول ما دامت أخباره مكتوبة في كتب الفاضل نوئيل يلدا السادس. كانت معرفة تريزا بأبيها ترتبط بسعادات أمِّها القليلة. لم تكن تعرف الكثير عنه لأنّ أبلحد كان يتصرَّف مع أمِّها كاللصوص، فتراه يندسُّ بفراشها في ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليل ليختفي فجراً. كانت تبقيها بعيدةً عنها كلَّما جاءتها نبوءةٌ غامضة من زوجها، وتقرِّبها إليها كلَّما عانت من احتقانات البُعد. وفي الحالتين كان أبلحد بالنسبة إلى تريزا رجلاً من حكايات.

***

حين وُلد حنّا في الخامس عشر من نيسان عام 1968 كانت شمونيا قد تزوَّجت بالموظَّف المرموق في السفارة الفرنسيّة لويس رينو وسافرت إلى باريس. أمّا القسّ يوسف فقد بدأ يعاني من أمراض غامضة ضربته في كليتيه، وجرَّدته من حماسته. جاء حنّا نسخة عن أبيه وجدّه، وحاز سريعاً حبّ أبلحد الذي حمله في اليوم التالي إلى روز في كرمليس، كي تفحصه، وتؤكِّد نبوءتها على نحو قاطع. لم يقلق جَجّو على مصير حنّا رغم أنّ الحياة الدينيّة في الموصل لم تكن محترمة، والكنائس كانت غير متحسِّسة بما فيه الكفاية. كان قد توصّل إلى يقين بأن المدن حين تكون كبيرة، وفيها أكثر من مليون إنسان، ولغاتها متعدِّدة، فمن الصعب أن تفكِّر بالربّ، أو أن تهتدي إلى افتراضات وهميّة. في السنوات التي عاشها كأب اكتشف أنّ الصرامة التي عامله بها القسّ يوسف كوماني كانت حتميّة ما دام سكّان كرمليس لا يزيدون عن ألفي إنسان، ويعتقدون أنّ الموصل مدينة لدنيا لا تعنيهم. وحين بلغ حنّا الرابعة وصارت له أخت اسمها وارينا سليمة الخلقة، كان جَجّو قد تحوَّل إلى كائن مدني، يذهب إلى السينما مع عائلته كلَّ شهر، ويستخدم حافلات النقل العامّ الحمراء، ويتردَّد على المكتبات، وله اشتراك في الصحف والمجلّات، وعضويّة في النوادي الاجتماعية التي تصخب بالموسيقى الراقصة كلَّ أيّام الأسبوع، ولم تعد تأتيه أيُّ ذكرى من كرمليس سوى القُبْلة التي طبعتها على يده عفيفة إسكندر.

بتول بقلاوة تعلَّقت بحنّا أيضاً مثل أبلحد الذي لم يرَ أيَّ ضيرٍ في أن ينمو حفيده في أحضان العاهرات. كان جَجّو يزداد طمأنينة وهو في ظلِّ شفقتها من دون أن يفطن إلى أنّ هذا سببه الحنين لأيّام شمونيا. كانت بتول تملك وقتها سبع عاهرات، ولكنَّها قلقة من الحبّ الذي قد يخطفهنّ منها، ورغم إحساسها

المزمن بالخسارة، كانت سعيدةً جدّاً بحظِّها الذي جعلها تقود بنات على قدر فائق من الأنوثة، والنظافة المهنيّة، يؤمنَّ بالحسِّ، وبأهميّة المتعة، ولا يشعرن بالمهانة، والسبب في هذا أنّ بتول لم توظِّف الرجال لحماية عملها، وتدقِّق في زبائنها، ولا تُدخِل إلى بيتها إلّا الذين يبدو التعليم على تصرّفاتهم، ويتميَّزون بالأناقة. كانت ترفع الأجور باستمرار متجنِّبة إرهاق بناتها، وتعرضهنّ كلَّ شهر على الفحص الطبّي، وتدرِّبهنّ على التصرُّف دائماً بموهبة الإغواء، وعدم تفضيل المال على البهجة التي تشيعها ممارسة الجنس التي تقول عنها إنّها الأساس في رُقيّ الشعوب، وتطوُّر البلدان.

كان حنّا يجلس على الدكّة ملتصقاً ببتول بقلاوة حين جاءت ليلى ومعها ابنتها التي تبلغ الثامنة من العمر طالبة العودة للعمل. استمعت بتول إليها وعينها على الطفلة، ثمَّ سألت حنّا إن كان بحاجة إلى بنت يلعب معها.

قالت بتول وهي تمسك بيد حنّا وتغادر الدكّة:

– كنت أعرف أنّه سيموت سريعاً ويتركك. أنا لم أذهب مع رجل لأنّني لم أستطع التأكُّد من أنّ حياتي ستكون جيّدة بعد زواجي بشهرين.

ثمَّ تابعت، وهي ترتقي السُّلَّم إلى الشقّة، وخلفها ليلى:

– لن أدعك تعودين إلى العمل إلّا بعد أن تستعيدي صحّتك، وتموت ذكرياتك الحزينة. سأعطيك أجراً عن الأوقات التي يلعب فيها حنّا مع ابنتك، فعلّميها كيف تُسعده، وتجعله يتعلَّق بها.

أُغرم الجميع بحنّا لأنّه ظهر في حياتهم بالتزامن مع موجة أفلام الفضاء، ومسلسل ستار تريك. كان يوحي بالبراءة أكثر منه بالشفقة، وكانت ياسمين ابنة ليلى تجده يصلح لألعاب البنات لأنّه مطيع، ولا يكسر شيئاً، أو يخرِّب اللعب، وصامت على الدوام، وغير ناجح في الانتماء إلى عالم الذكور. لم تكن بتول راضية عن هذا، ولكنّها عجزت عن دفع حنّا إلى النموّ على درب الرجولة. كره سريعاً البقاء مع أبيه، فجَجّو يختلف تماماً حين يحتضن ماكينة الخياطة. تسيطر عليه حدّة مجنونة، وتتوحَّش طاقاته. يقول إنّه لا يحبّ الأخطاء في العمل بينما هو في الحقيقة لم يتغلَّب بعد على خوفه من الضبّاط، لذلك كان يتخلَّص من حنّا سريعاً فور أن يخلع حقيبة المدرسة. كانت تلك هي أشدّ الأوقات غرابة في يوم حنّا، حتى إنّه ظنّ لفترة طويلة أنّ تقلُّبات الناس سببها أنّهم يبيعون أولادهم للمدرسة مرغمين، ومن لم يفعل ذلك تقبض عليه الشرطة. لم يكن جَجّو هو

الوحيد الذي يقابله بمزاج متقلّب، فحين يصعد حنّا إلى شقّة بتول يجد ياسمين متذمّرة، وغاضبة، ومنجذبة إلى علبة الكبريت. كانت تشعر بكره غامض لأمِّها، فتعامله بقسوة، ولا تكفّ عن اتّهامه بالغباء حتى لو لم يفعل شيئاً سوى الجلوس كصخرة.

الكلُّ رَضيَ بياسمين مربّية لحنّا، فتريزا التي كانت تكتسب الكثير من الشحوم، مدّعية أنّها تعاني آثار ولادتين سريعتين، وأنّ قواها لا تسدُّ سوى خدمة نفسها، وإعداد وارينا للزواج، كانت متنعِّمة بميزة أن يعود حنّا مع أبيه مساءً وقد أنجز واجباته المدرسيّة، وتناول العشاء، وملابسه تصلح لدوام يوم جديد. تكيَّف حنّا مع مراوغات جَجّو التي تتعمَّد التأخُّر في العودة إلى البيت، والنوم مبكراً، وأخذ يشعر بانتمائه إلى شقّة بتول، لأنّ الصرامة التي كانت ياسمين تقوده بها تجعله لا يحتاج إلى حنكة أخرى، ولا إلى أمومة إضافيّة.

كانت شقّة بتول تشغل مساحة واسعة، مبنيّة في ثلاثينيّات القرن العشرين بتصميم إنكليزي يلطّف حرارة الجوّ. تحتوي على خمس غرف سميكة الجدران، مبطَّنة بالخشب، ومؤثَّثة للنوم الشرعيّ، تظهر فيها لمسات الانتظار، والشغف بالذكرى، إضافة إلى مطبخ مستطيل جيّد التهوية، تدخله الشمس لساعة، يدلُّ دائماً على وجود أثر للحبّ العائلي. لم يكن المطبخ أقلّ حركة، ولكنّ احتمالات دخول الرجال إليه نادرة، لذلك كانت بتول تترك ياسمين وحنّا هناك مع ثقة كاملة بغياب الخطر.

ياسمين وهي تُنظِّف وتُرتِّب الأشياء بجهد حقيقي، كانت تُلهم حنّا بصور كثيرة، وكان ينتظر أن تطعمه وتسقيه حقّاً، فهو لم يكن يتوقَّع أبداً أنّ الأمر لعبة، وحين تُقدِّم له الفناجين البلاستيكيّة الفارغة، وتعزم الدُّمى إلى مائدتها، يتوقَّع أن يحدث شيء جديد بعد قليل. كان الجميع يتعاملون مع حنّا على أنّه معاق إلّا ياسمين التي كانت تراه مفيداً في الكثير من الأمور، ويجب توجيهه. تمكَّنت من الاستحواذ عليه حتى إنّه كان يعطيها الإشعارات التي كانت تُرسلها معلمته في المدرسة، ويريها بطاقة النتيجة الشهريّة لامتحاناته، فتحاسبه بمعاييرها الأمومية، وتختلق أيَّ حجّة لتوبّخه، بينما هو على تكوّمه العظمي، يُرضخ رهبة امتثاله لتعالي أمومتها الوهميّة.

لم ينجدها الحظُّ طوال مراهقتها المعذَّبة، فهي ابنة جنديّ مجهول التقته ليلى مرّة في الكراج قبل أن تلتقطها بتول بقلاوة وتصقل مواهبها، وحين بلغت

ياسمين الثالثة من العمر، وقع في غرام ليلى مدرّب مصارعة جاء من الناصريّة إلى الموصل من أجل خوض غمار بطولة قُطْريّة، فتزوَّجها وقبل بابنتها، لكنَّه أعاد ياسمين إلى بتول بعد ثلاثة أشهر، وحين مات المدرِّب بحادث سير في الكويت، أرسلت ليلى في طلب ابنتها ظنّاً منها أنّها ستستقرّ في الناصريّة، إلّا أن ذلك كان الخيار الأكثر تعاسةً في حياتها، فبعد سلسلة من النكبات الصحيّة كان عليها تحمُّل انخفاض شفقة بتول، وكره ياسمين لها.

وصل حنّا إلى الصف الثاني الابتدائي دون أن يطالبه أحد بأيِّ برهان على وصوله ذاك، فقد عاش أبلحد لفترة هلاميّة نزوة أنّه جدٌّ، وهو الذي سار بإجراءات دخول حفيده إلى المدرسة النموذجيّة رافضاً أن يلتحق بمعهد أوّليّ لذوي الاحتياجات الخاصّة، لذلك لم يسأل أحد عمّا كان يفعله حنّا بالمدرسة، لأنّهم ظنّوا أنّ أبلحد يتابع الأمر. كانت ياسمين تجمع البيانات التي تصدرها المدرسة بشأن حنّا، وتتسلّم دعوات اجتماعات الأمّهات، وتحفظ بقلبها درجات امتحاناته اليوميّة، وتتفقَّد دفاتره وكتبه، وتسأله عن الرسوم. وحين أبلغته بأنّها لا تذهب إلى المدرسة ظنّ أنّها محبوسة، وأنّ الشرطة ستقبض عليها حين تخرج من البيت، ولكي تسير معه في درب الرعاية أخذت تتلقّى منه كلَّ ما يتعلَّمه في المدرسة، وتطلب منه أن يسأل المعلمة حين لا تجد لديه أجوبة لأسئلتها. ورغم سطوة ياسمين كان حنّا منتشياً بالوضع الأبدي الذي هو عليه، فمهما تأخَّر عنها فإنه سيعثر عليها في المطبخ تحت منضدة الطعام المستطيلة تعاقب دميتها، أو تطبخ شيئاً لأطفالها البلاستيكيين. عالم ياسمين جعل حنّا لا يتعرَّف إلى ألعاب الذكور، فلم يُمسك مسدَّساً، أو سيّارة، أو حصاناً، ولم يعرف أيَّ نوع من المكعَّبات، ولم يتحسَّر على ذلك أبداً، فلولا هذا العوز القدري لما استطاع تكوين انطباعه الخرافيّ عن الحياة، ولما نجح في الظهور بعدها بسنوات كمؤمن حقيقي وواقعي.

***

بدا عام 1975 في منتهى الهدوء، وغزير الطموحات، فالرجال الذين ظهروا، في البداية، كمناضلين، وصلوا اليوم إلى الاسترخاء، وأخذوا يدخِّنون السيكار الكوبي. كانت الموصل تتحرَّك نحو الترف، وموسمها الربيعي يجذب الاهتمام، فظهرت فيها وردة الجزائريّة، وتردَّد عليها عباقرة البهجة: وديع الصافي، صباح فخري، سميرة توفيق. وعرض فيها دريد لحّام مسرحيّاته السياسيّة، وشوهد نزار قباني

في مقاهيها. لم تقتنع بتول بقلاوة بتوظيف قدراتها في مشاريع استثمارية ضخمة، ورفضت التشارُك مع لبنانيين وسوريين في ملهى بثلاثة أفرع دوليّة، فالعراق بلد لا تعيش فيه المتعة، ولا يستطعم البهجة، ولا يستطيع العيش لفترة طويلة بلا حروب. فضَّلت بتول الانتظار، وأخفت عن الجميع نواياها في الهجرة. وحين كانت تريد التنفيس عن فرحتها، تذهب لتجلس بجوار جَجّو الذي لا يتزحزح، ويدفع ماكينته إلى سرعة صاخبة، مدارياً خجله المؤدَّب. تصبر عليه، وتنغمس، مع الضبّاط، والمراتب، في حوارات تحليليّة عن وضع العالم، ولكنها تراقبه خفيّة في انتظار أن يصل إلى الإرهاق. ازدادت تألُّقاً مع فضائل السبعينيات، فأصبحت تظهر أمامه بتنّورة قصيرة، وباروكة شقراء، ولأنّه ينظر بانحدار دائماً، تتعمَّد بتول أن تعطيه بتقاطعات ساقيها صورة مقلوبة عن السماء والأرض. لقد ربّاه القسّ يوسف كوماني على الاعتقاد بأنّ على الأشخاص الذين يختلفون عن الآخرين بالشكل والقدرات عدم تغيير أماكنهم، وعدم البحث عن أصدقاء، أو مساندين جدد، فأمان المعاق أن يكون في بيئة مألوفة، وهذا ما كان يُزعج جَجّو في الموصل، ففي كلِّ يوم يأتي إليه أشخاص يرونه أوّل مرّة، وعليه أن يتعذَّب بالانكماش الروحي، ويحاول، بمزاج متخثِّر، التغاضي عن أوجاع أنّه مهجَّن مع لَقْلَق. كانت بتول رحيمة، ورائحتها تخفِّف دهون الروح، مثل خشب الكنائس في كرمليس، ولأنّها خبيرة بالرجال، لم تكن تسأل جَجّو أبداً، بل تتواصل معه من النقطة التي توقّفا عندها أمس، وهو يجد في هذا ميزة كبيرة، فينتعش على الفور، وكأنّ شمونيا بجواره، والقسّ يوسف سيدخل بعد قليل.

– عليك تعليق صور الفنّانين وعارضات الأزياء على الحائط.. يجب أن تتطوَّر يا جَجّو.

قالت بتول ذلك وهي تراقب ألوان خجله. ردَّ بخسوف روحي:

– الفاضل نوئيل يلدا السادس قال إنّي خسرت فرصة حمل صورة للقدّيسة بربارة.

شدَّت انتباهها وقالت بثقة:

– الرجال الذين بخصية واحدة لا تكون أفكارهم متوازنة. سأجلب لك الصور، وعليك أيضاً تجديد الدكّان، وإعادة دهن الجدران بألوان جذّابة ومفرحة. أنت تعمل بروح الجنديّة، وتتعامل مع الحياة وكأنّك في معسكر، وهذا يقصف العمر.

أوقفته بتول عن العمل مدّة أسبوع. دهنت دكانه من الداخل بلون برتقالي، وعلَّقت بوسترات كبيرة لأزياء رجاليّة مدنيّة مع عمل فنّي باتروني [1] مؤطَّر، وبدَّلت الأثاث، وكلَّفت نجاراً بتجديد الواجهة الخشبيّة، وتبديل ألواح الزجاج الشفّافة بأخرى ملوَّنة. كان تخصُّص جَجّو لا يحتاج إلى كلِّ هذا ما دام غير قادر على رفع الأسعار، والتعديلات التي أنجزتها بتول جعلت دكان جَجّو يبدو كصالون حلاقة نسائي، إلّا أنّها بدت واثقة تماماً من إلهامها، وقالت له كي تجعله يتكيَّف:

– لستَ صاحب مطعم لحم بالعجين كي تعلِّق بوستراً للرئيس البَكر مع نائبه صدّام وهما بالزيّ العسكريّ.. الآن بمقدورك الحصول على دافع للتطوُّر.

***

تدهورت صحّة ليلى مع الخريف، وأخذت ياسمين تُكلِّم حنّا عن الرحيل إلى مكان آخر. لم يشغله الأمر لأنّه في كلِّ الأوقات يجدها غير مفهومة، ولا تكفّ عن إخافته بقصصها متّهمة أمّها بمحاولات خنقها وحرقها. كانت الحركة الرجاليّة في البيت تزيد من كابوسيّة ما ترويه ياسمين، وبرغم الرعب الذي يتعرَّض له حنّا واصل تعلُّقه بها لأنّ الأمان الذي تهبه ياسمين لقواعد روحه يفوق كثيراً التعذيب الذي تُمارسه ضدَّه.

جَجّو هو الآخر بدأ يتعرَّض لوعكات متتالية غيَّبته عن شارع حلب، فانقطع حنّا عن بيت بتول لفترات متقاربة، وخفتت نباهته التعليميّة، وفقد حيويّته الذهنيّة في الرياضيّات. ومجدَّداً عاد الفاضل نوئيل يلدا السادس ليطرق الباب ليلاً متذكِّراً الكثير من التفاصيل التي لا تلهمه الذاكرة استرجاعها في الوقت المناسب. كان قد طلب من تريزا زيادة الشفقة الزوجيّة المقدَّسة، ظنّاً منه أنّ الأمر يتعلَّق بالحنين إلى المكانة التي كان يتنعَّم بها جَجّو في كرمليس باعتباره الواعظ المفوَّض. أبعدت تريزا الشُّبهة عنها، وهي تسأله:

– ألم يخبرك أنّ يوليانا تظهر له ليلاً بعد أن أنام، وتبقى معه في غرفة نومنا إلى الفجر؟

شكَّ الفاضل في ذاكرته للحظات، ثمَّ قال بعدها بثقة:

– لم يخبرني سوى عن رغبته في أكل حلوى الغزنايج.

اعترف جَجّو لصديقه بأنّ يوليانا تأتيه ليلاً، وتجلس عند رأسه، وتحدِّثه عن قسوة الوثنيّ ديوسقورس، ولكنّه لا يعرف على وجه الدقّة إن كان هذا يحدث

أثناء النوم أم اليقظة، لأنّ كلَّ شيءٍ غير واضح في الموصل. أدرك الفاضل بموهبته الكهنوتيّة أنّ شيئاً عظيماً سيقع في كرمليس، وقال لجَجّو إنّ القدّيسين يظهرون في العادة كأصدقاء ودودين، ولكنّهم في الحقيقة يحاولون التخفيف عن أحزان كبرى قادمة، ونصحه بأن يتفقَّد كرمليس ولو لليلة، وأنّ عليه دعم ملائكة الربّ للتخفيف عن كاهل الناس.

أبلحد ومعه تريزا رفضا سفر جَجّو وعرضاه على طبيب قلب. ومع أوّل بادرة تحسُّن طرأت عليه توفيت روز وهي جالسة تلفُّ ورق العنب. أصرَّ القسّ يوسف كوماني على دفنها في المقبرة الرمزيّة لكنيسة القدّيسة بربارة تكريماً لجمالها، لكنّه تسلَّل هارباً من الكنيسة متحاشياً مقابلة جَجّو الذي حضر المراسم تحت حراسة ثلاثة من مهرّبي الأغنام الأشدّاء، لم يبق جَجّو في كرمليس أكثر من أربع ساعات، حتّى إنّه لم يدخل بيت أمّه، فقد كانت البلدة خاوية من رائحة شمونيا.

***

فرحت ياسمين بعودة حنّا. لم تُعاقب الدُمى في ذلك اليوم، وكانت مرحةً، وابتسامتها عريضة. قالت إنّ بتول داست على طبق الكوب الأخضر وكسرته، وإنّها اليوم لا تريد منه مسح الأرض، وتقطيع البصل.

سألته ما إن اقترب موعد عودته إلى البيت:

– هل تستطيع الذهاب وحدك إلى سينما إشبيلية في شارع الدوّاسة؟

ردَّ حنّا بهيئة لَقْلَق يعاني الرُّعب:

– لا أستطيع.

قالت بصوتٍ خافتٍ وكأنّها لم تسمعه:

– إذا لم تجدني في الغد تحت المنضدة فعليك أن تنتظرني كلّ يوم خميس الساعة العاشرة صباحاً بباب السينما.

***

غابت يوليانا مدّة شهر. لم يتردَّد الفاضل نوئيل يلدا السادس في التعبير عن فرحته، وقال وهما يجلسان وسط بقعة مشمسة في الحوش بينما تريزا تُراقبهما من شُبّاك المطبخ:

– إن كانت القدّيسة يوليانا اختفت، فهذا معناه أنّها راضية عمّا نفعله في حياتنا.

كان جَجّو يضع على كتفيه شالاً نسائيّاً من منسوجات قونية، ويتطلَّع إلى قناع من النحاس بملامح مغوليّة مثبّت على مربّع خشبي جلبه أبلحد من أرمينيا وعلَّقه في صدر الإيوان يوم أكملت وارينا سنتها الأولى، متذكّراً بحنين عاصف الفقاقيع المغليّة المصاحبة لإيقاع البيض المسلوق في طنجرة شمونيا. قال دون أن ينظر إلى صديقه:

– القدّيسة يوليانا زعلانة لأنّني لم أُقَبِّل رُخامة قبرها حين كنت أدفن أمّي بجوار السقيفة.

أخذ الفاضل وضعاً جادّاً، وتساءَل:

– كيف يمكن ليوليانا اشتهاء قُبْلَتك، وهي قدّيسة بنور بتولي؟.. لماذا ماتت في سبيل المسيح، إن كانت تحبّ القُبُلات؟

لم يتأثَّر جَجّو، وأجاب باسترخاء:

– منذ أن قتلوها لا تتلقَّى غير الشموع والابتهالات الطامعة. حين آمنت بالمسيح كانت امرأة لا قدّيسة.. النور هو ثوب الله، أمّا القُبْلة فهي علامة الحبّ.

هذا الكلام هزَّ أعماق الفاضل، فقد عرف صباحاً عن طريق المصادفة أنّ بتول بقلاوة الحنونة على جَجّو وابنه لم تكن سوى عاهرة غير مبتذلة، وبما أنّ جَجّو يتكلَّم عن القُبُلات مثل أميركي، فهذا يُرجِّح احتمال أن يكون على دراية بحقيقة بتول بقلاوة، ولا يجد أيَّ ضرر في مجاورتها والسماح لحنّا بالنموّ في أحضان الخطيئة. لم يتمكَّن لحظتها من مصارحة صديقه بأفكاره، فهو لم يتّخذ الكثير من القرارات في حياته، وفي العادة، لا تعيش الظنون في قلبه أكثر من يومين. هو نفسه لا يعرف مقدار طيبته، ويعتقد أنّ الآخرين من حوله أكثر جسارةً منه لأنّهم بخصيتين. لم يستطع الإبقاء على الخبر في بطنه. حاول مراراً الاتّصال هاتفيّاً من بيته بقصر أراسيا لكن بلا جدوى. وقبل انتصاف الليل بدقائق فُتح الخطُّ مع كرمليس فقال الفاضل نوئيل يلدا السادس برعشة صوتيّة:

– بتول بقلاوة ليست شريفة.

ردَّ أبلحد بابكا من الطرف الآخر:

– وأمّك أيضاً يا ابن القَحْبة.

***

فتح جَجّو عينيه فرأى انكسار ظلِّها على السقف. انقلبت تريزا النائمة بجواره إلّا أنّ الضوء انسحب من السقف والأركان، وتجمَّع في حدود هيئة يوليانا التي بدت أطول ممّا كانت عليه قبل شهر. اعتدل مثبِّتاً الوسادة خلف ظهره ثمَّ سألها:

– هل أنتِ زعلانة؟

قالت:

– وأنت تُنظِّف رُخامة قبري كنت تلصق جبينك بحجري، فأتحرَّك أنا باتّجاهك وأضع رأسي على رأسك.

قال:

– ولكن هذا ليس قبرك. لا عَظْمة لك فيه.

– نكون حيث نشتاق، لا حيث نُدفن.

سألها:

– هل أنتِ قدّيسة أم عاشقة؟

ردَّت:

– لا فرق.

قال:

– أنا جَجّو اللَقْلَق، والواعظ المجنون.

– أنت جَجّو الصادق.

سألها:

– ما قيمة هذا؟

قالت:

– الصادق ينال الحبّ.

قال:

– تريزا أرادت أن تتزوَّج وتُنجب، وشمونيا تعرَّفت إلى العالم من خلالي، والقسّ يوسف ربّاني كحليفٍ في حربه ضدّ الشيطان، وبتول بقلاوة الخاطئة ساعدتني لأنّني أُذكِّرها بالعفّة، والفاضل نوئيل يلدا السادس لو كان بخصيتين لما صادقني.. لا أحد يحبّني أيّتُها القدّيسة.

قالت، وهي تقترب منه خطوة:

– أنا أحبُّك يا جَجّو، وسأحبّ ابنك حنّا من بعدك.

نظر إلى أصابعه وقال:

– ربّما كنت تحبّين رجلاً من كرمليس عاش في القرن الثالث الميلادي، وكان يشبهني.. قد يكون جدّي اللَقْلَق الأوّل، أو أنّ مار أدي الرسول كلّفك بهذا.

قالت وهي تتقدَّم خطوة أخرى:

– الصادق ينال الحبّ.

خُيِّل إليه أنّه دخل في ضوئها. سمعها تقول:

– انهض يا جَجّو، علينا أن نغادر الآن.

---

[1] رسم الباترون هو المخطط الورقي الأوّل لتصميم الملابس. هو خريطة التصميم وضبط قياسات قطعة القماش في التفصيل.

يتعذب حنّا كثيراً ويفقد طريقه،
لكنّه يرى يوليانا أخيراً...

قرقراجو

حين تبيَّن لهم أنّ سيّارة البيجو 604 لا يمكنها دخول الزقاق الذي يقع في منتصفه بيت الفاضل نوئيل يلدا السادس، اقترحت وزارة الخارجيّة على السفارة الفرنسيّة أخذ فندق نينوى أوبروي في الاعتبار. كانت المؤسَّسة العامّة للسياحة، بكامل موافقات لجنة التنمية القوميّة الكبرى، قد قرَّرت افتتاح الفندق في يوم عيد ميلاد الرئيس صدام حسين عام 1986، متجاهلةً مسألة عدم اكتمال الحدائق التي تنفذها شركة ساس الزراعيّة الأميركيّة العراقيّة، وحين وصلت زوجة سفير فرنسا بسيّارة البيجو 604، بعد يوم الافتتاح بأربعة أيام، إلى الفندق للإقامة فيه مدّة أسبوع، كان الوقت منتصف الليل والأضواء الخارجيّة مطْفَأة بسبب الإنذار بوجود غارة جويّة إيرانيّة. وفي الصباح الباكر لم تستطع نقاوة نهر دجلة، ولا غابة الموصل العَبِقة بالربيع، تخفيف نفور زوجة السفير من الدائرة الصحراويّة التي تحيط بالفندق، فامتنعت عن تناول فطورها لعدم توفر وسائل التلذذ الاسترخائي التي اعتادت عليها في باريس وبغداد.

كان الفاضل نوئيل يلدا السادس في طريقه إلى نينوى أوبروي حين تلقَّت المحافظة أمراً من رئاسة الجمهوريّة بتعليق نشاط الفندق السياحي، وإرضاء زوجة سفير فرنسا بكلِّ الوسائل المتوافرة. بقيَ نوئيل بالانتظار حين كان المحافظ يتوسَّل في الأعلى إلى شمونيا رينو قبول دعوة الحكومة نقل سكنها إلى دار الضيافة الخاص برئيس الجمهوريّة، إلّا أنّها رفضت مغادرة جناحها قبل أن يعتذر وزير الخارجيّة طارق عزيز عن الاختيار غير المهذَّب الذي أنزلها في فندق بلا حديقة. وفي صباح اليوم التالي لم يتمكَّن الفاضل نوئيل يلدا السادس من

مقابلة زوجة السفير، فقد حضر وفد وزارة الخارجيّة ليبلغ شمونيا رينو أن طارق عزيز سيعتذر حين يُنهي زيارته لموسكو، وأنّ كامل أعضاء لجنة التنمية القوميّة الكبرى قد أوقفوا، وأحيلوا إلى التحقيق. وفي اليوم الثالث رفضت رئيسة مجلس إدارة شركة ساس الزراعيّة الأميركيّة العراقيّة أراسيا إسماعيل دنحا في اتصال هاتفي مع المحافظ أيَّ خلطٍ بين التزام ساس بتعهّداتها، وبين اجتهادات لجنة التنمية القوميّة الكبرى بشأن عيد ميلاد رئيس الجمهوريّة، وقالت إنّ الحديقة ستنجز في ظرف ستة أشهر كما هو مثبت في بنود العقد. وفي اليوم الرابع مُنع الفاضل نوئيل من دخول الفندق لوجود تعديلات طارئة، فقد كانت بلديّة الموصل تنقل ثلاثة آلاف شتلة أشجار وأزهار من مخزونها الاستراتيجي إلى موقع حديقة الفندق كي تستخدم بتغطية التراب مؤقتاً. لم يُرضِ هذا الإجراء شمونيا رينو، ولكنّ اعتذار طارق عزيز، وكلامه عن حرص العراق على إتمام صفقة طائرات الميراج مع فرنسا، جعلها تستعيد أمل إلحاق الهزيمة بأراسيا في الأيّام الباقية لها في الموصل.

استُدعي الفاضل نوئيل يلدا السادس في اليوم السادس على عجل، وحين وقف بباب الجناح الذي تشغله زوجة السفير في الطابق السابع، طلب من مرافقيه الأمنيّين مُهلة دقيقة لاسترداد لونه. أتعبته السعة التي واجهته، وفشل في ضبط خطواته. لم ينظر إلى وجه زوجة السفير التي ذكَّره صوتها بدجاج كرمليس، وعاد ليجلس قبالتها على بعد ثلاثة أمتار دون أن ينتبه إلى حركة يدها. ابتسمت شمونيا رينو بالطريقة التي تسمح لها بالتطلُّع إلى ضيفها بأكبر قدر من الفضول، فقد تعلَّمت أنّ التواضع واللطف يساعدان على كسب أكبر قدر ممكن من المعلومات. كانت تحتفظ بلمعة جمال صامدة، وهندسة قوامها بالحجم القديم نفسه، وبدت لنوئيل قريبة الشبه بالذكرى التي يحتفظ بها عنها، وهي بتايور عسلي يتناسب مع ورق الجدران، وضوء الساعة الخامسة مساءً، وقد وضعت على الياقة اليمنى بروشاً ذهبيّاً على شكل طاووس بذيل مرصَّع بالياقوت الأحمر. قالت وهي تشعر بتفاعل حامضي في قلبها مع الزيّ الكهنوتي للكرمليسي المؤدِّب:

– يمكنك في الغد أخذ حنّا ومقابلة مدير التجنيد. الأوراق وصلت قبل أسبوع، وعليها جملة كتبها الرئيس صدام حسين يُعْفي بها حنّا من الخدمة العسكريّة.

رفع الفاضل صوته قائلاً بالعربيّة:

– أدام الله علينا هذه المكارم.

وجّهت شمونيا رينو إليه نظرة حادّة، وقالت بالسورثيّة:

– فرنسا تدخَّلت في هذا.

ارتبك الفاضل قائلاً بالفرنسية وعلى وجهه ابتسامة بلهاء:

– Vive La France.

حازت عربة الشاي اهتمام شمونيا رينو، لكنها أشفقت على الفاضل نوئيل يلدا السادس، واستعملت عفويتها في تسكين ارتباكه:

– فرنسا مهتمّة كثيراً بمسألة العدالة الاجتماعية، وترى أن تطبيقها يجب أن يكون على أكمل وجه في السهل المسيحي في نينوى. مشكلتنا معكم أنكم لا تجيدون اللغة الفرنسيّة، فبينما تسعى حكومتنا إلى تجديد الكنائس والأديرة، تنتظرون أنتم هدايا القصر الجمهوري. جميل أن يتذكَّر العراق، رغم حربه مع إيران، واجبه تجاه التراث المسيحي، ولكن هل تقبل الحكومة العراقيّة أن يتبرَّع المسيحي لبناء جامع؟

قال الفاضل بوجهٍ أصفر:

– سعادة زوجة سفير فرنسا العظمى، أنا لم أكن أعلم أنّ قضيّة حنّا معقَّدة إلى هذه الدرجة.

ردَّت بتماسك:

– جَجّو أيضا لم يكن يعلم، ولكن حين حضر السيد لويس رينو للمشاركة الرمزيّة في احتفالات شيرا بربارة، لم يستغرق الأمر معه أكثر من نظرة، ونصف ساعة لتبادل الحديث، وبعدها قرّر أن يتزوَّجني.

بالغ الفاضل في إظهار الفرح:

– إنّها بركة القدّيسة الشفيعة، وحبّ الناس لبلدة الربّ كرمليس.

قالت شمونيا رينو وهي تعتدل رافعة رأسها:

– كرمليس ليست بلدة الربّ.. الربّ يعيش في باريس.

خفق قلب الفاضل بقوّة، وراح يعبّر مجدَّداً عن شكره لفرنسا على ما قامت به تجاه حنّا. استعادت شمونيا رينو توازنها الدبلوماسي، وبدت امرأة غنيّة النضج، وجميلة بشعرها الكاريه الأشقر، ودقّة ملامحها، ورشاقة عودها. خفض الفاضل نوئيل يلدا السادس نظره، وقال بحويصلات هوائيّة محتقنة:

– سعادة مدام رينو تعلمون أن حنّا بحاجة إلى رعاية صحيّة بسبب مرض السلِّ، وقد أخبرتكم بهذا في رسالتي، وأنا لديَّ مشكلة في التفاهم مع تريزا، فمنذ انتقال المرحوم جَجّو إلى الخدور السماويّة والأمور في سوء مستمرّ. تريزا ازدادت ضياعاً بسلوكها الغريب، وأبلحد ترك كلَّ الأمور بيد أراسيا. حنّا لم يكمل تعليمه، ولم يعد يشبه جَجّو المتنعِّم بالراحة الأبديّة، لذا أنا أطلب منكم التدخُّل وإقناع تريزا بالكفِّ عن استعمال طبِّ القدّيسين العشبي، وترك حنّا يتلقّى العلاج الصحيح في المستشفى.

تطلَّعت شمونيا رينو إلى لوحة معلَّقة على الجدار تعود لنجيب يونس، يظهر فيها الملك سنحاريب وهو يشرف على بناء سور نينوى، ثمَّ نظرت بثبات إلى الفاضل وقالت:

– اقترح على تريزا أن ترسل حنّا إلى دير الربّان هرمز للاستشفاء، وأنا سأكلِّم الراهبة تيما من أجل أن نوفِّر له بعد ذلك علاجاً طبياً وهو داخل الدير. لا أريد لأراسيا أن تتدخَّل في شؤون حنّا، ولا أقبل أن تقول عن جَجّو إنّه لاعب كونكان ظريف. لقد ظهرت يوليانا لجَجّو، وهذا دليل على أنّه من أبناء السماء، أمّا ما تقوله أراسيا، فهو تشويه شيطاني. لقد أحبّ جَجّو يوليانا لأنّه يستحق امرأة من نور، والشيء الآخر المهم أيُّها الفاضل هو ألّا تجرِّب كتابة رسالة بالفرنسيّة ما لم تكن تجيد اللغة. أنت تؤذي روح فيكتور هوغو، وبلزاك، وتجعل إميل زولا يختنق في قبره. إنّه فعل شنيع يشبه تحطيمك منحوتة بييتا لمايكل أنجلو.

***

يوم راجع دائرة التجنيد لبلوغه سنَّ الثامنة عشرة، كانت الموصل من الدندان جنوباً، إلى المستشفى الجمهوري شمالاً، ومن الفيصليّة شرقاً، إلى كنيسة الساعة غرباً، تعرف حنّا اللقلق، وتعدّه طقساً يوميّاً مسلياً. كان يخرج من بيته في الميّاسة في الخامسة فجراً، ويبقى في الشوارع إلى انتصاف الليل. أيام تمرُّ لا يرى فيها تريزا، ولا وارينا. لا يحمل نقوداً، ولا إثبات هويّة، ويحدث كثيراً أن يعود إلى البيت بملابس غير تلك التي خرج بها. كان يمكنه القيام بأيِّ شيء لقاء وعدٍ تافه. غير دقيق في تصنيف أفعاله، فقد اعتقد لزمن طويل أنّ الذي يأمر هو من يتحمَّل النتائج وليس الذي يفعل، لذلك لم يكن يملك أيَّ موقف سوى رغبته في أن يحبَّه الجميع ويروه مهمّاً وضروريّاً. ينفّذ ما يُطلب منه، حتى لو أدّى ذلك إلى تعرّضه للأذى. يرعب مجموعة من طالبات الإعدادي، مقابل سيجارة، أو

يسلّطه أحدهم لتخريب شيء ما، لقاء ربع دينار. يشترك في كلِّ التحدّيات، دون أن يكتشف أنّها للسخرية منه. يُسخِّره أصحاب المحالّ التجاريّة في حمل وتوصيل البضائع. تضربه الشمس لأيّام في أعمال بناء يؤدّيها بلا مقابل، وعمّال التنظيف يغارون منه لأنّه ماهر في استعمال المكنسة. كان يمكنه العمل عشرين ساعة في اليوم بإخلاص كامل، وبلا أدنى توجيه. يطلب الطعام حين يجوع، ويستريح متى ما أوجعته مفاصله، ويأخذ قيلولة لحظة أن يتكاثر الحزن في قلبه. ورغم أنّه يسبح في الهواء، ويتحرَّك ببطء، ويبدو من بعيد كطائر مصاب بساقه، يمتلك قوّة تحمُّل عالية، وهمّة مخلصة، ويتمتّع بلمسة جماليّة تؤنِّب الجميع. كلُّ تجار خانات الكَمرك، والقلاوين، وحمو القدو، يحبّونه، ويشفقون عليه. رجالات أسواق باب السراي، والميدان، والمعاش، يرأفون بحاله، ويخصّونه بعطاياهم. وفي المساء، كان حنّا يلجأ إلى ساحة وقوف سيّارات النقل العامّ في باب الطوب حيث المقاهي المصريّة التي لا تغلق أبوابها أبداً. كانت الأضواء تُفرحه، ويرى في الوجوه الكثيرة عالماً يدعو إلى الدهشة. يأخذ مكانه بين المصريّين كواحدٍ منهم. يتقمَّص سرعتهم، ونشاطهم، ويفهم أصواتهم. يساعد في جمع الأراجيل وتجهيزها، أو في أعمال التنظيف إلى ما قبل انتصاف الليل بنصف ساعة.

كانت تريزا تجد، حين تستيقظ، أكياساً في مطبخها تحتوي على أشياء غير متجانسة، خضروات ذابلة، وقطع ملابس للرضّع، وحبوب، وأحذية منتهية العمر، ومعلَّبات متضرِّرة، ولكنّها تعدُّها تسوُّقاً لا يفهم غرضه وتوقيته، إلّا رجل بيت كامل المسؤوليّة، وواسع الحرص مثل حنّا.

لم يستطع الفاضل نوئيل يلدا السادس منع حنّا من ممارسة تسكُّعه اليومي، ورغم معرفته أنّ ابن جَجّو، رائي يوليانا، هو الآن أضحوكة الموصل الكبرى، لم يتلقَّ أيَّ علامات مساعدة من أبلحد تدفع إلى حزم أكثر جديّة. كان يبحث عنه ويعتمد على المصادفات للقيام بواجبه التربوي، وقد بذل مجهوداً كبيراً حين ظهر للجميع أنّ حنّا يُعاني السلَّ، وأنّ الأمر ليس مزحةً، لكنّ تريزا كانت تصدُّ الكرمليسي المؤدِّب، مطالبةً إيّاه بأن يكون متفهِّماً لوضعها كأرملة ليس لها معيل سوى ابنها. تدهورت صحّة حنّا سريعاً، لكنّه كان يجد الفرصة، كما في السنوات الماضية، للذهاب كلَّ يوم خميس إلى شارع الدوّاسة للوقوف بباب سينما إشبيلية في موعد الحفلة الصباحيّة الأولى منتظراً ياسمين.

***

قطع الكرمليسي المؤدِّب نوئيل يلدا السادس علاقات الكلام مع أبلحد بعد الاتّصال الهاتفي الليلي مع قصر أراسيا، لذلك لم يستطع أبداً دحر عناد تريزا التي رفضت القبول بنتائج التحليلات والفحوص الطبيّة التي أجريت لحنّا يوم كان سيُساق إلى الخدمة العسكريّة الإلزاميّة، وقالت إنّها عاشت طوال زواجها في هذا البيت الذي كان يُنسب لجَجّو المجنون، رائي يوليانا، ومن العار لأرملة مثلها أن تسمح لهذا القنّ بأن يتحوَّل الآن إلى بيت حنّا المسلول.

أبلحد هو المتحكِّم الوحيد بتفكير وسلوك تريزا، ويمكنه دفعها لتكون ظاهرة في الحياة، ومتفاعلة لوقت قصير. كانت قدراتها معنيّة بنجدة وجودها، ونيل احتياجاتها اليوميّة، وما عدا ذلك ليس من شأنها، ولا يستحقّ التعب. ولأنّ أبلحد يحمل لؤم قرصان، وعالمه يتطلَّب الانغماس في الغياب، فقد أوكل، سرّاً، مهمّة متابعة شؤون عائلة جَجّو إلى الكرمليسيّ الوفيّ نوئيل يلدا السادس، وخصَّص له منذ الشهر الأوّل لزواج تريزا راتباً يصله كلَّ ستّة أشهر بيد قسّ من كنيسة أمّ المعونة يستخدم الدرّاجة الهوائيّة في تنقُّلاته. أخبر نوئيل تريزا بأنّه سمع من المؤمنين أنّ رئيس دير الربّان هرمز الأب قاشا الألقوشي أمر بفتح دهليز القبور أمام المرضى، وسمح باستخدام سلاسل صلاة الربّان هرمز من أجل نيل الشفاء، وهي مناسبة يجب انتهازها لعلاج حنّا، وطلب منها إبلاغ أبلحد بهذا والحصول على موافقته. لم تبدِ تريزا أيَّ ردِّ فعل، وقالت وهي تُنَقّي الأرزّ:

– أبلحد طلب منّي أن أجلب لحنّا قصّاباً مسيحيّاً.

قال الفاضل بتوتّر:

– هذه خرافة يا تريزا. ابنك مصاب بالسلِّ.

كرَّرت كلامها برقبة معوجة:

– أبلحد طلب منّي أن أجلب لحنّا قصّاباً مسيحياً.

***

لم تعثر تريزا في الموصل على قصّاب مسيحي، واضطرّت لأن تذهب إلى قرية مسقلاط لتعود بواحد خاس لحمه، ووقعت أسنانه، وانطوى رأسه على ساقيه، يقطع طريقه مثل المقصّ، سمعت عنه أنّ عفاريت السعال الديكي كانت تخاف منه في الخمسينيّات. حبست تريزا القصّاب ليوم كامل في السرداب دون أن

يعلم حنّا بوجوده. وظهر الأحد، وبينما كانت العائلة تجلس في حجرة القعدة مع الفاضل وابنه الطيّب قرياقوس الواصل إلى الصف الثالث المتوسّط، مستمتعةً بأكل البقوتا مع بصلا بسموق، اقتحم القصّاب مجلسهم برائحته الزنخة. على ثيابه دماء الحيوانات، وفي يده السكين صارخاً بأنّه جاء من السماء ليذبح ابن جَجّو. انشقَّ قلب الفاضل نوئيل يلدا السادس حزناً على محنة ابن حبيبه، ولكنّ تريزا التي أخرجت الصليب الفضّي الكبير العائد لجَجّو الواعظ من بين ثدييها كانت تعتقد أنّ علّة ابنها لن تخذل ملاك الرب المتنكِّر، وراحت تطلب من حنّا أن يركع مصليّاً. بقيَ القصّاب السماويّ في مكانه لا يعرف ماذا يفعل، وقد أدرك أنّه لن يتمكَّن من إخافة هذا البغل الذي كَبُر على العلاجات المُستخدَمة مع الأطفال. اقترب حنّا من أمِّه، وهو ينظر بشكٍّ إلى الكرمليسي المؤدِّب، وابنه الذي كانت عينه على صدر وارينا. أمسكت تريزا بمعصمه، مانعة أمومة قلبها من التدخّل. تذكَّر القصّاب السماويّ عبارة كان يرعب بها الذين يزعجون الكبار بسعالهم قبل أكثر من ثلاثة عقود، فقال بعد أن لحس السكّين بلسان صدفي:

– سأتأخَّر عن قدّاس ملائكة العذاب.. هيّا قم يا ولد لأذبحك، وأخلّص العالم من شرِّك.

تدخّلت تريزا بصوتٍ كثيراً ما عذَّب بجفافه رومانسيّة جَجّو، ونكَّل بعواطفه:

– علينا أن نذبحك يا بُنيّ، فهذه إرادة الربّ، وإذا ما رأيت جَجّو في السماء فسلِّم لي عليه، وقل له إنّ أمّي تريدك أن تزورها في الحلم غداً.

انزلق حنّا من قيد تريزا، وانقلب على ظهره محرّكاً ساقيه في الهواء، ضارباً الأذرع المتعاونة عليه. بهت الكلُّ من القوّة التي أظهرها حنّا، وانتظروا انهياره. كان يتنفَّس بصرير سريع، وأخذ وجهه يَزْرَقّ. نهض متراجعاً حتى التصق بالحائط، ناشراً ذراعيه كما الصليب تحت رفِّ الأيقونة.

كان قرياقوس يبحث في الطرشي عن الزيتون الأسود عندما هجم القصّاب الإلهي على حنّا مجدَّداً بإسناد من تريزا وابنتها، فتمكَّن بظهرٍ قويٍّ من رفس أخته وارينا التي وقعت فاتحةً ساقيها أمام قرياقوس المراهق في لحظة تاريخيّة استطاع فيها رؤية كيلوتها الداخلي الأصفر المزيَّن عند الربوة برسم طبق فاكهة. تمكَّنت تريزا من بطح حنّا ملقيةً بثقلها على ساقيه. اشتعل قفصه الصدري بالسعال عندما وضع القصّاب السماوي سكّينه على جوزة حلقه قائلاً للشيطان الذي في رقبته:

– أُخرج وإلّا ذبحتك.

***

سبعة أيام، وحنّا أسير يسوع مع منقله النحاسي، يتردَّد نبضه السريع وسط الأشباح الميتة في مخزن الكراكيب، متعذِّباً بحقيقة أنّه ثمرة بطن تريزا المجنونة. لم يأكل من يدها، واعتمد على عقائد سيتا الغذائيّة المنقولة إليه بواسطة ابنها، في سفرطاس يسيل منه الدهن الأحمر. كان قرياقوس، الولد الهزيل بأذنيه الكبيرتين وجبهته البيضويّة، يؤمن بأن لا أحد في بيت جَجّو له عقل. يتعامل بلا رحمة مع حنّا الذي سبقه إلى الدنيا بأربع سنوات، مضطهِداً تمسّكه بمسرّة المحبّة، موحياً إليه بابتسامته الاستهزائيّة التي يوجّهها أيضاً لوارينا أنّه ميت، وأن لا أمل له في الدخول مرّة أخرى إلى سينما النجوم في شارع حلب. كان حنّا يكره أن يأكل أمام الناس لأنّ فمه يعمل مثل الجاروش، والطعام يتناثر منه، ولكنّ قرياقوس يتعمَّد الجلوس بالقرب من فراشه الاسفنجي الموضوع على الأرض، غير ملتزم بالتوصيات الوقائيّة، لظنّه أنّ ما يحدث هو اعتقادات غبيّة لعائلة مضحكة، مراقباً حنّا الذي يتحوَّل إلى غراب انتهازي عند تناوله طعامه، فقرياقوس في العادة يضع زمناً غير محدَّد لسحب السفرطاس، وأخذ بقايا الخبز، واسترجاع الفاكهة، ولا يستجيب لتوسُّلات حنّا، منهياً اللقاء بأن يخرج من جيبه الصليب الخشبيّ الصغير مع صورة نايلونيّة للعذراء، وأخرى بحجم الطابع لمار استيفانوس كانت سيتا قد تبرَّعت بها جميعاً لإنقاذ حنّا، كي يقبِّلها هوائيّاً وهي بيد قرياقوس الذي يرفعها متراجعاً إلى الباب حتى لا تصل إليها الفايروسات. يتطلَّع حنّا إلى الصليب البعيد، ويشكر الربّ على ما بقي له من وقت، مجدِّداً توسُّلاته بأن يترك له بقايا الطعام، فيبيد قرياقوس كلَّ آماله قائلاً بقلب أسود:

– يسوع أكثر فائدة لك من البرتقالة.

ردَّ حنّا بذل:

– أنا أجوع ليلاً، وتريزا ووارينا تظنّان أن شبحاً في الأعلى يُقلِّد صوتي.

قال قرياقوس ببرود:

– يبدو أنّ لا أحد أخبرك أنّك في الغد ستُدفن في دير الربّان هرمز.

تعفَّن حنّا بالحزن، وهو ينظر إلى ابن الفاضل نوئيل يلدا السادس الذي عاد ليقول:

– يمكنني ترك نصف رغيف خبز إذا قبلت أن نلعب القرقراجو.

صعد قرياقوس على ظهر حنّا الذي نادى اللَقْلَق:
– هو لكلاكو.
فردَّ قرياقوس بنشوة:
– حجي باكو.
– ما كأخلت؟
– لخما وبئتا.
– ما كشاتت؟
– مايا دزمزم.

دهليز القبور

ما إن قرع عبد يشوع ناقوس النهوض حتى استعدَّ الراهب الشابّ جبرائيل كجو لمقابلة رئيس الدير في قلاية اليشاع. كان الأب قاشا الألقوشي يجمع أوراقه على ضوء الشموع، وزوائده اللحميّة تصدر عن أنفه صفيراً متوتّراً عندما وقف أمامه الشاب التلكيفي بأدب الرهبنة الهرمزيّة، وبإكليل شعره المحلوق من القمّة وفق قوانين القدّيس إبراهام الكبير. لم يتذكَّر رئيس الدير الأمر الذي جعله يستدعي الراهب الجديد، وطلب منه أن يُرتّب له الأوراق بينما يجلس منفرداً بعقله لدقائق. حافظ الراهب جبرائيل على الهدوء متحرِّكاً ببطء في أرجاء خشوع الآباء القدماء الذين زيَّنوا القلاية بالخطِّ الاسطرنجيلي الأحمر، واضطرّ بعدها، استجابة للنداء الأخير، إلى الهرولة خلف الأب قاشا إلى قاعة الطعام الصخريّة حيث الظلمة والبرودة المتدفِّقة من قلب الجبل. أجلسه رئيس الدير بجواره إلى المائدة، وما لبث صوت الراهب عبد يشوع أن سيطر على القاعة، وقد اختار أن يقرأ باللغة اللاتينيّة كتاب الأب شموئيل جميل عن علاقات الكنيسة الكلدانيّة بالكرسيّ الرسوليّ.

ابتسم الأب قاشا قائلاً للراهب جبرائيل:

– لا أستطيع إلغاء هذا الطقس التثقيفي من أجل فكرة غائبة.

همس الراهب الشاب:

– الرهبنة الهرمزيّة هي انتظار دائم أيُّها الأب المبجَّل.

اكتست ملامح الأب قاشا بالقلق، مال إلى الراهب جبرائيل وقال:

– سأسمح لك بحضور اجتماعي مع المدبِّرين شرط أن تحافظ على نذر بتوليتك المؤبَّدة، وتبعد سمعك وبصرك عن قراراتنا. أنا أكره الاجتماعات لذلك هناك فرصة حقيقيّة لاستعادة الذاكرة.

اعتذر الراهب عن الانضمام للمدبِّرين، وفضّل أن يلتقيه مجدَّداً عند التوديع. وبعد انتهاء طقس القراءة قال رئيس الدير وهو في طريقه إلى المذبح إنّه لا يعرف أين اختفت الوصيّة، ولكنّه يملك المزيد من الدقائق لتعذيب ذاكرته.

أحاط الرهبان الذين خرجوا من الكنيسة بالرئيس لنيل بركته ثمَّ ساروا معه حتّى وصوله إلى الباب الخارجي. جال ببصره بين الوجوه، فتقدَّم الراهب جبرائيل كجو، وهو يائس تماماً. قال رئيس الدير بعد أن وضع يده على كتف الراهب الشابّ:

– سأمكث في روما ثلاث سنوات، وهذه فترة كافية لأبحث لك في ذاكرتي عن الكلام الذي أردت قوله لك.

***

عندما وصل حنّا إلى دير الربان هرمز على جبل بيث عذري برفقة القسّ القصير منصور توما في الساعة العاشرة من صباح السادس من حزيران عام 1986 كان قد عاش يوماً كاملاً دون أن ينطق بكلمة. شدَّه منظر ثقوب الصوامع الحجريّة المنقورة في صدر الجبل على جانبي الدير، وارتاح قلبه لنهايته، مخمِّناً، اعتماداً على لطف القسّ منصور، أنّهم سوف يتركون له حرّية اختيار الصومعة التي يموت فيها.

كان الدير يقع في الشمال من بلدة القوش على بعد ثلاثة كيلومترات، وقد بدا لحنّا من الأسفل شبيهاً بمستعمرة نمل حيث الأحجار الرماديّة تبرز من بين الحشائش التي يأكل أصفرُها أخضرَها، وعلى البعد تتناثر أبنية سرابيّة غير واضحة الهياكل. كانت الحرارة راكدة في الأسفل بينما الجبل العريض يسكب على وهدة الدير شلّالات هوائيّة نقيّة. اختلف مزاج القسّ منصور، حين بدأ الإنهاك يصيب حنّا. كان قد قضى جزءاً كبيراً من يوم أمس في بيت القسّ في القوش محبوساً في غرفة حجريّة تفوح من أركانها رائحة روث البقر. لم يستطع النوم، ولم يكن قادراً على تحمّل آلامه، وحرارته الداخليّة. شعر بحزن ثقيل لأن لا أحد من أهله تعاطف مع رحلة موته، وبقيَ يعاني المغص الروحي من سؤال إن كان سيُدفن حيّاً، أم سيُترك وحده ليموت من الجوع؟

جلس حنّا في غرفة الديوان على لوح خشبي، وهو يُغطي فمه بمنديل قُطني، وبقجة البازا تفصله عن القسّ منصور الذي كان يهزُّ ساقه اليمنى بتوتّر، وأصابعه تلعب برسالة موجّهة من مقرّ رئاسة الرهبنة في دير السيدة إلى الراهب جبرائيل كجو. استقبلهما الشاب التلكيفي بابتسامة مشبَّعة بالفرح لم تُغرِ القسّ منصور بالبقاء، فسأله وهو ينهض، ظانّاً أن حنّا لا يسمعه:

– هل سمعت بقصّة جَجّو مجنون كرمليس؟

– نعم.

– هذا ابنه.

قال كلامه، ثمَّ وضع الرسالة في يده وغادر الدير مسرعاً دون أن يودِّع حنّا. جلس الراهب في مكان القسّ منصور وقرأ خطَّ رئيس دير السيدة الذي ذكر أنّه فاتح الأب قاشا الألقوشي بأمر السماح للمؤمن حنّا جَجّو بالبقاء في الدير لغرض العلاج، وأنّه رشَّحه للعناية به طوال فترة إقامته.

التفت الراهب الشابّ إلى حنّا، وابتسم قائلاً:

– كانت رحلة متعبة أليس كذلك؟

بقيَ حنّا ينظر باستقامة، وصدره يعلو ويهبط بإجهاد. وقف الراهب الشاب وواجهه متسائلاً:

– هل تسمعني؟

فكَّر الراهب أنّ من الأجدى نقل حنّا إلى مستشفى القوش، وأرسل في طلب عبد يشوع كي يشهده على الحالة التي لا تنفع معها مزاجيّة المعجزات. كان يحبّ الأحياء المجهريّة، ويؤمن بوجود الصحون الطائرة، ولا يستطيع نسيان صوت سركون هرمز، وفي أحيان كثيرة يتساءل بتيهٍ عن السبب الذي جعله يصعد الجبل.

قال الراهب جبرائيل كجو مختصراً الفحص البصري:

– إنّه يتنفَّس بسرعة.

ردَّ عبد يشوع وهو لا يزال منحنياً:

– هذه علامة غير جيدة.. العنف يبدأ في الصدر أوّلاً.. هل تكلَّم؟

تراجع الراهب جبرائيل قائلاً:

– لم يردّ على أسئلتي.

– هم لا يفكِّرون.. أفعالهم خاضعة للغرائز لذلك لا يمكن توقُّعها.. انظر.. إنّه يرتجف.

– إنّها الحُمّى.. هذا ما يحدث حين نمرض.

قال عبد يشوع نافياً:

– كلا .. هذه علامة أخرى.. الجنون يتراكم مثل الأخطاء، وهذا ابن جَجّو المجنون الشهير.. ليس كلُّ من يتكلَّم بلسان يسوع عاقلاً. إنّ وجوههم عادةً ما تكون باتّجاه غروب الشمس حيث مملكة الشيطان. أنا أعرف هذا النوع. إنّهم يحملون جنون الأجداد، والآباء، وجنونهم الشخصي، وغباء العالم.

سحبه الراهب الشاب من ذراعه، وقال:

– علينا إرسال الولد إلى المستشفى حالاً.

احتقن وجه عبد يشوع:

– عُدت إلى هرطقتك يا جبرائيل؟... أنت تسيء إلى الرهبنة الهرمزيّة، وتعصي الأوامر. عليك في الغد أخذه إلى دهليز القبور، وربطه بسلاسل صلاة الربّان هرمز. المستشفيات مفتوحة للذين بلا إيمان، ويسوع الذي هنا يختلف تماماً عن يسوع المدينة.

***

سارا في دهاليز صخريّة حتّى وصلا إلى السكرستيا، ومن غرفة الاشياء المقدَّسة أخرج الراهب جبرائيل كجو فانوساً كبيراً بقفص حديدي، وقاد حنّا إلى دهليز القبور تنفيذاً لقرار عبد يشوع الذي منح حنّا فرصة ثلاثة أيّام للعلاج بشفقة القدّيسين. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يطأ فيها الراهب جبرائيل كجو ظلمة المكان بحثاً عن معجزة. تقدَّم بحذر متجنِّباً إيذاء راحة الموتى بين نتوءات حادّة أهملها النقر كي تحرس قداسة العظام، وحنّا يسبح خلفه بنسختيه: ظلِّه الخرافيّ، وجسده الهزيل الساخن.

تعمَّقا في قلب الجبل، تقاومهما همهمة تنبثق مع تقدُّم الضوء. كانت السلاسل التي عثرا عليها عند قبر الأب إيليا تتدلّى من حلقة ضخمة مغروسة في السقف. انكمش قلب الراهب وهو يرى حنّا يحصر بقجة البازا بين ركبتيه، ويعاونه في التفريق بين السلاسل، وهو يعضُّ لسانه. تلطَّخت أصابعهما بلون الصدأ بينما الراهب الخائف من رقّة مشاعره يتكلَّم بصوت صلب عن إيمان الربّان

هرمز، وكيف كان يحافظ على صلاته الأبديّة، وعبادته السرمديّة، فيوثق نفسه بهذا الحديد ليقمع رغبات الجسد، ونداءات الشهوة.

أمسك حنّا بالفانوس مصلّباً عنقه بينما صدره يجاهد في التقاط الشهيق، تاركاً الراهب يحكم إغلاق الطوق حول رقبته، وينتقل بالحزن نفسه لتكبيل معصميه. فتح حنّا ذراعيه بالطريقة التي تعجب الموتى، والبقجة التي بين فخذيه تبدو في شُحِّ الضوء مثل خصية عملاقة. ظنَّ أنّ الأمر لن يمرَّ بخوف بسيط ما دام الموقف يتطلَّب مقابلة شبح قدّيس عظيم.

وقف الراهب جبرائيل كجو أمام حنّا المكبَّل بحديد النصف الأوّل من القرن السادس الميلادي، والحزن الحارق يخرمش البياض في عينيه قائلاً إنّه سيعاونه ويستدرج بالصلاة شفقة الربّان هرمز، لكنّ السعال قتل كلمة حنّا الوحيدة وقذف الدم المخاطي من بين أسنانه وسكبه على ذقنه مانعاً إيّاه من قول: شكراً.

***

مع انقضاء اليوم الأوّل تبيَّن لجميع أتباع الرهبنة الهرمزيّة أنّ حنّا جَجّو لم يكن مؤمناً اعتياديّاً، فبالإضافة إلى الرسول الذي بعثت به الراهبة تيما وصل الفاضل نوئيل يلدا السادس إلى الدير حاملاً رجاء الاعتناء بحنّا لكونه شخصيّة تحظى بقلق فرنسا العظمى واهتمامها.

لم يسمح الراهب جبرائيل كجو ببقاء حنّا في دهليز القبور أكثر من ساعتين، ورجع إلى عبد يشوع كي يحسم معه قضيّة المسؤوليّة، وهدَّده بأنّه سيتّصل برئيس الدير في روما إذا أصرَّ على عدم الاعتراف بتكليف دير السيدة. وبعدها بيومين وصلت إلى الدير شحنة بوزن طن تتكوَّن من أرزّ، وبرغل، وبقوليّات، وزيوت طهو مرسلة من رئيسة مجلس إدارة شركة ساس الزراعيّة الأميركيّة العراقيّة أراسيا إسماعيل دنحا للتعبير عن شكر كرمليس لجهود الرهبان في الوقوف مع حنّا في محنته. ورغم أنّ هذا التعاطف لم ينل الرضى التام من بعض الرهبان الذين لا يستطيعون نسيان مذابح تيمورلنك، كان لدى البعض الآخر فضول حارق للصبر حتى نهاية القصّة.

تنقَّل الفاضل نوئيل يلدا السادس مدّة أسبوع بين بلدة القوش والدير، وحين عُزل حنّا في غرفة تقع في طرف صحن الكنيسة، طُلب من الراهب جبرائيل كجو ألّا يشعر حنّا بأنّه أسير، لأنّ هذا من شأنه إعاقة نموّ الإيمان فيه.

فكَّر الراهب الشابّ قبل أن يتساءل:

– كيف لرجل مرموق مثلك، متبحِّر في اللاهوت، وقويّ الصلة بالسماء أن يخلط بين الحقيقة والجنون؟

ردَّ الفاضل نوئيل يلدا السادس:

– لا علاقة لي باللاهوت، ووجودي الآن على جبل بيث عذري هو أقصى اقتراب لي إلى السماء. أنا أتلقّى أجراً من أبلحد لقاء تأدية هذه الخدمات، وما دمت أقف أمامك، فلا بدَّ لي من الاعتراف بأنّ جَجّو يمثِّل لي حقيقة ساطعة، فهو رائي يوليانا، والمدافع الاستثنائي عن الخير. إنّه القدّيس الوحيد لنا منذ القرن السادس.

تأكَّد الراهب من أن لا أحد بقربهما، وقال:

– نصف أهالي بلدة القوش يظنّون أنّ الربّان هرمز ظهر لهم. الظُهورات في أريافنا عاديّة مثل رؤية القمر لذلك هي بلا قيمة.

قال الفاضل بثقة:

– أنا ذكرت لك يوليانا لأنّي ظننت أنّ هذا سيشجّعك باعتبارك راهباً، أمّا الذي ينال تقدير الناس فهو الإيمان الحقيقي. كرمليس واثقة من أنّ جَجّو هو الوحيد الذي نجح يسوع في كسبه.

ضحك الراهب وقال:

– إيّاك إعادة هذا الكلام أمام عبد يشوع.

ضحك الفاضل قائلاً:

– هذا هو الاعتراف الوحيد لي في حياتي، ولن أكرِّره أبداً.

***

وصول الراهبة تيما إلى القوش يرافقها كبير أطبّاء مركز مكافحة التدرُّن في الموصل الدكتور بهنام حدّاد دفع عبد يشوع إلى تقديم شكوى قاسية إلى دير السيدة، وطالب في اتّصال هاتفي مع روما بالتدخّل السريع لإيقاف هذه المهزلة. حاولت الراهبة تيما تفادي الاصطدام بمعتقدات الحياة في بيث عذري، وحصرت علاقتها مع الراهب جبرائيل كجو الذي كان يرى أنّ سلاسل صلاة الربان هرمز هي وسيلة شخصيّة، وسريّة، أمّا الطبُّ الحديث، فهو هبة خلاص تشبه قرع الناقوس. أرادت الراهبة تيما إنجاز مهمَّتها في بيث عذري بسرعة والعودة إلى كرمليس لمعالجة الخطأ الذي ارتكبته بإشراك رئيسة مجلس إدارة شركة ساس الزراعيّة الأميركيّة العراقيّة أراسيا إسماعيل دنحا بمسألة علاج حنّا. كانت قد

فعلت ذلك بنيّة إنقاذ السمعة الروحيّة لبلدة كرمليس، لكنّ شمونيا رينو عدَّت الأمر خيانة لا تُغتفر، والذي زاد من ثورتها على الراهبة تيما أنّ الفاضل نوئيل يلدا السادس كان مثل جروٍ حديث الولادة، معتاد على الطاعة لا على إنتاج الأفكار وتوليد الاقتراحات، وقد عرفت أراسيا إسماعيل دنحا كيف تستغلّ الموقف وتصنع لنفسها هالة إحسانيّة بين أديرة السهل الشرقي.

طلبت شمونيا رينو من الراهبة تيما نقل حنّا إلى الموصل للعلاج، وعرضت استعدادها لتسفيره إلى فرنسا إذا تطلَّب الأمر ذلك. بقيَ الطلب قيد الدرس مدّة ثلاثة أيّام إلى أن اجتمع الراهب جبرائيل كجو، والراهبة تيما، والفاضل نوئيل يلدا في قلاية اليشاع لتقرير مصير ابن جَجّو. تكلَّمت الراهبة تيما عن وجود صراع إرادات بين أولياء أمور حنّا، وأنّ الرأي الآن يقضي بنقله إلى المستشفى الجمهوري ريثما تكتمل إجراءات سفره للعلاج في فرنسا.

اعترض الراهب جبرائيل:

– الموقف الآن أكثر تعقيداً من الأيّام الأولى، ودير الربّان هرمز يرى أنّ حنّا يجب أن يخرج من هنا معافى مهما كانت الوسائل، لأنّ هذا الأمر يتّصل بمكانة الربّان هرمز بين المؤمنين في عموم السهل الشرقي.

تساءلت الراهبة تيما:

– ماذا لو مات حنّا؟... كيف ستبرِّر لنا فشل القوّة الإيمانيّة في إنقاذ المريض.

قال الراهب بارتباك:

– دخول حنّا إلى الدير جاء بتوصية رسميّة ووفق مخاطبات أصوليّة، ويرى عبد يشوع أنّ هذا الأمر يلزمنا بتحمُّل مسؤوليّة المريض إلى حين حصوله على نعمة الشفاء. هذا رأي الدير، وأنا للأسف سأضطرّ إلى تبنّيه رغم أنّني أؤمن مثلك بضرورة أن يتلقّى حنّا علاجاً علميّاً.

قالت الراهبة تيما وهي تنظر إلى الفاضل نوئيل يلدا السادس مستنكرة سكوته:

– حسناً.. سيشرف الدكتور بهنام على علاج حنّا هنا في الدير، وسننتظر النتائج.

رفع الراهب يده كتلميذ في صفٍّ مدرسيٍّ وقال:

– أرجو أن يتمَّ هذا بشكل سريٍّ من أجل سمعة الدير.

ابتسمت الراهبة تيما وقالت:

– جَجّو لم يكذب يوماً.
ردَّ الراهب وقد شعر بالإهانة:
– هذا لأنّه مجنون.

***

أخذ يقين حنّا ينمو في الدير متنعِّماً بالازدهار الروحي الذي رسَّخته كبسولات الريفادين وحبوب الإيزونيازيد في بدنه دون أن يشكِّك قلبه في حقيقة أنّه قابل الربّان هرمز في ظهوره المتحضِّر عندما جاءه من الغيم كثَّ الشعر، تطفح ملامحه بدمويّة الرخاء، يحمل كَرْشاً ربَّته بيرة لؤلؤة، ويأكل الفول السودانيّ ليدرّ على عجائب ضخامته إيحاءً مُلَغَّزاً بالفحولة، يتنفَّس دخان سجائر سومر رغم علم قداسته أنّ التدخين سبب رئيس لسرطان وأمراض الرئة، والقلب، والشرايين.

لم يكن الدكتور بهنام مستعداً لخسارة وقته في مجاملة الرهبان، وتبسيط ما درسه في كليّة الطبِّ، ولكنّ فطرته الأخلاقيّة استيقظت حين سأله حنّا وهو تحت خوف التشخيص:

– هل سأموت الآن أيُّها القدّيس؟

ردَّ الدكتور بهنام:

– الموت هو سوء حظِّنا الأخير، وبما أنّني هنا معك، فمعنى هذا أنّك محظوظ جدّاً الآن.

فشل الراهب جبرائيل كجو في استعادة ثقة الراهبة تيما، ووجد من المناسب كسب ودِّ الفاضل نوئيل يلدا السادس ما دام يتكلَّم باسم فرنسا. كانت زيارات الدكتور بهنام تتمُّ ليلاً، وقد بذل الراهب الشابّ مجهوداً كبيراً من أجل تطبيق الوصايا الطبيّة، وأيضاً في إخفاء آثار الأدوية، وقد أسهمت أجواء الظلام في استمرار حنّا على اعتقاده بأنّ الربّان هرمز هو من يأتيه حين تلمع النجوم، ويعامله بلطف، ولكنّه بقيَ غير قادر على تفسير سرِّ ظهور الربّان هرمز ومعه العديد من قناني بيرة لؤلؤة، وينام على الكرسيّ، مُطْلِقاً من بطنه دفقة غاز مزماريّة كلَّ ثلاث دقائق.

موعد إشبيلية

– مرحباً حنّا.. أنا ياسمين.

لم تترك له فرصة التحقُّق من ملامح الماضي، فقد طلبت منه أن يتبعها وهي كالحة الوجه، وخالية تماماً من أيِّ تعبير عاطفي. أعطته ظهرها، فانجذب بصره إلى رجرجة مؤخرتها الطريّة في التنّورة البيضاء القصيرة، وحين تجاوز حنّا ركن مطعم كويسنجق، فكَّر في كيفيّة إبلاغ تريزا بأنّه لن يعود.

لم يتبادلا أيَّ كلمة إلى أن سألته ياسمين، وهما في بيتها، إن كان يريد شرب الشاي معها. كان الهول الداخلي يزدحم بفوضى قطع الأنتيكا، وصور الموصل القديمة تزيّن جداراً كاملاً، مع تمائم الخزف المزجَّج، والخرز الفيروزيّ، بينما في الصدر، قبالة قنطرة الباب الخارجيّ، أريكة وحيدة من الطراز المستخدم في الحمّامات العامة، مرتفعة، وناشفة، وبمساند للقدمين، ومفروشة بحصيرة من الخوص. سألته إن كان يعمل غرسوناً في بار؟ فقال إنّه يبحث عن عمل. أوضحت له أنّ قميصه الأبيض، وبنطلونه الأسود يجعلانه يبدو مثل غرسون. وحين احمرَّ وجهه، قالت إنّها تمزح.

غابت ياسمين في الغرفة البعيدة، ثمَّ خرجت وعليها لانجري رمّاني يغطي حوضها، تتلوَّى فيه اللمعة. كانت حنطيّة اللون، بوجه مثلث وقامة متوسِّطة في قوام ممتلئ ومتناسق. بدا شعرها الكستنائي الذي يصل إلى كتفيها بخصلاته المبرومة وكأنّه صُفِّف توّاً. مشت حافية بخطٍّ مستقيم لصق حائط الصور إلى ما خمَّن حنّا أنّه المطبخ، ثم ما لبث أن سمع طَقْطَقة صحون. وأصوات خزائن تُفتح وتُغلق. شعر بيباس في حلقه، وسرت في أطرافه حركة بإيعاز وهمي، فالهيئة

التي بدت عليها ياسمين تشبه ما كانت عليه بنات بتول بقلاوة. ظهرت مجدَّداً واهبة إيّاه وقتاً لمعاينة شكلها الجديد، وهي امرأة ناضجة، ونصف عارية، وموفّرة لعينيه فرصة أن يبدأ عشقه لساقيها. لم يفهم تعابير الاستغراب في وجهها وأصابعها، ما دفعها إلى سؤاله:

– لماذا أنت واقف؟

قطع ثلاث خطوات بإنهاك وجداني، وجلس على طرف الأريكة، جهة القنطرة، وهو قلق من احتمال أن يكون سؤالها دعوة لمعاونتها في المطبخ. أشعلت ياسمين عين طبّاخها الصغيرة، وراحت تنظر إلى النار الزرقاء، وهي معبَّأة تماماً بالأسى، فقد صدمها منظر حنّا وهو يتشبَّث بالهواء في مسيره للجلوس على الأريكة. شكَّت في أنّها يمكن أن تكون قاسية، وسيّئة، وتريد ممارسة الشرِّ مع قطعة بشريّة ضعيفة كهذه. أطفأت الطباخ بحركة سريعة. أرجعت شعرها ثمَّ تأكَّدت من أن لا أحد خلفها. اتّكأت على الكاونتر، ورفعت صوتها متسائلة:

– هل تريد شرب الماء؟

تأخَّر في الردِّ، ثمَّ جاء صوته قريباً:

– لا... شكراً. هل تريدين أن أساعدك؟

ردَّت بحزم:

– اجلس يا حنّا، لا أحتاج إليك.

أطلَّت برأسها من الباب لتتأكَّد من أنّه رجع إلى مكانه. سألته:

– متى عدت من الدير؟

رفع صوته ليلحق بها إلى المطبخ:

– قبل أربعة أشهر.

وحين طال صمتها، وانقطعت عن سمعه أصوات المطبخ عاد ليقول:

– بقيت فيه سبعة أشهر.

رفع رأسه، فوجدها تقف لصق الحائط، متباعدة الساقين، تحت صورة قديمة لجسر الملك غازي. ركَّز بصره على وجهها وقلبه يدقُّ بسرعة. قالت باسترخاء:

– عليك التخلُّص سريعاً من كلِّ ما يزعجني.

وحين حدست أنّه لم يفهم، عادت لتقول:

– لا أريدك أن تشبه جَجّو.

ارتدّت الحركة في أطرافه، والتوى عنقه قائلاً:

– أنا لا أشبهه.

قالت وهي ملتفتة تنظر إلى عمق المطبخ:

– إذا اكتشفت أنّك تشبه جَجّو فسأطردك من بيتي، ولن تراني مرّة أخرى.

عجزت الكلمات عن عبور حنجرته. تشنَّجت رقبته وهو يدفعها بِبَقْبَقة وكأنّه يغرق:

– قلت لك أنا لا أشبه جَجّو.. أنا لا أرى يوليانا مثله.

منذ أن عاد حنّا من الدير وهو لا يتعامل مع ذكرى بتول بقلاوة بالحنين نفسه الذي كان ينتابه قبل إصابته بالسلّ. تخلْخَلَت الكثير من المواقع في رأسه وأصبحت هشّة حين أخذ يشتاق كثيراً لرائحة الربّان هرمز يوم كان يدخِّن سجائر السومر. حتّى صورة جَجّو نفسه لم تعد محترمة في ذاكرته كما في السابق، فكلمة المجنون التي كثيراً ما تلحق بسيرة أبيه بين الرهبان، يجدها الآن منصفة، ومخزية في آن واحد. انقطع عن عاداته القديمة، وبات يتجنَّب رؤية الأشخاص الذين يتعاملون معه بطريقة مهينة، لكنّ وضعه لم يعجب تريزا، وكانت تطالبه دائماً بالخروج لالتقاط رزقه. حاول إفهامها أنّه منذ أن عاد من الدير يتصرَّف كشخص جديد، وعاقل، إلّا أنّها رفضت الاعتراف بهذا، وقالت له إنّ الشخص الجديد هو ذلك الذي يجلب للبيت مالاً أكثر من السابق.

غابت ياسمين في المطبخ خمس دقائق قبل أن تحمل إليه صينيّة الشاي وتضعها بينهما على الأريكة وتجلس متربّعة. سرت السخونة في بدن حنّا، وأخذ يتعرَّق. تأمَّلته ياسمين، وهي متعجّبة للشفقة الغزيرة التي نبعت من قلبها. انْكَمَشَ حنّا أكثر وهو غير قادر على رفع بصره. أغلقت بيدها ما بين فخذيها، فرفع رأسه قليلاً، ووجَّهه إلى باب الغرفة المقابل للمطبخ. طلبت منه أخذ استكان الشاي من الصينيّة ثمَّ سألته:

– هل فكَّرت وأنت في الدير أنّني قد أمرّ بسينما إشبيلية ولا أجدك في انتظاري؟

ردَّ بانكسار:

– أنا لم أجدك تحت المنضدة حين عدتُ من المدرسة. قالوا لي إنّ ليلى أخذتك ورحلت.

قالت ياسمين وهي تنظر إلى أصابع يدها اليمنى:

– أمّي كانت مصابة بالسرطان، وأرادت أن تموت في مكان نظيف.. كانت وقتها قد نالت من الكويت التعويض المادّي عن مقتل زوجها في حادث سير.

تمطّى حنّا وهو يقول:

– انتظرتك تسع سنوات. لم أكن أعرف أنّني سأعود إلى الموصل، لقد أخذوني إلى الدير كي أموت هناك، ولكن الربّان هرمز رفض ذلك، وقرَّر أن يشفيني.

سألته وهي تعاين ظفر سبابتها اليمنى:

– كيف عرفت أنّه رفض؟

ارتجف رأسه وهو يقول:

– لقد قابلته. جاءً على هيئة دكتور.

نظرت ياسمين إلى جهة المطبخ وقالت:

– كلَّ خميس، على مدى ثلاث سنوات، كنتُ أمرّ بسينما إشبيلية وأراك في انتظاري. لم أكلّمك. كنت أشعر بالسعادة لأنّك تقف هناك وتنظر يميناً ويساراً. أمّي اشترت هذا البيت قبل أن تموت بستّة أشهر. هل انتبهت؟ نحن بجوار سينما حمورابي. في غرفة نومي أستطيع سماع الرصاص وهو يطلق من مسدَّسات الأفلام، لهذا لا أشعر بأنّني أسكن وحدي.

نظر حنّا في عينيها السومريّتين، ولكنّه لم يجد سؤاله، فقالت ياسمين:

– لم يتحسَّن وضع العمل إلّا بعد أن أغلقوا عمارة العاهرات الفلبينيّات في الشارع الذي أمام بوابة حديقة الشهداء.

قال بصوت مشدود:

– أنا كنت في الدير، ولا أعرف أيَّ شيء عن هذا.

ضحكت وهي تسأله:

– هل تحبّ الذهاب إلى هناك مجدَّداً؟

– الربّان هرمز أراد أن أعود إلى الموصل.

رفعت ياسمين يدها من بين فخذيها، وطلبت منه أن ينظر إليها:

– الربّان هرمز الذي تتحدَّث عنه يا حنّا هو كبير أطبّاء مركز مكافحة التدرُّن في الموصل الدكتور بهنام حدّاد، ويمكنني في الغد أن أذهب بك إليه. باستطاعتك اكتشاف الحياة بيسر والتعرُّف إليها والاندماج معها، بدل أن تصبح مجنوناً بفكرة غبيّة.

ارتجف فمه المنقاري وتردَّد قبل أن يقول:
– لا يمكن للربّان هرمز الظهور بهيئة مزيّفة.
علَّقت بخيبة:
– كلُّ شيء مزيّف هنا.
سألها:
– هل عدت إلى بتول بقلاوة؟
ضحكت قائلة:
– وهل كنت تتوقَّع منّي أن أصبح دكتورة؟... خالتي بتول وضعتني في بيت نائب محافظ نينوى لأخدم والدته المريضة. بقيت هناك سنتين، ولكنّ ابن النائب اغتصبني، فغضبت خالتي كثيراً، وشغَّلتني عاملة في الشركة العامّة للغزل والنسيج. كنت أعود إلى شقّة شارع حلب مساءً لأغادرها فجراً إلى العمل، ويوم هاجرت خالتي بتول إلى لبنان طردوني من الشركة.

انتظر حنّا أن تقول المزيد لكنّ ملامحها أجمعت على تعبير مبهم. دقَّق في حاجبيها الرفيعين، وعينيها الواسعتين، وشفتيها المتساويتين، وحنكها المدبَّب. كانت صقيلة، وتوحي بالبراءة، ولا تشبه تلك التي عاش معها في بيت بتول بقلاوة. أنزلت ياسمين ساقيها طالبة من حنّا أخذ صينية الشاي إلى المطبخ، وغابت في الغرفة المقابلة. فكَّر للحظة أنّها يمكن أيضاً أن تكون شكلاً متنكِّراً للربّان هرمز، ولكنّه طرد الفكرة من رأسه لأنّ ياسمين كانت عارية. داهمه الحزن لأنّ الأشياء حوله تبدو مبهمة، أو أنّه ليس بالرجاحة التي تؤهّله لطرح الأسئلة الجيّدة. خُيِّل إليه أنّه سمع رشقة رصاص، وصراخاً، وهو يدخل إلى المطبخ الضيّق الذي لم ينل العناية منذ مدّة طويلة، وجدرانه مشبَّعة بالدهون. كان في نيّته فعل شيء ينال رضاها، ولكنّه سمعها من الغرفة المقابلة تأمره بحزم أن يترك كلَّ شيء على حاله. عادت إليه وهي مرتدية فستاناً بلون زهرة الرازقي بكمّين طويلين وبجيبين عريضين. جذبته صور الحائط، فعادت إلى مكانها على الأريكة وهي متداخلة التعابير وصامتة. توقَّع أن تنظر إليه، ولكنّها لم تفعل:
– بيتك يبدو مثل مقهى.
قالت باسترخاء وهي تنظر إلى شاشة التلفزيون الرماديّة:
– هذه الصور بعدسات آكوب وكوفاديس ومراد... أنا اكتشفت أنّني أحبّ الموصل، أمّا الوطن الذي يتحدّث عنه التلفزيون فلا أعرفه، لأنّني لم أدخل

المدرسة.

عاد حنّا إلى الأريكة، وسألها:

– كيف عرفتِ أنّني ذهبت إلى الدير؟

قالت وهي تعدل جلستها وتضع ساقاً على ساق:

– من نوئيل يلدا.. بعد وفاة جَجّو بقيَ يتردَّد على بيت بتول بقلاوة بحجّة الإشراف على دكّان الخياطة. كان يأخذني إلى بيته لأساعد سيتا في الطبخ، وحين تُوفيت ليلى وهاجرت بتول إلى لبنان ظهرت طباعه السيّئة.

قال وقد شعر براحة واضحة:

– أنا لا أحبّه.

انتبهت ياسمين إلى هدوء حنّا وتحسُّن نطقه واختفاء علامات البشاعة الكبرى في شكله. ابتسمت وهي تتأمَّله بلا تحفظ، ثمَّ سألته:

– هل أعجبك فستاني؟

أجاب على الفور:

– هو جميل وأنتِ جميلة.

ضحكت، وهي ترجع رأسها إلى الخلف. نظر حنّا إلى ثدييها المشدودين معاً، ولاحت على وجهه ابتسامة طفوليّة. لمست ياسمين زاوية فمها بإبهامها وقالت بجديّة:

– حين تعيش بجوار سينما، فإنّ الحرب لن تكون مؤثّرة. أنا هنا لست بحاجة إلى تلفزيون، أو راديو، والزقاق لم يمت فيه أحد في الجبهة. الظلام في هذا البيت لا يشعرني بالخوف. أنا أحبّ البيوت القديمة مثل بيت نوئيل ولكنّني لا أستطيع العيش فيها. أجدها تحتاج إلى أسرّة كبيرة، وضوء قويّ لا ينقطع. هذا المكان من الموصل ليس له علاقة بالعراق يا حنّا.

قال بانتباه كامل:

– يبدو أنّ الدير يشبه السينما. هناك أيضاً لا أثر للحرب.

نهرته بصوت خشن:

– لا أريدك أن تتذكَّر الدير وجَجّو.. أتفهم؟

قال بارتباك:

– أنا لا أشبه جَجّو.

استردَّت شفقتها:

– أعرف هذا ولكن عليك أن تكون رجلاً.. عليك أن تفكِّر بنفسك بطريقة عاقلة ومحترمة مثل رجل قويّ الشخصيّة.

لم يفهم كلامها. قام بحركات عشوائيّة وسألها:

– هل أخبرك نوئيل أنّ صدّام حسين أعفاني من الخدمة العسكريّة؟

قالت وهي تشعر بالملل:

– أخبرني ولكن أنا لا أريدك أن تفكِّر في هذا. طز بصدام. انضج يا حنّا، أنت تشبه القرقوز. أريدك أن تكون رجلاً قوياً مثل الذين يظهرون في الأفلام. شرس وتأخذ حقَّك بيدك.

ارتسمت على ملامحه علامات بلَهٍ وهو يقول:

– شمونيا كانت تريد أن أسافر إلى باريس.

– أعرف.

تغلَّف وجه حنّا بالحزن:

– ولكنّ الربّان هرمز رفض ذلك.

ركَّزت في عينيه، وقالت:

– اسمع..

قاطعها:

– أسمعك.

– أنا أحتاج إليك للعمل معي. صحيح أنّني لا أخاف ومرتاحة جدّاً، ولكن لا يجوز أن أكون وحدي في هذا البيت، وأنت مفيد بشكلك هذا في أشياء كثيرة... سأعطيك ثلاثة دنانير في اليوم وستسكن معي... هل أنت موافق؟

سألها وهو سعيد:

– سأعمل غرسوناً؟

ضحكت قائلة:

– ستعمل قوّاداً أيُّها الغبي.

زقاق حمورابي

بعد أربعة أيّام عاشتها مع حنّا في بيتها، شعرت ياسمين بأنّها مستقرّة، وناضجة أكثر ممّا ظنَّت، ويمكنها تربية الأطفال، ولا تحتاج إلى استعمال الأقفال، وغير عابئة بالقطط التي تكثر في زقاق السينما، ولديها الوقت الكافي للاعتناء بجسدها، وتستطيع النوم بلا أرق والأضواء مطفأة. ولقاء ذلك كان عليها ابتكار العقوبات، وإعادة نطق أوامرها أكثر من مرّة بصوت بطيء، والظهور في البيت كمستبدّة وعديمة الرحمة.

***

أعطته الغرفة المستطيلة الصغيرة التي بجوار غرفة نومها، وجهَّزتها بسرير حديدي قابل للانطواء مع خزانة ملابس ببابين. لا تهوية في الغرفة سوى الشباك الذي أعلى الباب والذي يستمدُّ تنفُّسه من أجواء الهول الداخلي. وحتى لا يتعرَّض حنّا لأيِّ انتكاسة، حرّمت عليه الحصول على مرآة، وأبقت مفاتيح خزانته، وباب غرفته بحوزتها، ونبَّهته إلى أنّها ستعاقبه بشدّة إذا عثرت في الحمّام على أيِّ أثر له، وأعطته علبة شوكولاته معدنيّة فارغة عليها علامة الديك كي يضع فيها فرشاة أسنانه، ومشطه، وأدواته الرجاليّة الأخرى، وأوصته ألّا يزاحمها على شيء ما دامت في البيت ومستيقظة، ويمكنه أن يستغلّ غيبتها في تنظيف نفسه، وقضاء شؤونه.

اشترت له من محالّ هاشم الرحو ثلاثة بنطلونات وثلاثة قمصان مع حذاء وستة أزواج من الجوارب، وملابس داخليّة، وجهَّزته بصابونتين وعلبة صغيرة من

مسحوق الغسيل، ومستلزمات الحلاقة، وخصَّصت له دولاباً في المطبخ كي لا يشتّتها بأدواته الجديدة، ويفقدها زهو امتلاكها البيت.

ظنّ حنّا في البداية أنّ عليه تنظيف البيت، والتسوُّق، وصنع الشاي، والقهوة، والطبخ، ورمي النفايات، ولكنّ ياسمين أخرجت له من غرفتها جهاز التلفون الفستقيّ ومرّنته على كيفيّة الردِّ بغيابها، وقالت إنّها قد تضطرّ لاستقبال بعض الأشخاص في بيتها.

سألها بعد مضيّ نصف ساعة على كلامها:

– كما كانت تفعل بتول بقلاوة؟

قالت ببرود:

– أنا أختلف يا حنّا.

انتظر أن تقول المزيد، ولكنّ شكله ذكَّرها بمحاولة لا بدَّ منها:

– عليك أكل الكثير من الطعام الدسم كي تسمن.. أعتقد أنّك إذا استمررت على هذه النحافة فستبقى لَقْلَقاً طوال حياتك.

لم تسمح له بالخروج في اليوم الأوّل، وطلبت منه تفحُّص البيت جيّداً كي يحبَّه، ونبَّهته إلى أنّها تكره الذكريات، ولا ترغب في أن يكونا معاً في المطبخ، وأخبرته أنّ عمرها لا يزيد عن الثالثة والعشرين إلّا أنّها أثّثت في رأسها عقلاً يزن الموصل كلَّها، وأنّها عرفت كيف تأخذ عبرة من الآخرين، وهي سعيدة باختيارها لأنّها تسكن في زقاق السينما مع عوائل أرمنيّة وآثوريّة لا يدفعها الفضول للتطفُّل عليها. وبما أنّ بيتها أوّل بيت في الزقاق، وشارع الدوّاسة لا يبعد سوى خطوات عنها، فهي واثقة تماماً من ازدهار عملها.

شربا الكثير من الشاي من أجل أن يفكِّرا في تريزا ونوئيل يلدا. لم يسعفها حنّا بأيِّ استنارة جادّة، وبدا لها كأنّه لا يعرف أمّه، ولا يملك أيَّ ترتيبات تبريريّة لما سيحدث حين يخبرها أنّه سيترك البيت ويعيش في مكان آخر:

قالت وهي في أقصى الخيبة:

– أنت تعرف تريزا، وأنا أعرف نوئيل. علينا البدء من هذه النقطة. نتبادل المعلومات، ونخطِّط كيف سنسحقهما. أنا أتكلَّم كأشرار السينما. الحياة كلُّها مسدَّسات، وقسوة، وانتقام.

سألها:

– هل تقبلين أن أنام على الأريكة اليوم في الهول؟

فتحت كفَّها بوجهه وقالت بانفعال:

– نحن نتحدَّث عن تريزا وما ستقوله لها في الغد.

تيبَّس حلقه قبل أن يوضح لها:

– الراهب جبرائيل كجو قال لي إنّ وضعي لا يسمح بالتفكير الكثير، وعليَّ أن أسلسل أفكاري حسب الزمن، وإذا عرفت أنّك تقبلين أن أنام في الهول يمكنني بعدها أن أفكِّر بما سأقوله لتريزا.

تركت ياسمين الأريكة وسارت إلى حائط الصور. نظر حنّا إلى مؤخرتها المندفعة من تنّورتها الجينز. استدارت قائلة:

– اسحق الجميع بحذائك الجديد يا حنّا. هؤلاء يستغلون ضعفك للسيطرة عليك. أنا أيضاً سأفعل هذا معك، وأستغلّك، ولكنّ الفرق هو مَن منّا يعطيك عرضاً جيّداً. الإنسان الضعيف هو هدف للضرب. أنت تظنّ أنّ ضعفك إيمان، وخير، وإنسانيّة، وهذا غير صحيح. كلُّنا نبدأ ضعفاء ثمَّ نسحق وندمّر الأضعف منّا حتّى نمتلك القوّة. أنت هدف لقوّة الآخرين، فتعلَّم من الآن كيف تذلّ الناس، وتستغلّهم وتصعد على أكتافهم، وتزيحهم بقلب قويّ عن طريقك.

كرَّر حنّا سؤاله بينما ياسمين تتنفَّس بسرعة:

– هل تقبلين أن أنام على الأريكة اليوم في الهول؟

أسندت كفَّها إلى خاصرتها ودارت في الهول دورتين سريعتين ثمَّ وقفت في المنتصف وسألته وهي تشدُّ على أسنانها:

– ولماذا تريد النوم في الهول؟

– لا توجد مروحة سقف في غرفتي.

قالت بانكماش:

– حسناً، يمكنك النوم حيث تشاء، وغداً سأشتري لغرفتك مروحة.

ابتسم حنّا وهو يشكرها ثمَّ اعتدل في جلسته. أظهرت له تعابير الحيرة وهي تسأله:

– بعد أن حللنا قضيّة نومك في الهول، هل عليَّ أن أعيد كلامي عن الإنسان الضعيف والسحق بالأحذية مجدَّداً يا ابن القحبة؟

أجاب بابتسامة محافظة:

– ليس الآن.. علينا التفكير قبلها بما سأقوله لتريزا.

***

قال حنّا لتريزا إنّه يعمل غرسوناً في فندق آشور، ولأنّ كلَّ الذين في الخدمة الفندقيّة هم في جهاز المخابرات، فإنّ عليه، باعتباره الغرسون الحقيقيّ الوحيد، إظهار التفاني، والقيام بأكثر الاشغال مشقّة، والعمل ليل نهار من أجل أن يكون محبوباً للجميع. ونبَّهها إلى أنّه سيغيّر اسمه مثل كلِّ المسيحيّين الذين يخافون من حزب البعث، وكما أنّ ميخائيل يوحنّا صار اسمه طارق عزيز، فإنّه هو أيضاً سيفعل الشيء نفسه، لذلك على الفاضل نوئيل يلدا السادس ألّا يسأل عنه في الفندق.

أبدت تريزا قلقها:

– صدّام حسين لئيم ودموي وهو يعرفك يا حنّا، وأخشى إذا سمع أنّك صرت غرسوناً في الفندق، أن يأمر بسجنك وتعذيبك حتى ترضخ وتعمل في جهاز المخابرات.

صَفَنَ حنّا قليلاً، وقال:

– صدّام حسين لن يعرف أنّني صرت غرسوناً إلّا إذا أخبر نوئيل السفارة الفرنسيّة، وإذا حدث هذا، فكوني على ثقة من أن باريس لن تقف مكتوفة الأيدي.

تأمَّلته تريزا بانبهار، وقالت:

– عليك أن تشكر العذراء مريم يا حنّا، فأنت الآن شخصيّة مهمّة في البلد.

***

في الثامنة صباحاً كان البيت بكلِّ أركانه، لامعاً وفوّاحاً، وتظهر عليه لمسات الإخلاص الكامل، وفي انتظار أن تستيقظ ياسمين من نومها الحالم. لقد أخذ حنّا في الاعتبار أنّها تحبّ الاستمتاع بأرضيّة بيتها، لذلك تحمَّل حرصه لهفة توفير السير الآمن لقدميها الحافيتين، مستعملاً عدسة مكبِّرة تعود لجَجّو جلبها من بيت تريزا في فحص أرضيّة الهول بحثاً عن جسم دخيل يتستَّر بألوان بلاطات الموزاييك. اندهشت ياسمين في الأيّام الأولى بفائدة إعاقة حنّا، فالبطء الحركي كان يزيد من فاعليّة دقَّته، كما أنّ نومها الطويل يتيح له أخذ الوقت الكافي لإنجاز مهمَّته دون أن يوتِّرها أسلوبه اللَّقْلَقي في العمل. لم توجِّه له أيَّ ملاحظات بشأن الشاي، ونوعيّة الفطور، ونظافة المطبخ، وتأكَّدت من أن ألعابها القديمة معه تحت منضدة الطعام في بيت بتول بقلاوة هي من أكثر الذكريات رسوخاً في

رأسه، وخمَّنت أنّ هذا هو السبب الذي جعله ينتظرها أمام سينما إشبيلية مدّة تسع سنوات بلا يأس.

عرفت ياسمين مبكّراً أنّ حنّا لا يتكلَّم إلّا إذا تعارضت الظواهر التي تقع أمامه مع ما لقّنه إيّاه الأشخاص الذين عاش معهم وظنّ أنّهم يتكلَّمون بلسان الربّ، وأدركت من اليوم الأوّل أن حنّا لا علاقة له بالشمس، ولا يثمِّن الوقت أبداً، وباستطاعته أن يعتبر تناول الطعام بعد الثانية ظهراً فطوراً ما دام لم يسبقه شيء، كما أنّه لا يترك الأريكة بعد الثامنة صباحاً حتى تستيقظ ياسمين وتُعلن بسيرها الحافي أنّ اليوم قد بدأ.

في اليوم الثالث بدت منبهرة به لذلك كان لا بدَّ لها من سؤاله:

– هل فعلت كلَّ هذا من أجل الدنانير الثلاثة التي أعطيك إيّاها يوميّاً، أم لأنّك تؤمن بوجود الله؟

أخذ وقتاً قبل أن يقول لها إنّه لم يفهم السؤال، فعادت لتقول:

– أنت تستيقظ في السادسة، وتنظِّف البيت، وتعد الفطور. هل تفعل هذا لأنّني أعطيك ثلاثة دنانير، أم لأنّك تعتقد أنّ الربّان هرمز هو من أوصاك بالنزاهة والإخلاص؟

ردَّ باسترخاء:

– أفعل هذا لأنّك ياسمين.

وحين لم تقل شيئاً سألها:

– هل هذا هو الخير؟

– ماذا تعني؟

قال وهو ينظر إلى جهة المطبخ:

– الراهب جبرائيل كجو قال لي عندما تفعل الخير للناس، فإنّك لست بحاجة للذهاب إلى الكنيسة، أو اللجوء إلى جبل.

***

جانب الزقاق القريب من شارع الدوّاسة هو الأهدأ والمناسب لياسمين، فالأرمن الذين يجاورونها في السكن بلا أطفال، وكبار في السنّ، وغالبيتهم من النساء، كما أنّ وجود باب للخروج من السينما يطلُّ على الزقاق، لا يفتح إلّا إذا شُغلت كلّ المقاعد، كان يساعد ياسمين في تغيير توقيتاتها، وتجنّب مشقّة السير لمسافات طويلة. كانت تستخدم أربع محطات ثابتة في العمل، تناور بينها في

الذهاب والإياب، فإذا ما ركبت مع الزبون في سيّارته من مدخل مستشفى الحكمة للأطفال، فسيعيدها إلى مبنى المحكمة القديم في الدندان. وإذا ما ذهبت من مركز شباب الدوّاسة، فستعود إلى شارع مديريّة الشرطة لتواصل سيرها مشياً إلى البيت. أمّا إن كان الفيلم الذي تعرضه سينما حمورابي جديداً، والإقبال عليه شديداً، فإنّها تستخدم موقع أسواق الخيرو عند تقاطع السينما في الذهاب والإياب، فتتستّر بالزحام ولا ينتبه أحد إلى أنّها عادت بسيّارة خاصّة.

براعة حنّا في تنظيف البيت وتجهيز الطعام، سرعان ما ضعفت أهمّيتها إزاء فشله في التعامل مع التلفون، وفي تقدير الفرق بين أن تعود ياسمين إلى البيت قادمة من المحكمة، أو أن تبدأ يومها من مستشفى الحكمة. كان نظيف المظهر، وصحَّته جيّدة، وهذا ما دفعه إلى تجديد علاقاته مع الخطّاطين الآثوريين الذين ينتشرون قرب جامع النبي شيت، وفي قضاء وقت عديم الجدوى في مقهى قرطبة فوق سينما الأندلس، بينما ياسمين تنتظر أن يعود إليها بالخبز، وبعبوة صناعيّة من عصير البرتقال المركَّز ماركة نادر. حدَّدت له البقّالين والقصّابين والفاكهانيّين الذين يتعامل معهم في حدود الدوّاسة، إلّا أنّه كان يصل إلى شارع العدالة، ويجول في سوق هرج، ويجلس في مقهى المصريين في ساحة باب الطوب. أعطته إحدى ساعاتها كي يضعها في جيبه، لكنّه كان ينسى حمل دفتر الخدمة العسكريّة. كان لا يرى أنّه ارتكب حماقة، بينما ياسمين متوتّرة الأعصاب، وتستثقل كلَّ شيء فيه، وتراه يضيِّع عليها الراحة.

كانت منفعلة، وتهدِّده بأنّها ستطرده من البيت لأنّه نَسيَ شراء علبة معجون الطماطم. حينها فتح ذراعيه وهو واقف وقال لها بصوت مثلوم:

– لا أستطيع التفكير بك جيّداً إلّا إذا كنتُ في الشارع. حين أمشي بين الناس أستطيع أن أقول سأجعل ياسمين سعيدة.

سألته وهي ذابلة تماماً:

– هل الراهب جبرائيل كجو علَّمك قول هذا؟

أجاب بصلابة:

– الراهب علَّمني أن أستمع لصوت قلبي.

قالت:

– أنا قحبة رخيصة ولست قدّيسة يا حنّا.

قال وهو يسير إلى الباب الخارجي كي يذهب لجلب معجون الطماطم:

– الشـمس أكثرنا حاجةً إلى النور.

أبواب مفتوحة

شعرت ياسمين سريعاً بالطمأنينة، وأخذت تتيح لحنّا الفرصة ليكون ظلّاً متوافق الاتّجاهات مع حياتها اليوميّة. كان يتتبّع أفعالها مقترباً باستنتاجاته من الوضع الأمثل لراحتها. قلَّ الكلام بينهما، وشعرا معاً بأنّ شيئاً ليّناً، وسهلاً، يتشكَّل في الخفاء. لم تكن ياسمين تحبّ أن تفهم، ولكن تتمنّى العيش بأقلّ قدرٍ من الجهد. حافظ حنّا على الاسترخاء البيتي، وحقَّق نجاحاً طيّباً في دقّة التوقُّعات، فكان يحدِّد لها مسار الذهاب والعودة، باتّفاقات يعقدها مع الزبائن عبر التلفون، معتمداً، في كثير من الأحيان، على توقُّعاته الشخصيّة في تقدير نجاح أفلام سينما حمورابي، وفي تحديد المزاج العام للشوارع. لم يعد يخرج من البيت بدافع الشوق إلى أماكنه الأليفة، بل لأنّ ذلك يجعل ياسمين راضية، وأقلَّ توتّراً. يتجنَّب الأزقّة والشوارع الأقلّ حياة، ويقصد الأماكن الصحيحة التي يتصرَّف فيها الناس بتذمُّرٍ وملل، فيذهب يوميّاً إلى ساحة صقور الحضر ليرى اللافتات السوداء الجديدة التي تنعى جنوداً قُتلوا في الحرب، ثمَّ يعود عبر شارع العدالة إلى ساحة المتحف ليقابل مبنى البلديّة، وحدبة جسر الحريّة، بحثاً عن لافتات بيضاء لشعارات يخطُّها حزب البعث تنبئ بمناسبات الأسبوع. كان حنّا أكثر جديّة من ياسمين، وحساباته، وإن جاءت أحياناً متكلّفة وغير مهمّة، جعلته يُعجب بنفسه، ويعتقد لأوَّل مرّة في حياته أنّه ذكيّ، ويختلف تماماً عن جَجّو. اكتسب، دون أن ينتبه، حنكة القوّاد المحترم. وصار بإمكانه إظهار تعابير الثقة بالنفس دون الإفصاح عن إجراءاته. كان يعلم ماذا ستعرض سينما حمورابي من أفلام لشهرين مقبلين، واستطاع بنظافة ملبسه، وسلوكه الورع، كسب ودِّ مدير السينما،

والعاملين فيها، وتوصّل بمثابرة احتياليّة، إلى تكوين تصوُّرات عن الشباب في الطرف البعيد من الزقاق، وكيف ينظرون إلى ياسمين. اختلق قصّة أنّه مكلَّف بخدمتها من قبل عمِّها العسكري الذي برتبة عميد ركن، وأنّها تعمل في ديوان المحافظة، وانتقلت للسكن في الدوّاسة بعد مقتل كلِّ أفراد أسرتها في غارة للطائرات الإيرانيّة كانت تستهدف المطار العسكري، وأصابت أربعة بيوت في حيّ الطيران. لم يبلّغ ياسمين بهذه القصّة، كما لم يخبرها بتواصله مع تريزا وبموعده، كلَّ يوم أحد، مع وارينا بباب سينما إشبيلية كي يعطيها نصف دخله الأسبوعي. كان يؤمن بأنّ ياسمين تساعد الجيش على الانتصار، ومشاغلها أهمُّ وأعمق منه، ومن أسرته التافهة.

***

كانت الوجوه القديمة كثيراً ما تنبثق من خبايا ذاكرة حنّا. وجوه كالحة ومتشنِّجة وأغلبها من دير الربّان هرمز. تتقافز، أو تحدث فرقعة تخويفيّة ثمَّ تملأ شباك ذهنه كدُمى بلاستيكيّة مضحكة. أحياناً تزعجه فيتحرَّك لصق حائط الصور التراثيّة مثل جرذ خائف. ظنّ أنّ يقظته باتت تشبه نومه، ولكنّ الطمأنينة كانت لا تلبث أن تراوده مجدَّداً حين تتحدَّث ياسمين عن التعب. كان يحبّ أن يسمعها تتكلَّم، وتشرح، وتخبره بكلِّ ما تعرف. أخفى عنها أنّه لا يفهم كلام الرئيس صدّام حسين حين يظهر يوميّاً على التلفزيون مقلِّداً الضبّاط أنواط الشجاعة، ومتحدِّثاً بلهجة قرويّة عن البطولات لساعتين. يرزم نفسه في طرف الأريكة طاوياً ساقيه ومنكمشاً كخفّاش منتظراً أن تتكلَّم ياسمين كي يسألها إن كان أخبرها أنّ صدام حسين يعرفه جيّداً، وأعفاه من الخدمة العسكريّة، وكتب اسمه بخطِّ يده. وحين تردّ بأنّها تعرف القصّة لا يستطيع السيطرة على شفتيه، فيتكلَّم بلا صوت إلى أن تنفد كلُّ الصور في رأسه.

كانت ياسمين تشكُّ في أن حنّا يدرك حقيقة عملها، ولم تكن تعرف إن كان هذا يفيدها في مسألة السريّة أم يزعج فيها حاجتها إلى التعاطُف. كانت تجهل أين تكمن محاسنه السليمة، وكان حنّا غير متيقِّن من الأشياء الجيّدة في حياته الجديدة، ولكنّه حين يذهب لمقابلة وارينا بباب سينما إشبيلية يشعر بالفرق الهائل بينه الآن، وبين ما كان يعتقد أنّه الانتماء الأسري. أخذت ياسمين تستثقل الأوقات التي لا يداهمها فيها النعاس، بينما حنّا يشعر بالتيه إذا ما بقي بمفرده في البيت برفقة صور الماضي التي على الجدار. كانا يتبادلان أسئلة بلا إجابات.

تسأله ياسمين إن كان يحتقر العاهرات بينما حنّا يسألها إن كانت تعارض ذهابه إلى قدّاس الأحد. حين يطلب الإذن منها تتأكَّد من أنّه لا يعرف حقيقة عملها، وحين يُذكِّرها بموعدها الشهري مع الطبيبة النسائيّة وهبية الساعاتي ترى أنّه بدأ يبدع في القوادة.

في تموز من عام 1987 كثرت ملاحظات ياسمين وأوامرها، وبات حنّا يقضي وقتاً طويلاً في المطبخ، يصنع الشاي، ويلبّي طلباتها، ويذهب مرارا إلى السوق، ويحقِّق نزوات معدتها في ساعات متأخِّرة من الليل، وأخذ يتردَّد على بار السندباد الذي قبالة ركن مطعم كويسنجق ليستبدل قناني البيرة الفارغة بأخرى مليئة. اكتشف حنّا أنّ عمل ياسمين يفوق الاتّصالات الهاتفيّة التي يتلقّاها، ويراها مهمومة، وتفكِّر بأشياء بعيدة عن حياتهما معاً. كانا في الليل يظهران وكأنّهما بحاجة إلى نجدة ما. ينقصهما النضج، ويشعران بقلق مبهم. لم تكترث ياسمين بالارتباك الذي يعوم فيه حنّا وهو يراها غير ملتزمة بالتوقيتات، وتخون زمنه. كانت منهكة وغير قادرة على التهوين من بشاعة الوجوه الديريّة التي يراها حنّا في صحوه ومنامه. تثور فجأةً، تعاقبه بقسوة، وتشتمه كثيراً. تأكل بشراهة لفترة، وتسرف في شرب البيرة لأيّام متتالية.

تعمَّقت ياسمين في التيه، وتخلّى عنها الحسُّ. تدخل البيت، صفراء الوجه، وغير قادرة على رؤية ما حولها. تجول كشبح أعمى، وتتردَّد في سيرها وكأنّها هائمة في صحراء. ومع بداية آب، أخذت تترك كلَّ الأبواب مفتوحة. تخلع ملابسها، وتقف ساكنة تحت الدوش إلى أن تنتفش عظامها. تسير عاريةً إلى غرفتها ثمَّ تجلس إلى مرآة منضدة الزينة وهي متقاطعة الأطراف. تبقى مشلولة بالضياع إلى ما قبل منتصف الليل، فيعود إليها وعيها بالتدريج، وهي غير متيقِّنة ممّا فعلت.

صُدِمَ حنّا بِعُري ياسمين، واحتاج إلى أيّام عدّة كي ينتبه إلى الأشياء الكثيرة التي تعرَّت أيضاً في البيت. كان يضطرّ إلى تفقّدها بين الحين والآخر وهي تحت الدوش مطرقة الرأس، وشعرها الكستنائي ملتصق برقبتها الطويلة، بينما قطرات الماء تتقافز من منصّة حلمة ثديها البيضوي، وتنعقد متساقطة من منحدر مؤخرتها. في الأيّام الأولى أخذ يشغل نفسه بالمطبخ، أو يهرب إلى غرفته ويتنصَّت، ولكنّ الوقت الطويل الذي يستمرُّ فيه ماء الدوش بالتدفُّق، وسُعالها، ونوبات نحيبها، يدفعه لتفقّدها ودمه يتبخَّر، وكلُّه يهتزُّ من شدّة عنف ضربات

قلبه. كان وجودها في الحمام، والباب مفتوح، أقسى عليه من ظهورها المشوَّش، متنقّلةً بعُريها الواضح بين غرفتها والمطبخ، وهي ناشفة، ولامعة، وواضحة، ومفتوحة كليّاً لعينيه.

تتوقَّف لتسأله:

– هل جلبت لي عصير البرتقال؟

يركِّز نظره على عانتها الناصعة، ونقطة الظلِّ أعلى شفتي مهبلها، ويقول بصوت أجشّ:

– إنّه في الثلاجة.

تسأله مجدَّداً:

– كم تريد من نقود؟

– ستّة دنانير.

– خُذْ من جزداني ما تريد.

لم يكن يعثر على أيِّ ورقة نقديّة فئة الدينار، ولا على فئات معدنيّة. كان يتلمّس في كلِّ مرّة نقوداً تعادل راتباً شهريّاً لضابط برتبة نقيب، وبفئتي خمسة وعشرة دنانير. كانت لا تفرغ جزدانها إلّا بعد أن يمتلئ تماماً. تضعه تحت وسادتها دائماً، ولا تحاسبه أبداً على مصروف البيت، أو ما بقي منه. يطلب منها ما يشاء ويودع الفائض في علبة معدنيّة أسطوانيّة تعود لماركة بخور هندي يضعها في الدرج السفلي ببطن الثلّاجة. لم تسأله عن حبّه لتبريد النقود، فمنذ أن اكتشفت المخبأ، وهي واثقة تماماً من حرصه، ونزاهته، وخوفه على مالها.

قالت له يوماً وهي معجبة بنظافته:

– كلُّ العاهرات، كما تقول أمّي، صادفنَ رجالاً تطوَّعوا للعناية بهنَّ.

وقتها فكَّر طويلاً بكلامها، وقال لها في اليوم التالي:

– الرجال يتطوَّعون في الجيش الشعبي خوفاً من الإعدام، ويتطوَّعون للعناية بالعاهرات شغفاً بالحبّ.

كان حنّا يتبدَّل. عاد شيئاً فشيئاً إلى ما قبل دير الربّان هرمز. لم يعد يتذكَّر الراهب جبرائيل كجو، ويصحو يوميّاً على كابوس أنّه يُضاجع ياسمين بعنف غير مبرَّر. بات ينتهز شعورها بالتيه ليكون أكثر قُرباً منها، وأقدر على التمعُّن في عُريها المسائيِّ، واكتشف أنّه يزداد سخونةً حين ترتدي ثيابها قبل النوم. لم تنتبه ياسمين إلى الأنفاس الشرّيرة التي كانت تفوح منه حين يدعوها

لمشاهدة فيلم السهرة. كان ينظر إلى مذيعات القناة الأولى في التلفزيون وهو في حالة انتشاء. والأمر نفسه يحدث معه في الشارع، فأيُّ امرأة يراها أمامه لا بدَّ من أن يبتسم لها بخبث باعتباره رأى كلَّ شيء، ويعرف كلَّ الأسرار. وحين يشفُّ ثوب ياسمين عن حدود كيلوتها وسوتيانها، فهو يعرف الحجم الحقيقي لثدييها، والارتخاء الطبيعي لمؤخّرتها وهي بلا ثياب. صار له خيال ومعرفة، ويشعر بأنّه مقبل على خطوة امتلاكها. لم يكن يمنع نفسه من توفير الفراغ اللازم لتمدُّد عضوه وهو على الأريكة يتابع نشرة أخبار الثامنة. يترقَّب ظهور ياسمين في عُري اللحظات الأخيرة، ومزاجها يهفو إلى الشاي. لم يعد يخشى من انتصاب عضوه ليقينه أنّ ياسمين لا تعدّ ذلك شيئاً غريباً. كان يفكِّر جدّياً بالهجوم عليها، ولكنّها بين الحين والآخر تُظهر حناناً يجعله يرجع سريعاً إلى مُثُله العليا، أو يعيد النظر في ما ينتويه. لقد رأى في مصادفات قدريّة شيئاً من عُري وارينا، ويتذكَّرها وهي طفلة تصرخ عاريةً، حتى إنّه كثيراً ما دقَّق في ضخامة مؤخّرة سيتا زوجة الفاضل نوئيل يلدا السادس. كان يتعذَّب بالخبرة العشوائيّة التي عليه أن يُصْدَم بها قبل أن تكون له امرأة خاصّة به، ودائماً ما يأتيه السؤال المحيِّر: كيف اتّفق الجميع على عدم اشتهاء نساء الدم الواحد. كان باب الحمّام المفتوح يبعثره، وحين يرى ياسمين تقضي حاجتها، وهي مستسلمة لقدرها الإنساني، يتمنّى لو يعتذر ليسوع، ويعيش عارياً.

يقول، وهو يكافح انتصاب عضوه:

– غداً العرض الأوّل لفيلم «سلام يا صاحبي».

ولكنّها تسأله بصوت قلق:

– هل انتهت الحرب؟

يردّ مدارياً تمدُّداته:

– لم تنتهِ بعد، ولكن يقولون إنّ الفيلم غير مضحك.

أخذ حنّا يفكِّر بالشتاء، وأخبرها أنّ عليهما استبدال سخّان فاير كنك الذي يعمل بالكيروسين بآخر كهربائي. كان يسألها بين الحين والآخر إن كانت تشعر بالبرد، ولكنّها لم تكن مبالية، وأجوبتها تُحيِّره. فكَّر أنّه إذا ما حافظ على دفء البيت، يمكنها أن تتعرّى في الشتاء أيضاً، وخطَّط لشراء مدْفَأة حمّام كهربائيّة.

يسألها مراراً:

– هل أنت مرتاحة؟

لم تكن تفهم قصده، وتجيبه بابتسامة ساخرة، أو بدمعتين سريعتين. وحين تأتيها الدورة الشهريّة، ينتبه حنّا إلى نفسه، ويحزن لأنّه فكَّر بياسمين مثل وَثَني. تظهر بكيلوت وسوتيان أسودين، وتبقى طويلاً في المطبخ لغلي زهرات البيبون، أو لصنع الشاي. تُعيد غسل الصحون وأدوات المطبخ حتى لو لم تُستَعمل، وتقول لحنّا إنّها تكره رائحتها. تُرسله إلى السوق حين تتذكَّر عادات أمّها القديمة، وتطلب منه حثَّ صاحب سينما حمورابي على عرض أفلام فيها عصابات شرسة تستخدم المسدَّسات، وتطلق النار بكثرة. بقيت لشهر تسأله بتكرار عن السبب الذي جعل فيلم «سلام يا صاحبي» غير مضحك. لم يكن حنّا يحبّ الأسئلة التي تحتاج منه إلى رأي، كما لا يحبّ مشاهدة الأفلام العربيّة الملوَّنة. تهرَّب منها كثيراً ريثما يعود مدير السينما في إجازته الدوريّة من الجيش الشعبي ليسأله. كانت ياسمين قد نسيت الأمر مع بداية شهر أيلول حين رجع إلى البيت وأغلق الباب بظهره قائلاً لها:

– عادل إمام في فيلم «سلام يا صاحبي» يظهر بدورٍ جادٍّ، لذلك هو غير مضحك.

نظرت إليه طويلاً قبل أن تسأله بحزن:

– أنا لست جادّة، فلماذا لا أستطيع أن أضحك؟

قال وروحه تتوجَّع:

– لو كنّا نستطيع الضحك، لما خلق الله عادل إمام.

***

استمرَّت ياسمين على الخروج من البيت بسِحنة شمعيّة ميتة، والعودة بوجهٍ ليمونيٍّ قلق. كان حنّا يودِّعها ويتلقّاها بعواطف أسريّة صافية، فلا سُكارى يطرقون الباب ليلاً كما كان يحدث في زقاق بتول بقلاوة، ولا أحد يُطلق النار على السماء لترويع المضاجعات، والضبّاط الذين يتّصلون هاتفيّاً يتحدَّثون معه بحذر، خوفاً من التنصُّت، ويتمهَّلون وكأنَّهم يصغون إلى شفرة مورس. وما عدا انتكاسات الخوف التي تحطُّ على رأسه من فكرة موتها المتوقَّعة تحت الدوش، بات شديد الترقُّب لما يمكن لياسمين أن تمنحه إيّاه وهي في دوّامة غثيانها من الحياة.

لم تكن تلك الانقطاعات عن الوعي تحدث بوتيرة واحدة كما أنّ حنّا لم يكن يتمتَّع بانتهازيّته على الدوام، فياسمين إمّا متخشّبة ومعدومة الحسّ، وتبدو في طقوس حمّامها غير مكترثة بأحد، أو أن ينتهك الحزن روحها، ويتكثَّف الأسى في

قلبها، وتذوّبها شلّالات البكاء. كانت حين يعصرها الأذى تستر نفسها بالمنشفة، ومتى ما شعرت بأنها محلِّقة في السماء تخرج من الحمّام بمائها فقط، وكان حنّا يعاني في الحالتين، فيعيش ملتوياً بتصوُّراته الماجنة، وينكبس ألماً وتوجُّعاً عليها.

ظنّ حنّا أنّ ياسمين غير منتبهة لتلصُّصه، وتحويراته الاستمتاعيّة. كان موقع الأريكة يتقاطع مع مكان التلفزيون الموضوع وسط هيكل خشبيٍّ على جانب المطبخ، وبما أنّ حنّا لم يغيِّر مكان جلوسه على الأريكة جهة قنطرة الباب فكان التلفزيون، وهو مفتوح، يجبره على النظر بعكس اتجاه باب الحمّام، كما أنّ جلوسهما معاً على الأريكة لا يتيح له رؤية ياسمين التي تأخذ مكانها في الطرف البعيد عن بصره لذلك توقَّف عن فتح التلفزيون بعد انتهاء عمل ياسمين، وحافظ على جلسته الخفاشيّة، ومراقبته للحمّام.

مرّة، استغلّت ياسمين تمتُّعها بوعيها الكامل، وقالت له:

– علينا أن نستبدل أماكن جلوسنا على الأريكة كي تستطيع رؤيتي وأنت تتابع برامج التلفزيون معي.

ويوم اكتشفت أنّ قطعاً من ملابسها الداخليّة تختفي لفترة ثمَّ تظهر، جرَّته من شحمة أذنه إلى خزانة ملابسها وقالت بعصبيّة:

– اطلبها منّي ولا تسرقها.

أجلسته بجوارها على السرير وذراعها على كتفه، وقالت له بعد أن هدأ تنفُّسها:

– أنا توتّرت لأنّك لا تفرّق بين ملابس العمل الداخليّة، وبين تلك التي تعلق فيها رائحتي الحقيقيّة حين أرتديها وأنا معك في البيت.

ولكي تراضيه بعدها، تركت له مهمّة غسل ملابسها، وأخذت تعزل له ما ترتديه أثناء العمل في سلّة صفراء، وتودع ملابسها البيتيّة في أخرى بيضاء.

***

كان حنّا يُعيد ياسمين إلى الواقع بإخبارها أنّه دفع فاتورة الكهرباء، وسيذهب في الغد لدفع فاتورة التلفون. تقول له وعلى وجهها علامات القلق:

– لديَّ الكثير من النقود في خزانة ملابسي. هل يجب أن نفتح حساباً في البنك؟

يسألها وهو يشبه فزّاعة طيور:

– وكيف نفعل ذلك؟

تردُّ فاتحةً عينيها باتساع مثل دُمْية:

– لا أعرف.

لم ينقطع حنّا، طوال الفترة التي أخذت ياسمين تتعرَّى فيها، عن تخيُّل تريزا تكسر باب البيت، وتسحله إلى حيّ الميّاسة. كان يظنّ أن لا شيء هنا يتسلَّح بالجديّة، وعادت من جديد وجوه دير الربّان هرمز للظهور له، ولكن هذه المرّة بأشكال سينمائيّة بشعة، بينما كانت ياسمين على العكس منه، تشعر بالطمأنينة، وتتوقَّع أن تستمرَّ حياتها مع حنّا إلى الأبد. كان مثل طفل جيّد التغذية، ومطيع، ولا يرتكب الكثير من الحماقات، والشيء الجميل فيه أنّه بلا نوبات عصبيّة، وعاهته أمينة. لا يمرض، ولا يحبّ الحركة، ولا يقف في مساراتها، ويمكنه النهوض من فراشه بسرعة مثل جندي. كانت ياسمين تستيقظ من غيبوبتها على حرارة حلم أنّ حنّا أخذها إلى غرفتها وهو يعتصرها بين ذراعيه، كما حلمت به وقد تزوَّجها. وقتها انتبهت إلى زيّ الغرسون الذي يرتديه في البيت على الدوام. اشترت له بدلة رياضيّة فوسفوريّة الألوان، وطلبت منه أن يزيل الشعر تحت إبطيه، وبدأت تضع الميك آب حين تكون صافية، ومشدودة للسلاسة التي تعيشها مع حنّا، وصارت تتمنّى ألّا تثير قلقه وخوفه عليها، وطال عليها في الصباح خدر النعاس، وكثرت ابتساماتها وهما يتناولان فطورهما معاً. كانت تلك العناقات غير الكاملة التي تحدث حين يخرجها من الحمّام بطلب منها تُيبِّس جِلْدَ حنّا، وتُخرِّب قواه، ويُصاب على إثرها بفشل عضليّ. أحياناً لا تجيد لفَّ نفسها بالمناشف، وتشكو من عدم قدرتها على التحكُّم بأصابعها، فيضطرّ إلى مسكها من خصرها وتحريك قاعدة استنادها بينما هي مستسلمة ومرتمية عليه. يقوم بنجدتها وهو نزيه مثل كُرّاسة تعليمات الدفاع المدني. يُخليها باستشعار كامل للخطر، ويقطع المسافة بين الحمّام وغرفتها بالسرعة الممكنة. يجلسها على سريرها دون أن يقوى على النظر إليها ثمَّ يخرج ليلتقط أنفاسه.

وهو على الأريكة يشعر حنّا بالعطش، عاجزاً عن القيام بأيِّ حركة. لا شيء حيٌّ في البيت سوى تنفُّس الحمّام، وتوتّرات الهواء في دوران مروحة السقف. في الدقائق الأولى يعاني من الاحتقانات نفسها التي كانت تنتابه أيّام تسكُّعه في الأسواق قبل أن يظهر عليه السلُّ. يتملّكه الضيق من أنّه فعل شيئاً لم يكن عليه فعله، واستسلم لشيءٍ كان يمكنه رفضه. كانت تلك اللحظات من أصفى

ما يواجهه حنّا، ويستطيع من خلالها فهم ما يحدث له. يتمكَّن من معرفة لماذا هو الآن مع ياسمين، ولماذا العالم خارج هذا البيت يختلف تماماً؟

تخرج ياسمين من غرفتها وقد استعادت نفسها. تجلس بجواره على الأريكة وهي بثوب محتشم، وتُقَلِّده بجلسته الخفاشيّة:

– هل فكَّرت في العشاء؟

يقول وهو ينظر إلى الصور التراثيّة التي على الحائط المقابل:

– لدينا بطاطا، وطماطم، ونصف كيلو لحم مفروم، وستّ بيضات.

تسأله:

– والخبز؟

– موجود.

تنظر مثله إلى حائط الصور ثمَّ تقول:

– أنزل ساقك يا حنّا، أريد وضع رأسي عليها.

وحين يستجيب، تعود لتقول:

– مسّد شعري بأصابعك حتى أنام.

كأس بعشيقة

كان الوقت منتصف الظهيرة حين وقفت وارينا أمام حنّا مرتبكة. لم تنظر في عينيه وهي تأخذ منه النقود. بدت رمليّة، وهزيلة بفستانها البرتقالي الطويل، بينما شعرها غير مسرَّح، وصندلها الأبيض بقياس كبير.

سألها، وهو يمسح العرق عن جبينه:

– هل يراقبنا قرياقوس؟

ردَّت وأصابعها تضغط على النقود:

– هو يفعل هذا منذ أكثر من شهر، ولكن اليوم العم نوئيل جاء معي. إنّه يتفرَّج على صور الأفلام داخل السينما.

رفع حنّا رأسه فشاهد الفاضل نوئيل يلدا السادس يسرع الخطى باتّجاههما خارجاً من عمق سينما إشبيلية ببدلة سوداء بلا ياقة. أزاح وارينا، وعانقه بفرح. قبض على ذراعه ثمَّ تراجع خطوة، وقال وهو يمسحه بعينيه من قدميه إلى شعره الكثِّ:

– تبدو بصحّة جيّدة، ورائحتك طيّبة...

ثمَّ استدرك بمرح:

– أنا أحبّ الممثِّل جوليانو جيما.. أحياناً أذهب إلى السينما بدون علم سيتا.. إنّه فيلم مسدَّس لرينغو. عليك مشاهدته يا حنّا.

التفت إلى وارينا وقال بملامح منقبضة، وصوت ناشف:

– سيعيدك قرياقوس إلى البيت.

انتابت حنّا غصّة هوائيّة وهو يستدير متابعاً وارينا التي عبرت شارع الدوّاسة متفادية السيّارات بحركات على الجانبين وكأنّها معلَّقة بشيش الفوسبول [1]. كان قرياقوس يقف في ركن سينما غرناطة متخصِّراً، وعلى وجهه ابتسامة هازئة. تبادل مع حنّا تلويحة غير عاطفيّة تشبه تصويب رمية حُرّة لكرة السلّة. شاهد الفاضل نوئيل سيّارة جيب عسكريّة مكشوفة نوع واز تقف على الجانب الآخر قبالة مطعم الشباب، ترجَّل منها ثلاثة جنود من الانضباط العسكري طوال القامة بنطاقات جلديّة بيضاء وبيريّات حمراء. أشار لقرياقوس بأصابعه أن يسلك مع وارينا طريق كنيسة أمّ المعونة، ثمَّ اقترح هامساً لحنّا أن يجلسا في مقهى عبّود بقيصريّة الآثوريين.

تعالت أصوات منبِّهات السيّارات، وتسارعت خطى المارّة. ردَّ حنّا بهَمْهَمة على تحيّة بائع جرائد جوّال، وهو مرتبك لأنّ زحام الرصيف لا يتيح فراغاً مناسباً لمشيته. تمهَّل نوئيل حتّى تمكَّن حنّا من الهبوط على الاسفلت والتقدُّم في الشارع المجاور للسينما. أراد أن يكون خفيفاً، فقال إنّ الناس غير معتادين رؤية رجل دين يدخل إلى السينما. وحكى كيف أنّه لم ينتبه لوجود بعض الصور الخليعة لصوفي مارسو تعود لفيلم سيُعرض الاثنين المقبل. ظهرت ياسمين عاريةً لحنّا من جوهر ذاته، فقال لنفسه إنّه لا يحتاج إلى صور من ورق. تباعدا لمرور صِبْية يرتدون زيَّ الطلائع العسكري الأزرق، يسيرون بتقارُب خلف مدرّب أربعيني قصير ببدلة رياضيّة عليها شعار نادي الجيش. عاد نوئيل يلدا لغلق الفراغ بينهما قائلاً:

– ملابسي ليست غالية مثل ملابس القساوسة الحقيقيّين لهذا هي تسبِّب لي الحَكّة. سيتا تدهنني بالمراهم دائماً، ولكن حتّى لو كان رداء الربّ رخيصاً، فالأمر لا يخلو أبداً من فائدة يا حنّا. الناس يعبّرون لي عن احترامهم وتبجيلهم. عليك أن تراني وأنا أتسوّق. أنال الأفضل دائماً مع حسم بالأسعار. الناس يحبّون مسح أيديهم بملابسنا الدينيّة.

قال حنّا بأنفاس لاهثة وهو خلفه يصارع الهواء بذراعيه:

– الناس كانوا يرمون جَجّو بالحجارة ويسخرون منه، وحدها عفيفة إسكندر التي قبَّلت يده.

ظهر الهمُّ على ملامح الفاضل. سحب حنّا إليه ليبعده عن مسار سيّارة أجرة أتت من الخلف، ثمَّ قال حين خفَّ الضجيج:

– هذا ما يحدث للقدّيسين.. مأساتنا البشريّة كبيرة، وشفقتنا على أنفسنا توقعنا في الآثام.. المؤمنون أكثر قلقاً من الملْحِدين. المطران يتمنّى لو أنه يرى شبحاً يعود لمطران سابق كي يخرس استغاثات بشريّته، ويقول لنفسه لقد فعلت الصواب ولم أخسر دنيويّتي.. جَجّو رأى يوليانا. ظهرت له بإرادة أعجوبتها. لقد التقى بالحقيقة التي لا نملك أيَّ إثبات لها، ومات وهو سعيد.

شعر حنّا بألم في رُكْبَتِه اليسرى وهو يطأ الرصيف. ربّت الفاضل نوئيل ظهره، وقال ضاحكاً:

– لو رأتك تريزا لظنّت أنّ جَجّو قام من الموت.

كانت قيصريّة الآثوريين هيكلاً إسمنتيّاً متيناً ينفتح على شارعين من جهتي الجنوب والشمال ويحتوي في الداخل على فضاء مربَّع، وقد صمَّمته البلديّة ليكون سوقاً لبيع اللحوم بأنواعها، ولكنّها تراجعت عن ذلك حين وجدت أنّ الخطّاطين في الدوّاسة أكثر بكثير من القصّابين، ومهنة الخطِّ والإعلانات الضوئيّة تتطابق مع قدرة البناء الصحيّة والفنيّة، ورذاذ الدهان، وروائح الألوان يمكنها الصعود إلى السماء بلا ضرر بيئي.

استقبلهما عبّود بحفاوة. عانق حنّا وقاده إلى مكان يصله هواء المكيّف. أخرج قطعة قماش جديدة، ومسح بها المنضدة التي تكسوها طبقة من الفورمايكا. كانت جدران المقهى مزدحمة بتشكيلات خطّيّة، وآيات قرآنيّة موقَّعة من كليانا، وريمون، وفي الصدر صورة تقريبيّة لرأس رئيس الجمهوريّة، مُشَكَّلة من الحروف العربيّة، متماثلة بالحجم مع أخرى واقعيّة تظهر صدّام حسين جالساً على الأرض بزيّه العسكري، وبيده استكان الشاي.

انتظر الفاضل نوئيل يلدا السادس انتظام تنفُّس حنّا، وقال بمظهر جادٍّ:

– أبلحد يريد أن يراك.. عليك الذهاب إلى كرمليس.

تشنَّج وجه حنّا، وتعسَّر عليه الكلام. أمسك الفاضل بذراعه، وقال بصوت شفّاف:

– لا تقلق... أبلحد يحبّك كثيراً، وهو لا يعلم بأمر ياسمين... في الحقيقة أنا أخبرته، ولكنّه غير مهتمّ للأمر. يسوع فقط من لا يكذب... تريزا تظنّ أنّك تعمل في فندق آشور، وهذا يريحها ويجعلها مطمئنة. لا أريدك أن تضطرب وتشعر بالخوف من ظهوري. أنا أتفهَّم الأمور. لقد كنتُ أتابعك وأعرف أخبارك حتى قبل أن يجدك

قرياقوس. حين نسير في درب متطلّبات الرجولة يصبح الحرص التربوي قضيّة ثانويّة، لذلك فضَّلت البقاء بعيداً كي لا تكرهني.

سأله حنّا وهو راكد:

– ماذا يريد أبلحد؟

فرش الفاضل أصابعه على المنضدة، وراح ينظر إليها:

– أعتقد أنّه يفكِّر في تصحيح بعض الأمور. هو في الثالثة والسبعين الآن. في هذا العمر تتدخَّل الحكمة.

تشتَّتت نظرات حنّا، وهو يشرب الشاي، فسأله نوئيل ليعيده إليه:

– ياسمين تعطيك أجراً على خدماتك أليس كذلك؟

ردَّ بارتباك، وهو ينظر إلى باطن يده اليمنى:

– تريزا تريد نقوداً لأنّها أمّي.

مال رأس الفاضل وهو يتأمّله بخيبة، أخذت ملامح وجهه المربّع تحتدّ بالوقار. بدا غير متيقِّن من قدرته على التوفيق بين شفقته الفطريّة، وسخافات القدر، فهو أيضا يتلقّى أجراً من أبلحد، بينما سيتا تخزن في أعماقها شكوكها في وجود عشق قديم بين زوجها وأرملة جَجّو.

طلب الفاضل المزيد من الشاي وهو يقول:

– لستَ بحاجة إلى هذا الذلِّ يا حنّا.

عاد حنّا ليكرِّر سؤاله:

– ماذا يريد أبلحد؟

أرجع الفاضل ظهره دون أن يفقد ملامسته للمنضدة. شعر للحظة بالغثيان من جبنه الحياتي، فقد انتمى مبكّراً لهذا الخنوع بلا أيِّ سبب مقنع، وما يحزنه الآن أنه بلغ الستين من العمر دون أن يتنازل عن الجديّة في العيش من أجل جَجّو وعائلته. كانت سيتا تتربَّص بقناعاته الوجدانيّة، وتستغلّ وهنه العاطفي لتصدمه بحقيقة أنّه ليس أكثر من خادم أدمن المهانة. تلك هي طريقتها لاستدراج الاعترافات. كان يتقبَّل منها ذلك بالبسالة نفسها التي قاوم بها توبيخه لنفسه طوال عقود، فهو لم يعرف أبداً أيَّ خيارات مضمونة للحياة، ومنذ أن فقد خصيته لم ينجده الحظُّ للعيش بكرامة وباحترام لائق.

انقلب هدوء المقهى بدخول ريمون الخطّاط مع اثنين من زبائنه. صافح نوئيل بحرارة وأثنى بخبث على أناقة حنّا الذي فتح فمه وراح ينظر بإعجاب إلى شكل

ريمون بشعره الطويل الملامس لكتفيه، وقميصه الهاواي الأزرق، والبنطلون الكتّان البيج مع الحذاء الرياضي الأبيض. لم تكن الفكرة مكتملة في رأسه ولكنّه قال:

– المسيحيّون هم الأكثر أناقةً في الموصل.

ردَّ الفاضل بصوت خامل:

– أنت تجعلني أحزن على نفسي.

بدا حنّا بارتخائه العضلي، وبزيّ الغرسون، غير مناسب لألوان المقهى. استردَّ الفاضل نوئيل إرادة الحزم، وقال بلا مراوغة:

– أبلحد يريدك لشأن يخصُّ ضميره، فهذا هو موسمه العاطفي. أنا لا أعرف ماذا يدور برأسه، ولكنّني واثق من جنونه.

عاد حنّا لينظر إلى ريمون بفمٍ مفتوح، فضغط الفاضل على عضلة ساعده قائلاً:

– هل تعلم أنّك تملك بيتاً في كرمليس، وبستان زيتون في ترجلة مع أموال كثيرة تركتها لك روز؟ هذا ما عدا بيت الميّاسة، وأشياء أخرى تخفيها تريزا. لا يجب عليك أن تعمل غرسوناً أو قوّاداً. أنت ثريٌّ يا حنّا، وبإمكانك أن تكون الرجل الذي تريد.

انكمشت ملامح حنّا، وبان بلون الطحينيّة، فعاد نوئيل ليصعد بانفعاله:

– انظر إليَّ... أنا كاهنٌ مزيّف. يسوع لن ينظر في وجهي حين نلتقي... سيحتقرني ويقول لماذا لبست ثيابي وأنت تكذب. قد يغيّر رأيه حين أقول له أنا أرتدي هذه الثياب لأن الإنسان لا يندم أبداً على حبّه لله. لقد بقيت ألعب كرة القدم في الشوارع إلى أن فقدت خصيتي، وكنت وقتها في العشرين، ضحَّيت بهيبة الرجولة رغم أنّ كرمليس لم تفز ببطولة الأقضية والنواحي قطّ. رفضت البقاء في المستشفى فحملوني كي أحضر المباراة النهائيّة بين كرمليس وبعشيقة. كنت أجلس على تَنْكة متوجِّعاً ومتفجِّعاً. هزمونا برباعيّة قاسية، وبينما كنت أبكي على ضياع المجد أراد كابتن فريق بعشيقة رفع الكأس فسقطت قاعدتها الخشبيّة وسط دهشة الجميع وخيبتهم. حاول طاقم التحكيم إصلاح الكأس، إلّا أنّ محاولتهم باءت بالفشل، كان أتعس يوم في تاريخ ناحية بعشيقة، وأعتقد أنّهم في ذلك اليوم شربوا كلَّ العرق الذي صنعوه، ولم يصدِّروا

قطرة واحدة... ما قيمة الفوز إذا كانت كأسُكَ مكسورةً؟ ما قيمة حياتك بلا أحلام؟... أخشى ألّا تسأل نفسك بعد فوات الأوان لماذا عشت قوّاداً وغرسوناً...

سأله حنّا:

– هل ستأتي معي إلى كرمليس؟

نظر الفاضل إلى ريمون وقال بخمول:

– نعم.

***

بَقيَ حنّا يعاني الحيرة مدّة ساعة، وحين لم تذكر تريزا أبلحد قرَّر مع نفسه ألّا يخبرها بأمر ذهابه إلى كرمليس. أكل الباميا‌ء التي طبختها أمّه بصمت، ولكنّه ابتسم كثيراً لوارينا التي بدت سعيدة بوجوده في بيت الميّاسة. كانت البلاطات والجدران الرخاميّة الزرقاء لامعة، وتدور فيها نسمة باردة، لكنّ ذلك لم يحرِّك في أعماق حنّا الحنين، فذكرى خيبته الأسريّة مع مرض السلِّ هي الأقوى في قلبه. كانت معالم الإيوان تدلُّ على لمسات جَجّو الأيقونيّة المدعَّمة بروحه الزاهرة، فكلُّ شيء في مكانه الذي أقرّه إلهامه، لا بدافع الاعتزاز ببركات الفقيد، بل بسبب الكسل، فتريزا كانت ترتدي الشوقتا والقبايا وتضع الكلوتا على رأسها وكأنّها لا تعترف بالصيف بينما وارينا تنمو اعتماداً على فطرة الطبيعة مثل قطّة زائرة. وجَّه حنّا نظرة طويلة إلى شبّاك غرفة نوم أمّه، فقد اتّفق الجميع على أنّ يوليانا أخرجت معها روح جَجّو من هناك، ولكنّه تذكَّر أنّ ياسمين تكره التلميح إلى فضائل الآباء.

لم تظهر على تريزا أيُّ عواطف زائدة، وكأنّ حنّا غادر البيت صباحاً، على العكس من وارينا التي غيَّرت ثوبها البرتقالي بآخر أخضر، ومشّطت شعرها، وضحكت كثيراً، وأظهرت الفرح في ترتيب المائدة، وأسرعت في رفع حبّات الأرزّ التي خلّفها فم حنّا.

سألته تريزا وهي متصلِّبة الملامح مثل شبح:

– في كلِّ أسبوع تعطي وارينا المبلغ نفسه. يبدو أنّ نزلاء فندق آشور لا يدفعون البقشيش.

حرَّك حنّا ذراعيه، وتأخَّر في الردِّ، فسألته وارينا إن كان سيبقى إلى الغد معهما. بدت تريزا هائمة مع همهمات عتابها فعادت لتقول له بنبرة خافتة وهي تمسح بكفِّها الفراغ الذي بينهما على الأريكة:

– كان جَجّو يهوّن عليَّ عذاب حملك في بطني قائلاً لي إنّك ستخرج شبيهاً بمار أدي الرسول... هل تسمعني يا جَجّو؟ ابنك حنّا يأخذ كلَّ البقشيش، ولا يعطي شيئاً لأمّه المريضة المسكينة.

عرضت عليه وارينا أن تريه الطبّاخ الجديد المزوَّد بقدّاحة كهربائيّة، الذي أرسله أبلحد قبل أسبوع، لكنّ حنّا أخذ يفكِّر في ياسمين شاعراً بضوء جديد ينبعث في قلبه. ظنَّت وارينا أنّه سيرافقها إلى المطبخ لتريه كيف تشعل النار تحت إبريق الشاي، ولكنّه ذهب ليغسل يديه في الحمّام. قال لنفسه إنّ الآثام التي يرتكبها الإنسان ليست كلّها سيئة، أو محرَّمة، ولهذا عاش جَجّو في ظلِّ بتول بقلاوة، ويعيش هو الآن مع ياسمين.

جلبت له وارينا مِنْشَفة جديدة، فقال لها:

– أنت بجسمٍ سليم... لا تعرجين مثلي، ولا تشبهين اللَقْلَق، وعظامك لا تنتمي إلى مار أدي الرسول، ولكنّك أتعس منّي بكثير.

سألته وهي تشعر بهواء تحت قدميها:

– أنت تتكلَّم بروح جَجّو.

قال وهو يضع يده على كتفها:

– جَجّو رأى يوليانا وتمتّع بالنور، أمّا أنا فرأيت وجع الإنسان، وحزنت بحزنه.

***

كانت ياسمين تتهيَّأ للخروج في السادسة مساءً حين عاد حنّا ذابلاً، يحمل قنّينة من عصير برتقال «نادر» المركّز. سار إلى المطبخ دون أن يقول شيئاً، وحين توجّه إلى الأريكة سألته إن كان تعرَّض لمضايقة ما. جلس في مكانه القديم قائلاً إنّه سيذهب إلى كرمليس، ولكن لا يعرف متى. دخلت ياسمين إلى غرفتها وخرجت مرَّتين. فتحت باب الحمّام ثمَّ تراجعت. وضعت كفَّها على مكان كليتها اليسرى، وقالت وهي تعطيه ظهرها ناظرة إلى جدار الصور:

– أنت حرّ... اذهب إلى كرمليس، لن أمنعك.

قال وهو يرفع ساقيه وينطبق على نفسه كخفّاش:

– الفاضل نوئيل يلدا لم يخبرني متى.

دخلت إلى المطبخ وهي تقول:

– اليوم ستبقى وحدك في البيت. سأعود في صباح الغد. لقد سلقت دجاجة ووضعتها في الثلاجة، ويمكنك في الثامنة مساءً الذهاب إلى السينما.

قال بسرعة:

– أنا أحبّ الممثل جوليانو جيما. إنّه رينغو العظيم.

سألته:

– هل لديه مسدَّس، ويطلق النار على الناس؟

قال دون أن ينظر إليها:

– الفيلم اسمه «مسدَّس لرينغو».

لم يذهب إلى السينما. اكتفى بأكل جناحي الدجاجة مع الطماطم والخيار ثمَّ غسل الصحون المتجمِّعة منذ الصباح، ومسح أرضيّة المطبخ والهول، وأزال الغبار عن الصور التراثيّة، وفي العاشرة ليلاً استعمل صابون الغار لتنظيف يديه ووجهه، وتأكَّد من أن تنفُّسه يجري من منخريه بلا عوائق متيبِّسة. أخذ السلّة البيضاء ودخل إلى غرفة ياسمين. نثر ملابسها الداخلية على فراشها، وراح يتفحَّصُها قطعةً قطعةً مركِّزاً حاسّة شمِّه في المواضع الوسطيّة المبطَّنة من كيلوتاتها. كان يحب آثار جسمها على الحواف. اللون الأسمر لاحتكاكات لحمها بين الساقين يسحره ويسعد به إذا ما كان طازج الرائحة ورطباً، ويدقِّق حتى يجد الآثار الصفراء الواهية في المنتصف حيث يمكنه تمييز العبق الفاتن لبولها الليموني البديع. كان منظَّماً لأنّ كلَّ الاقتناصات ثمينة ومهمّة، وتساعده على تحصيل الانتشاء. يرتِّب قطع الملابس بتشكيلاتها المتقاربة مستعيداً مهارته الأسريّة القديمة يوم كان يقاسم ياسمين بيتها تحت منضدة مطبخ بتول بقلاوة، ويساعدها كشريكٍ حقيقيٍّ في ابتكار الحياة الدافئة وكلُّه كمال كرجلٍ غنيٍّ وبلا عيوب. كان يودُّ لو أنّها أكثر تحسُّساً لتلك المواقف التي تتكرَّر وكأنّها نسخة من حياتهما تحت المنضدة. لم تكن الأشياء التي لا ترضيه تتَّضح في ضوء رأسه إلّا حين يلامس ملابسها الداخليّة ويشمُّها، عندها يعرف أنّه لا يعجبه أن توجِّه إليه الأوامر وهي مختلفة عن طفولتها وكأنّه الخادم لا شريكها الرحمي. كان يتوجَّع من خاطر أنّ كلَّ هذا سببه خوفها من البقاء وحيدة، ويحزنه أنّها غير جادّة في أن يكون البيت لهما حقّاً.

نام على الأريكة وحلم بدهليز القبور. رأى سلاسل صلاة الربّان هرمز بعيدة عن يديه ويعجز عن الوصول إليها. كان يقفز نحوها، ولكنه لا يستطيع الإمساك بها. ورأى الراهب عبد يشوع يسير حاملاً مشعلاً. مرَّ به ولم يكلّمه ثمَّ اختفى في العمق.

***

عادت ياسمين في التاسعة والنصف صباحاً. حين تفقَّدت المطبخ وسألته هل شعر بالخوف وهو وحده في البيت تأكَّد من أنّها أكلت شيئاً فيه كمّية كبيرة من الثوم. بدت شاحبة ومنتفخة العينين، وأكبر من عمرها بكثير بينما تنّورتها السوداء متربة وقميصها المشمشيّ الواسع فيه بقعة بحجم نصف الدينار المعدني على الكتف اليسرى. غابت قليلاً في غرفتها ثمَّ خرجت متلمِّسة الجدار. مفتوحةَ القميص وحافية، وكحلها متحلِّلٌ في عينيها. حين أمسك بيدها طلبت منه أن يقلي لها البيض مع التمر. لم تدعه يرافقها إلى داخل الحمّام، ولم تغلق الباب. وقف حنّا ينظر إليها وهي تسقط عنها ملابسها. شاهد كَدْمة زرقاء على مؤخّرتها قبل أن تفتح الدوش. وقفت مطرقة، ومسدلة الذراعين بينما الماء الساقط من جسدها له صوت المطر. تحرَّك حنّا مسافة كعب قدم حتى ظهرت حلمتها لعينيه. استندت بكفِّها إلى الحائط لحظة أن شاهد قميصها يسدّ فتحة التصريف في المنتصف.

قال وهو ثابت، وعضلاته مسترخية، وعلى استعداد لتلقّي الإلهام:

– سلاسل صلاة الربّان هرمز كانت بعيدة عنّي، والراهب عبد يشوع تركني وحدي وذهب بعيداً، ولكنّ الدهليز لم يكن مظلماً.

اختفت الحلمة خلف ذراعها، فعاد ليقول بينما قميصها يعوم في الماء:

– أنا أشتهيك يا ياسمين.

لم يكن واثقاً من أنّ صوته وصلها. شاهدها تعتدل رافعة رأسها. برز صدرها وهي تُرجع شعرها إلى الخلف. قالت دون أن تلتفت إليه:

– أغلق الباب يا حنّا.

---

[1] لعبة منضدة كرة القدم وهي طاولة تمثّل ساحة كرة القدم واللاعب يحرّك شيشاً معلّقاً عليه دمى لدفع الكرة إلى الهدف.

حقيبة السمسونايت

حين اختار أبلحد يوم الخميس للقاء حنّا قرَّرت ياسمين أخذ استراحة والذهاب لزيارة قبر أمّها في وادي عقاب. بدت هادئةً منذ يوم الاثنين. أخذته مساء الثلاثاء إلى عمارة سوق القدس في نهاية شارع الدوّاسة واشترت له بنطلوناً كحليّاً وقميصاً بكاروهات مع حذاء روغان وعطر أزارو. وفجرَ الخميس علَّقت ملابسه الجديدة وهي مكويّة في خزانته ثمَّ أيقظته ليستحمّ، وسمحت له باستعمال الشامبو الخاصّ بها. جهَّزت له الفطور وهي منتشية من فكرة أنّ الخميس هو يومهما المهمّ، ولكنّها لم تدعه يفطر إلّا بعد أن عاونته في ارتداء ملابسه الجديدة. شاهد حنّا طفحاً حُبيبيّاً ناعماً على جبينها، وهي تتفحَّص كلَّ طيّة في ملابسه، وروحها متجمِّعة في أصابعها. لم تتوتّر حباله العصبيّة وهي تغلق له سحاب البنطلون، وتضبط الحزام وتعدِّل القميص من الأمام والخلف، وتمسح بفخذها وجه الحذاء، وترشُّ العطر على ياقته وكتفيه. وحين تأمَّلته عن بعد خطوة وهو مرتدٍ كامل ثيابه الجديدة، شعرت بالوهن فجأة. جلست على سريره عاقدة ذراعيها على صدرها من هاجس أنّ شيئاً ما في مظهره غير مناسب. بَقيَ حنّا مصلوباً بين شكله الجديد الذي قد لا يكون مقبولاً، وبين أنّها تفكِّر في إجراء تعديلات.

ابتسمت والخجل يعصرها ثمَّ قالت:

– أنت محترم وأنيق.

جَرَّب حنّا السير في الهول مروِّضاً جلد الحذاء بغياب ياسمين التي خرجت من غرفتها بعد دقائق وقد ارتدت تنورة وبلوزة بنصف كمّ. جلست قريبة منه على

الأريكة فلاحظ أنّها وضعت بودرة خفيفة على وجنتيها. أكلا قطعاً متساوية العدد من جبن العرب المنقوع بالماء، ونظرا معاً في وقت واحد إلى الصور التراثيّة. لم تكن ياسمين واثقة من أنّها قدّمت له كلَّ ما يحتاج إليه في رحلته إلى كرمليس، وشَحَبَ لونها وهي تنتبه إلى أنّه سيحتاج إلى النقود. أرجعت قطعة الخبز إلى الصينيّة، ونهضت مسرعةً إلى غرفتها. غابت لدقيقة ثمَّ ظهرت. تريّثت قليلاً قبل أن تسير عائدةً بارتباك. انحنت واضعة في جيب قميصه أربع ورقات من فئة الخمسة دنانير. قالت وهي ترجع خطوة إلى الخلف:

– لن أذهب إلى أمّي.. سأحاول أن أنام.

وحين نظر حنّا إليها وهو غير قادر على إيجاد كلماته ابتسمت قائلةً:

– إذا أراد أبلحد أن تبقى معه في كرمليس، فلا تحاول أن تراني مجدَّداً.

***

في التاسعة صباحاً أخذهما بهنام بسيّارته الفورد من أمام بناية مديريّة الوسائل التعليميّة. بَقيَ الفاضل نوئيل يلدا السادس طوال الطريق إلى كرمليس يردِّد من المزامير "احفظني من الفخِّ الذي قد نصبوه لي ومن أشراك فاعلي الإثم". إلّا أنّ بهنام الذي ملأ الماء الأبيض عينه اليسرى لم يقلّل سرعته، ولم يتجنَّب المطبّات، وراح ينظر إلى حنّا الذي يجلس لصقه أكثر من نظره في مرايا السيّارة. كان مشهد ياسمين وهي تُلبسه ثيابه الجديدة عالقاً في كلِّ حواسِّ حنّا. أسره الخدر الروحيّ، وشغلته أنغامه الداخليّة إلى حدِّ أنّه لا يعرف كيف وصل الى عمارة التأمين في ساحة 14 رمضان حيث خطَّط الفاضل أن يلتقيا في منطقة قريبة كي يُلقِّنه الوصايا لأنّه لا يحبّ أن يتكلَّم أمام بهنام في الأمور العائليّة، لكنّ نوئيل ما إن رأى حنّا بمظهره الجديد حتّى هبطت معنويّات زهوه، وعرف أنّ ياسمين سبقته. وقبل أن ينتهي بهما شارع الجمهوريّة إلى ركن المتحف الحضاري، وتظهر لهما أبنية البلديّة، وحدبة الجسر، ونافورة الأسود البيض، ومديريّة الوسائل التعليميّة، وبوّابة حديقة الشهداء، قال له الفاضل نوئيل يلدا:

– يبدو أنّ مريمك المجدليّة شفتك من عاهات آل بنيامين، فمن سينما أطلس إلى المتحف وأنت تسير مثل البشر.

انتعشت صور الذكرى الفجريّة مجدَّداً في حواسِّه، فقال وهو ليِّن:

– جَجّو عثر على يوليانا، وحنّا وجد ياسمين.

قال نوئيل ضاحكاً:

– القدّيسة يوليانا تحب القُبُلات، لهذا أظنّ أنّها ستشعر بالغيرة.

انتبه الفاضل إلى أنّ بهنام يعاني اختلاطاً زمنيّاً، والتباساً وجدانيّاً، وخمَّن أنّه سيتوقَّف بهما عند كنيسة القدّيسة بربارة، فطلب منه التوجُّه إلى قصر أراسيا دون إبطاء. كانت السيّارة قد اجتازت الجداريّة السيراميكيّة التي تؤطر لوحة كبيرة لصدّام حسين وهو بالزيّ الكلداني حين قال بهنام لحنّا:

– أنت تشبه القدّيس جَجّو تماماً.

انحنى نوئيل قائلاً بتوتّر:

– انتبه إلى طريقك يا بهنام، فحتّى مار أدي الرسول لن يكون أسرع من سيّارتك الفورد إذا ما انقلبت بنا.

بدت البلدة لحنّا على غير ما كانت تتصوّرها تريزا، فوسطها تتخلَّله الأبنية الحديثة، والشوارع العريضة النظيفة، وثمّة كثافة شجريّة، والمتاجر منسَّقة كما في الموصل، والبيوت بمساحات كبيرة وواجهاتها مغلَّفة بالرُّخام الأسمر. وهناك الكثير من سيّارات الفولكس فاغن باسات البرازيليّة المنشأ، وإعلانات شركة ساس الزراعيّة الأميركيّة العراقيّة تظهر بين الحين والآخر بعروض مختلفة. ورأى حنّا مقهى للمصريّين، ومرَّ لأوَّل مرّة في حياته بكازينو صوفيا بشطريه الصيفي والشتوي، فعرف أنّه يسير في طريق أوجاع جَجّو.

انتهت البلدة إلى فاصل ترابي تلته قنطرة قصيرة لتبدأ بعدها على جانبي شارع ضيق تحدُّه الأشجار مساحات من الحدائق المختبريّة والمشاتل الإنتاجيّة التي تخفَّت بقواطع خشبيّة فيها مُسْحة فخامة. كان قصر أراسيا الحجري بشكله المستطيل مشيَّداً بطبقتين متدرِّجتين وبأسطح مسنَّنة على الطراز الآشوري، فيه بوّابة خشبيّة بارزة مدعَّمة بمسامير ذهبيّة على شكل زهرة البيبون، وبدل السور أحاطت القصر حديقة متكلَّفة، لا تصلح للأطفال، قسمتها شجيرات الآس المشذَّبة بعلوّ قصير إلى مربَّعات ودوائر تتوسّطها تشكيلات من الحصى الأبيض.

لمحا عند دخولهما فضاءً في العمق تتخلَّله أشعّة الشمس إلّا أنّ الخادمة قادتهما إلى صالة مفروشة على الطراز العربيّ. بدا الفاضل نوئيل على دراية بالمكان فقال لحنّا إنّ كلَّ ما يراه على الحائط من سيوف ومسدَّسات هي مقتنيات عثمانيّة حقيقيّة تعود لمئات السنين، وابتسم بفخر وكأنّه هو من يملكها. فتحت الخادمة الباب وانسحبت منحنية ثمَّ ظهرت أراسيا بشعر أشقر

وفستان خردليٍّ بلا كمّين، يُغطّي الركبتين. بادرها الفاضل بالسلام فتجاهلته مركِّزة نظرها على حنّا الذي وقف مصدوماً بنحافة ذراعيها وساقيها. ضحكت ثمَّ قالت:

– جَجّو بلا ثوب شمونيا المطرَّز.

وافقها الفاضل قائلاً إنّ بهنام كاد يتسبَّب بحادث لأنّه ظنّ أنّ جَجّو عاد إلى الحياة. شدَّها كلامه، فبدَّلت وقفتها وهي تسأله:

– هل يتكلَّم؟

ردَّ بجديّة:

– يتكلَّم، ويأكل، ويمكنه أن يُغني.

ضيَّقت عينيها، فبانت الانكسارات في زاويتي فمها:

– أنت غشّاش كمربّي النحل.. أنا لا أحبّك.

انكمش الفاضل وقد احمرَّ وجهه. أشارت لحنّا بيدها أن يتبعها. نظر إلى لوح ظهرها وقال لنفسه إنّ عظامها ستكون ظاهرة إذا ما وقفت عاريةً تحت الدوش. اجتازا ممرّاً تكثر على جانبيه الأبواب. انتظرته وهي وسط الفضاء الداخلي الذي تقوم قبَّتُه الزجاجيّة على أعمدة من الرخام الأسمر. سار حنّا بحذرٍ على الأرضيّة الملساء. على الجانبين أرائك مذهَّبة وعلى الجدران العديد من اللوحات البانورراميّة لفرسان بأزياء غريبة. سألته حين وصل إليها:

– هل رأتك شمونيا وأنت تمشي؟

ردَّ بِحَلْقٍ يابسٍ:

– أنا لم أَرَ شمونيا قطّ.

قالت بصوتٍ خافتٍ:

– لا تحاول تقبيل أبلحد، أو الاقتراب منه. هو يحبّك ولكنّه يخاف السلَّ.

قادته إلى الجناح الأيمن، فأحصى حنّا ثلاثة أبواب. جلس على طرف أريكة ضخمة المسند تتّسع لأربعة أشخاص حولها مقاعد عثمانيّة منجَّدة شكَّلت ما يشبه الهلال. خرج أبلحد من الباب القريب بزيِّه العربي. لم يبقَ من ضخامته سوى الطول. بدا شاحب الوجه وقد حلق ذقنه توّاً. خُيِّل لحنّا وهو يقف احتراماً لجدِّه أنّه يرى شبحاً من أعواد الثقاب. قال أبلحد: مرحباً، ثمَّ جلس في الطرف البعيد، مرجعاً ظهره ببطء إلى أن استقرَّ على مسند الأريكة. نظر إلى حنّا بنصف التفاتة مصلباً رقبته وتابع:

– كنت أظنّ أنّني تخلّصت من الشفقة على جَجّو، وها أنت تُعيدها إليَّ.

احتار حنّا بين الردِّ على ترحيب جدِّه، وبين التعليق على جملته الأخيرة، لكنّ أبلحد توقَّع من انقباضات وجه حفيده أنّه سيعطس، فقال ناظراً إلى أراسيا:

– لا أحد يستطيع نسيان جَجّو.

قالت أراسيا وهي تنظر إلى حنّا:

– لو أنّ شمونيا لم تُطرِّز ثوب الوعظ لما بدا جَجّو مضحكاً.

استند أبلحد إلى كفِّه وقال:

– لو أنّ كنيسة بربارة لم تكن الأولى في كرمليس لما عرفنا أنّ لنا شفيعة، ولو أنّني بنيت كنيسة لجَجّو لكان هو الآن شفيعنا.. من حسن حظِّنا أنّ الربّ هو الوحيد الذي يعرف الحقيقة.

جلست أراسيا على المقعد العثماني القريب من أبلحد معاكسةً بجذعها مَيَلان ساقيها. جال حنّا ببصره في المكان كي ينقل ما يرى إلى ياسمين. وبينما هو يتخيَّل فرحتها وهي تفتح لعودته الباب قال أبلحد:

– نحن لا نفعل ما يجب فعله حتى وإن كان باستطاعتنا. الشرُّ لا يقلّ أهمّية عن الخير لأنّ به يُقسَّم الناس إلى طيّبين وقُساة، ولهذا الحياة فيها جَجّو وفيها أبلحد.

تخيَّل حنّا شكل ياسمين وهي منزعجة حين سيُبلغها أنّ الجميع في كرمليس يتحدَّثون عن جَجّو، وتساءل مع نفسه: إن كان الربّ هو نفسه دائماً فلماذا لا تحبّ ياسمين جَجّو، ولا تراه قدّيساً مثل أهل كرمليس؟

تجاهل أبلحد كلام أراسيا عن تنامي ثقة الناس بفرنسا وسأل حنّا:

– أنت تعيش الآن مع ابنة ليلى؟

ردَّ حنّا:

– ياسمين اشترت لي هذه الملابس، وجعلتني أغسل شعري بالشامبو.

ضحكت أراسيا، فقال أبلحد:

– لقد أجبرتُ جَجّو على العيش مع تريزا ولكنّني لا أستطيع أن أفعل هذا معك.. رأفة العاهرات بنا أفضل أنواع الأمومة، ورعايتهنّ لنا أجود أصناف الحبّ، ولكن عليك معرفة أنّ النساء مقادير طبخة ودرجة حرارة فرن، وأيُّ زيادة أو نقصان تفقدك السعادة. وإن كانت ابنة ليلى لا توجّه إليك الكثير من الأسئلة، فهذا معناه أنّها امرأة جيدة.

اتّسعت ابتسامة أراسيا، فطلب منها أبلحد إحضار الحقيبة السمسونايت. التفت إلى حنّا بدورة رأس كاملة وقال:

– اعتدت حين أحبّ امرأة أن أترك لها ما أملك. هذا يجعلني لا أحسُّ بالخِسّة والدناءة. والحقيقة يا حنّا أنّ الثروة الثمينة هي تلك التي تستطيع حملها معك. الكثيرون لا يدركون هذا. جَجّو كان يحمل ثروته في قلبه وأنا تمنّيت كثيراً أن أحمل ثروتي في رأسي، ولأنّني لا أملك الموهبة فقد حملتها في حقيبة سمسونايت.

عادت أراسيا تحمل حقيبة كالحة مغلَّفة بالجلد قديمة الطراز بحزامين يطوِّقانها وبقفلين. وضعتها على الأريكة بجوار أبلحد الذي أخذ يمسّدها بكفِّه قائلاً:

– حين كنت في السابعة والعشرين من عمري قمت بمغامرة جميلة بدعمٍ من خالي لويجي ومجموعة من الإيطاليّين وعقدت أوّل صفقة تجاريّة في حياتي بمدينة غيومري في جمهورية أرمينيا السوفياتيّة الاشتراكيّة وقد حصلت على هذه الحقيبة في تجارة نزيهة وكانت أوَّل كمّية تُسوَّق عالميّاً تحت اسم سمسونايت. كان ذلك في عام 1941. وحين عدت إلى الموصل عن طريق إيران بعدها بسنوات كانت معي الكثير من الحقائب ولكنّها كانت معبَّأة بأموال ورقيّة قذرة. لم أفتح هذه الحقيبة قطّ. كنت أحملها معي حين أذهب لبدء حياة جديدة، ولكن لم يحدث أن وظَّفت ما فيها بمشاريعي اللصوصيّة والتهريبيّة. كنت أهرب من بلدة إلى أخرى ولا أحمل معي غير هذه الحقيبة. أخرج من بيت إلى آخر ولا شيء في يدي سواها. إنّها لك يا حنّا. فيها خمسة كيلوغرامات من الذهب على شكل سبائك. إنّها كلُّ ثروتي الحقيقيّة.

***

أصرَّ نوئيل على التوقُّف عند مقهى كولا كي يسأل عن زملائه القدامى في أخويّة «جَجّو الشمّاس الحقيقي»، ولكنّه عاد إلى سيّارة بهنام بسرعة وهو حزين فقد أخبره كولا أن الأطفال السبعة ماتوا كلّهم في معركة الفاو. كان حنّا قد وضع الحقيبة بينه وبين بهنام وهو غير واثق من أنّ ياسمين ستفرح بها. أخذ الفاضل يبكي الأطفال حين مال بهنام متسائلاً:

– هل نذهب إلى الكنيسة أيُّها القدّيس؟

ردَّ حنّا:

– الدموع أثر الذي بلا أقدام.

لم تحدث الكثير من التغييرات في تجديد كنيسة القدّيسة بربارة عام 1972 وبات من الضروري التفكير مجدَّداً في إزالة لبخات الجصِّ القديمة واستبدالها بالاسمنت. كانت هذه هي فكرة راعي الكنيسة القسّ حيدو الحدّاد إلّا أنّ القسّ يوسف كوماني الذي أقعده المرض وشغل غرفة الزوّار عارض اللجوء إلى الأساليب الحديثة، وكان يردِّد: ليست هذه هي الحرب التي تدَّخرون لها أموالكم وأحزانكم.

طلب الفاضل من بهنام البقاء في السيّارة لحراسة حقيبة القدّيس، ثمَّ أسرع ليقدِّم فروض الاحترام للقسّ يوسف. وَجَّهَ بهنام إلى مكان من الإسفلت سبابته وقال بخشوع:

– في ذلك المكان تعرَّضت قداستك لمحاولة اغتيال، وأنا حملتك بسيّارتي وذهبت بك إلى المستشفى الجمهوري في الموصل.

قال حنّا قبل أن يغلق الباب خلفه:

– الصواب أن تسعف نفسك أولاً.

كان فناء الكنيسة أكثر استواءً من العهود السابقة، وأشجار الزيتون أعلى من السور، إلّا أنّ المبنى بغير الصُّلبان والعلامات الدالّة لا يختلف كثيراً عن المباني المدرسيّة. أزيلت القبور من الجهة الشرقيّة، وحلَّت محلَّها البلاطات الخرسانيّة الملوَّنة التي أوحت بسعة أكبر. شدَّت حنّا الهمسات التي أتته في أذنه اليسرى إلّا أنّه لم يتبيَّن الكلمات. شعر بخفّة عائمة، وسمع اسمه منطوقاً بدوّامات نسائم الفصول التي حضرت كلُّها لتلتفَّ به كَقِمْعٍ. وقف في وسط الفناء وقد خُيِّل إليه أنّه امتلك ذاكرة جَجّو.

خرج إليه راعي الكنيسة القسّ حيدو بوجه سعيد. كان في الخمسين، متوسّط القامة وبعينين آسيويتين وذقن مربّع وعلى صدره صليب مجسَّم التقاطيع كمكعَّبات الشوكولاته. انحنى حنّا مُقَبِّلاً يده فباركه القسّ وصافحه بودٍّ قائلاً:

– أبلحد سألني قبل دقيقة على التلفون إن كنت زرتَ الكنيسة.. أنت محظوظ بأبيك وجدِّك.

سمعا الصوت البناتي المبحوح للقسّ يوسف وهو يردِّد:

– جَجّو.. جَجّو.

أومأ القسّ حيدو لحنّا وهو يلتفت متراجعاً. ظهر نوئيل وهو يدفع كرسيّ القسّ يوسف كوماني. أشار راعي الكنيسة للفاضل بأن يقترب أكثر. كان القسّ يوسف في الخامسة والثمانين، خائر البنية، بعينين متخثّرتين ويبدو شفّافاً من درجة ذوبان لحمه وكأنه فَقَّسَ بيضته توّاً. دفع القسّ حيدو حنّا من ظهره ففتح القسّ يوسف فمه وبانَ لسانه:

– لماذا لم ترتدِ ثوب الوعظ يا جَجّو؟

قال حنّا وهو يأخذ يده ليقبّلها:

– اليوم هو الخميس.. أنا أعظ يومي الجمعة والأحد.

قال القسّ يوسف وهو يضع يده المرتجفة على رأسه:

– إنّهم لا يطعمونني البيض المسلوق... لقد كتبت شكوى طويلة لمثلّث الرحمة حين نقلوا جثمان روز إلى مقبرة دير مار كوركيس، وحذَّرتهم من الحرب المقبلة، ولكنّهم لا يطعمونني البيض المسلوق يا جَجّو.

قال حنّا بصوت رقيق:

– العظام تنام في قبورها، لكنّ الروح تتحرَّك على هوى القلب. روز هنا بجوارك ترعى أشجار الزيتون، أمّا البيض فستجلبه شمونيا بعد قليل.

رَبتَ القسّ حيدو ظهر حنّا بارتياح كبير مباركاً سلوكه الجميل، وعادت دموع الفاضل نوئيل يلدا السادس لتسيل مجدَّداً حزناً على الأطفال السبعة الذين كبروا من أجل الموت.

انتعش حنّا برائحة الخشب داخل الكنيسة، وانفتح تنفُّسه للبرودة الهادئة. تراءَت له ياسمين وهي متأثِّرة بما سيحكيه لها، وأمام المذبح رجعت الهمسات إلى أذنه اليسرى. كانت الجدران متناسقة البياض ودكّة الذبيحة مفروشة بالقطيفة وعليها الكتاب المقدَّس وثمّة مزهريّات من معدن أصفر، وشمعدان رفيع من الفضّة. نظر حنّا إلى صورة القدّيسة بربارة وهي تطلُّ برأسها من بين الغيوم وطلب منها أن تَهَبَ السكينة لقلب ياسمين وتباركها لأنّها أحسنت إليه. وخلف القسّ حيدو أخذ قلب حنّا يردِّد: المجد لله دائماً. هلّلويا. هلّلوا لله في بيته المقدَّس. هلّلوا له في سماء عزَّته. هلّلوا له لجبروته. هلّلوا له لكثرة عظمته. هلّلوا له بصوت البوق. هلّلوا له بالعود والكنارة. هلّلوا له بالدفِّ والرقص. هلّلوا له بالأوتار والمزمار. هلّلوا له بصنوج السماع. هلّلوا له بصنوج الهتاف. كلُّ نسمة فَلْتُهَلِّل للربّ. هلّلويا.

قال القسّ يوسف لحنّا قبل أن يأخذه النوم:

– الزاوية الشماليّة الشرقيّة يا جَجّو.. القدّيسة تنتظرك.

أشار راعي الكنيسة للفاضل نوئيل بأن يعيد القسّ يوسف إلى غرفته ثمَّ بارك حنّا ولحق بهما. اتّضحت الهمسات في أذنه وصارت أنشودة هلّلويا. خفق الضوء في عينيه وتكثَّف الظلُّ بين عمودي المذبح. سار حنّا إلى الجهة الشماليّة الشرقيّة عابراً من الضوء إلى العتمة، وأمام رخامة القبر ركع. سرت ببدنه رجفة لكنّه ردَّد صلاته بعينين مغمضتين:

– طوباكِ أيَّتُها الشهيدة بربارة. إنّ أجر أعمالك محفوظ مع البتولات. تضرَّعي إلى ربّك ليسكب نعمه على أنفسنا وليحلّ أمنه وسلامه على أربع جهات المسكونة.. أيَّتُها الشهيدة بربارة ويا أيَّتُها الطاهرة والمنصرة، اطلبي الرحمة من الله ليرسل لنا نعمه الإلهيّة ويقوّي ضعفنا بمراحمه الفائضة ونعمته.. أيَّتُها القدّيسة بربارة العفيفة، ويا أيَّتُها الشهيدة المؤمنة الصادقة، اطلبي إلى يسوع الذي نصرك بحياتك كي يحلَّ أمنه وسلامه في المعمورة.. آمين.

من كلِّ الاركان خرج صوتها:

– قم يا حنّا وتكلَّم معي.

فتح عينيه على وهج أبيض فاختلَّ توازنه وسقط على جنبه. قالت:

– لا تخفْ يا حنّا.. أنا يوليانا.

تراجع الضوء مشكِّلاً فتاة من بياض مخلوط برذاذ الذهب. بانَتْ ملامحها حين خرجت من هالتها. أمسكت بمعصمه وساعدته على النهوض. خفق قلبه بقوّة وهو ينظر في عينيها الضيّقتين.

سألها:

– أهذا ما رأى جَجّو؟

ردَّت وهي تتراجع ملتصقة برخامة القبر:

– نعم يا حنّا.

سألها مجدَّداً:

– بماذا تأمُرينني أيَّتُها القدّيسة؟

فتحت ذراعيها قائلةً:

– أنت من صلَّى قبل قليل.. أنت الذي تريد.

ارتبك حنّا ولكنّه قال:

– أريد أن يَعُمَّ السلام في الأرض وأن تنتهي الحرب.

قالت يوليانا:

– لا يجوز للمؤمن طلب ما يستطيع فعله.. الحروب تتوقَّف حين يريدون.

تقدَّمت خطوةً وعادت لتقول:

– كنت تُصلّي دائماً وتتعذَّب في الحياة لأنّك لست مثل الناس وتبكي وأنت نائمٌ لأنّك لا تنال ما تتمنّى. حزنك بعمرك ووجعك بحجمك، فماذا تريد يا حنّا مني؟

– هل أستطيع الذهاب إلى الموصل لسؤال ياسمين فهي تفكِّر أفضل منّي وقد اشترت لي هذه الملابس التي أرتديها، وأهدت لي زجاجة عطر، ثمَّ أعود إليك لأخبرك؟

قالت وهي تتقدَّم خطوة أخرى:

– لا تتعب نفسك في العودة، سأذهب معك.

– ستأتين معي إلى بيت ياسمين؟

ردَّت وهي تسير نحوه:

– النور للظلام يا حنّا.

يوليانا المملوءة رجاءً

القدّيسة في البيت

لم تخرج ياسمين من البيت مدّة ثلاثة أيّام.

حين عاد حنّا مساء الخميس من كرمليس حاملاً الحقيبة السمسونايت، ظنّت أنّه جاء لأخذ أغراضه، وخمَّنت أنّه سيحتاج إلى تشجيع بسيط كي يُفصح عن رغبته. لم توجّه إليه أيَّ سؤال خوفاً من أن ينتبه لتأخُّر الوقت، فيسرع في المغادرة. توتَّرت لأنّه كان يفتح باب غرفته بين الحين والآخر ويُلقي نظرةً فيها قلق، وتردُّد. لبست تي شيرت بلون الموز مع تنّورة مدرسيّة زرقاء بجيوب وعقصت شعرها بفراشة حمراء، وأخذت تأكُل بشراهة. الفوضى التي تُخلِّفها في المطبخ، كلَّما ذهبت لتسخين إبريق الشاي، لم تسمح لحنّا بالقيام بأيِّ عمل تنظيفي يعيد الاطمئنان إلى روحها. كانت الساعة تشير إلى العاشرة، وصدّام حسين لم ينهِ حديثه الذي بدأه في الثامنة مع مجموعة من الجنود، وحنّا لم يُغيِّر ثيابه بعد، حين قالت ياسمين وهي تَنْكُشُ أسنانها الأماميّة بعود ثقاب:

– إنها العاشرة.

ردَّ حنّا وهو في مكانه على الأريكة:

– سيتأخَّر فيلم السهرة.

سألتُه:

– وأنت ألن تتأخَّر على أبلحد؟

قال حنّا:

– لقد رأيت أبلحد اليوم صباحاً ولن أعود إلى كرمليس مرّة أخرى.

قالت بحذرٍ، ودمُها حارّ:

– ولكنك عُدت وبيدك حقيبة سفر.

– هذه الحقيبة ليست للسفر، بل للذهب. أعطاني إيّاها أبلحد اليوم وهي مليئة بالسبائك.. إنّها أثقل من أسطوانة الغاز لأنّ فيها كلَّ ثروته.

قال وهو ينظر إلى قدميها:

– صدّام يتكلم عن الشعب دائماً.. إن كنتُ أنا من الشعب فلماذا لا أفهم ما يقوله الرئيس؟

قالت وهي تضع ساقاً على ساق، وتبرز صدرها:

– هؤلاء قرويّون يتكلَّمون بعضهم مع بعض، أمّا الشعب فهو ينتظر فيلم السهرة.

لم يهدأ حنّا منذُ أن عاد. كان يشعر بألمٍ في كعبي قدميه بسبب الحذاء، ومثانته ممتلئة منذ ساعة، والحزام يضغط على بطنه. كان يودُّ لو يتخلَّص من ثيابه ولكن القدّيسة يوليانا قالت له حين وضع الحقيبة فوق خزانة الملابس إنها ستبقى في غرفته، وكلَّما فتح الباب وجدها جالسة بنورها المؤطَّر بالذهب على طرف سريره. ياسمين بقيت تشكُّ في أنّه سيغادر، أو أنّه يقاوم فكرةً زرعها أحدهم في رأسه. كان يتجنَّب النظر إليها وهي تتحرَّك أمامه. حين عاد من كرمليس خُيِّلَ إليه أنّ مؤخَّرتها كبرت في الساعات التي غاب فيها عن البيت، ولكنّه أخذ يُحدِّث نفسه عن قصّات التنانير التي تبدو منتفخة عند الخصر، لقد رأى ذلك في برنامج عشر دقائق لأمل المُدرِّس الذي يُعرض صباح كلِّ يوم جمعة. الشيء الذي هزَّه كثيراً هو أنّ ياسمين قد لوَّنت أظفار قدميها بالأحمر. إنّه اللون الذي يُكَهْرِبُ كيانَه ويجعله مثل قرد سكران.

كانت ياسمين تأكُل طبقاً من حلوى الشعريّة التي صنعتها من أجل فيلم السهرة حين طلبت منه الذهاب لتغيير ملابسه وغسل وجهه لأنّها متوتِّرة من رائحة تراب السفر التي تفوح منه. وجد حنّا صعوبة في التحرُّك إلى غرفته. فكَّر أنه سيفقد قالب أناقته إذا ما اضطرّ إلى تغيير ملابسه في الحمّام. صعد قلبه إلى جوزة حلقه من حرج أنّ القدّيسة ستعرف إذا ما توسَّل إلى بربارة إخراج صديقتها يوليانا من غرفته كي يُغيِّر ثيابه. كانت ياسمين تُراقبه بِحَيْرةٍ حين فتح حنّا باب غرفته بأمل ضعيف. وجد القدّيسة جالسة كما تركها، تشعُّ نوراً مذهَّباً وعلى وجهها العجيني ابتسامة سمائيّة. قالت له:

– كنت أريد إبلاغك أنّني أذهب حين تريد، وأعود عندما تحتاج إليّ.

قال وهو يشدُّ عضلات بطنه مغلقاً الباب بظهره:
– لم أكن أعرف هذا.
قالت له قبل أن تتلاشى:
– لا تخجل من قدّيسة إذا كنت لا تخجل من الله.

***

نام حنّا على الأريكة، وحين استيقظ في السادسة والنصف صباحاً، تفقَّد غرفته فوجدها خالية. دخل إلى الحمّام، وحلق ذقنه، وفتَّش سلّة الملابس البيضاء، ثمَّ قطَّع القليل من جبن العرب المملَّح، ونقعه في الماء. نظر إلى حائط الصور، وأحصى خمسة أماكن لم يذهب إليها منذ مدّة طويلة. غسل صحون المساء، ونظَّف إبريق الشاي، وفكَّر أنّ من الواجب استدعاء القدّيسة يوليانا في الصباح كي لا تظنّ أنّه لا يحب وجودها في بيت ياسمين. تحمَّس من كثرة ما ورد على ذهنه من صور عليه إخبار ياسمين بها. دخل إلى غرفته، وقال بصوت خافت:
– أيَّتُها القدّيسة.. صباح الخير.
غمر الضوء الأبيض المكان لثوانٍ متراجعاً عن جسد يوليانا الذي بدا لحنّا أكثر رسوخاً من أمس:
– صباح الخير حنّا.
ابتسم لأنّه نجح، وشعر بأنّه سعيد. جلست القدّيسة على طرف سريره، وسألته:
– هل استشرت ياسمين بما تريد أن أسال الربّ كي يحقِّقه لك؟
قال بارتباك:
– لم أفعل.
سألته مجدَّداً:
– هل تؤمن بأنّني قدّيسة شهيدة؟
– أؤمن أيَّتُها الطوباويّة، فاسمك غلب العالم.
– حسناً يا حنّا اذهب إلى المرأة التي تستهويك واسألها.
اضطرب، وسرت في أطرافه توتّرات عضليّة وهو يتساءَل:
– هل من الإثم أن تستهويني ياسمين؟
وضعت يوليانا يديها في حجرها، وقالت مبتسمةً:
– نحن نحبّ الله لأنّ نعمه تستهوينا. ألا يستهويك الخبز الساخن فتحمد الربّ

عليه. أنا استهوتني الينابيع والشمس، ولذّة الزيتون، وبدائع المطر، واستهوتني نفسي، وجمال قوامي، وتفتّح قلبي، فأحببت الله ومتُّ من أجله.. لا إثمَ في أن تستهويك ياسمين يا حنّا.. أنا وأنت نستشيرها. أليست هذه نعمتها علينا؟

قابل ياسمين وهي خارجة من الحمّام ببيجامتها الحمراء. أخبرتُه أنها حَلمت بغابة مشْمِسة من الداخل، ولكن ليس لها سماء. ومن المطبخ قالت إنّها تريد أن تطبخ له شيئاً لذيذاً، ولكنّها لا تعرف ما هو. ابتسمت مرّات عدّة وهما في المطبخ، وطلبت منه أن يفكِّر معها في الأشياء التي يحتاج إليها البيت. لم يستوعب كلامها، وبَقيَ فمه مفتوحاً لدقيقة وهو يمسك لها صينيّة الشاي. قالت إنّها فكَّرت كثيراً حين ذهب إلى كرمليس. أغلقت الحنفيّة واستدارت نحوه. كانت تتنفَّس بسرعة، ثمَّ تغلبت على نفسها قائلةً:

– حين ذهبت إلى كرمليس خفت أن أبقى وحدي في البيت. أقصد خفت ألّا ترجع، وفكَّرت كثيراً. كلُّهم يعرفون أنّني قَحْبة ولا أحد سيقبل أن تعيش معي.. أنت من عائلة زوجة سفير فرنسا، وصدّام حسين أعفاك من العسكريّة، وجدّك هو أبلحد الذي يملك مال الله وعبد الله. كيف لم أفكِّر في هذا. كم أنا غبيّة.

أعطاها الصينيّة وقال وكأنّه يرقص:

– القدّيسة يوليانا تقف معنا يا ياسمين، وجَجّو ليس مجنوناً.

فتح فمه بابتسامة عريضة، ولكنّ ملامحها لم تتأثَّر:

– هذه هي المرّة الأولى التي تنطق فيها اسمي.. لقد صرتَ رجلاً يا حنّا.

بَقيَ مرتبكاً لساعتين، وطلبت منه ياسمين أن يفعل أيَّ شيءٍ غير السير في أرجاء البيت مثل خروف طليق. خرج مدّة نصف ساعة لجلب البقدونس من مزرعة قصر المطران في الدندان لأنها رغبت في صنع كُبّة الرز. يشعر بالسعادة حين يفعلان شيئاً يتطلَّب حركةً وأدوات كثيرة. الشيء الذي يُزعج ياسمين أنّ حنّا لا يُدرك على الفور مغزى قراراتها وأفعالها، وحتى إذا ما شرحت له فإنّه لن يُصغي إلّا للصوت الذي في رأسه، لذلك تعتمد على الاستجواب المتسلسل لتفهم كيف يشتغل دماغه. كانت قد جهَّزت اللحم والأرزّ وجلست على الأريكة منحنية حين قالت وهي تُبلِّل يدها بالماء:

– جَجّو هو جَجّو سواء كان مجنوناً أو عاقلاً.. أنا أحبّ ليلى لأنّها أمّي. لا يهمُّ كيف عاشت وماذا فعلت. هي أمّي.

قال حنّا وهو ينظر إلى الظاهر من صدرها:

– أنا رأيت القدّيسة يوليانا حين ذهبت إلى الكنيسة.
قالت وهي تضع في الصينيّة أوَّل حَبّة كُبّة:
– أرأيت؟.. أنت مجنون كجَجّو وأنا أفعل ما كانت تفعله أمّي. هذا هو المهمّ. لا علاقة لنا بكلام الناس.
أبقت الحَبّة الثانية في كفِّها ولم تقفلها على اللحم وقالت:
– أنت إنسان طيّب يا حنّا لأنّك تقبل أن تأكل من يدي. لا أحد يأكل ويشرب من يد عاهرة.
دخل إلى المطبخ وشرب القليل من الماء ثمَّ أسرع إلى غرفته. ابتسمت القدّيسة يوليانا لقدومه وكانت تضع يديها في حجرها وسألته:
– هل استشرتها؟
ردَّ وهو يلهث:
– لا أعرف كيف أفعل هذا.
سألته:
– لماذا؟
قال وهو يفتح ذراعيه:
– أنا حنّا أيَّتُها الطوباويّة. شخص معاق. لست مثل باقي الناس.
– هل أنت معاق؟
– نعم.
– هل تريد أن أسأل الربّ كي يشفيك.
نظر إليها طويلاً بفم مفتوح ثمَّ قال:
– لأنّي هكذا أشفقت طوباويّتك عليَّ وظهرت لي، ولأنّي حنّا المعاق والمجنون والمسلول أبقتني ياسمين في بيتها.
قالت له يوليانا وهي تبتسم:
– هل أعطيتك عُكّازاً لتقول هذا، وهل عطّرتك ياسمين لأنّك مجنون؟

***

في تمام العاشرة صباحاً دقَّ الجرس الأوَّل لسينما حمورابي. أمضى الفاضل نوئيل يلدا السادس نصف ساعة واقفاً في رأس الزقاق يراقب بيت ياسمين على أمل أن يخرج حنّا. كان هذا الأسبوع هو الرابع لفيلم بريداتور لأرنولد شوارزنيغر، والإقبال عليه في تراجع، بينما الزقاق يخلو من المارّة، وحين لم يبقَ في محيط

السينما سواه اضطرّ الفاضل إلى طرق الباب ومناداة حنّا بصوتٍ عالٍ كي لا يعتمد على المصادفة في أيٍّهما يفتح له الباب. لحق به حنّا وكأنه يتفادى أشياءَ تسقط من السماء. دارا حول واجهة السينما وسارا في شارع متاجر الأرمن باتّجاه قصر المطران. أخبره الفاضل أنّه حزن كثيراً حين أبلغته أراسيا بقصّة حقيبة الذهب، وكان من الواجب أن يعرف منه بالأمر لا أن يتلقّى التوبيخ لضعف حسّهِ الأمني. وراح يُحدِّث نفسه قائلاً إنّ حزنه على الأطفال السبعة جعله لا يفكِّر في الحقيبة جيداً، ولكن كيف كان سيشكُّ وهي علبة قبيحة ونتنة ولا تستحق أن يحمل فيها المرء أدوات حلاقته. وقال لحنّا بعدها إن أبلحد يصلح لأن يكون مديراً للمخابرات العراقيّة، وهذه الحركة الذكيّة لا يقوم بها سوى رجل مافيا إيطالي. وضع الفاضل يده على كتف حنّا موقفاً حركته وقال:

– أتدري ما هو الخطأ التاريخي الجسيم الذي وقع فيه فرانسيس كوبولا حين أخرج فيلم العرّاب؟ أعطى البطولة لمارلون براندو لا لأبلحد.

لم يتأثَّر وجه حنّا، فسأله نوئيل:

– هل الحقيبة مع أمِّك أم مع وارينا؟.. كارثة كبرى إذا أعطيتها لتريزا. كان عليك إخباري وتنبيهي.. الدنيا مقلوبة الآن. أراسيا أخبرتني لأنّها تريد إيصال هذه المعلومة إلى باريس. أنا أعمل جاسوساً مزدوجاً لأنّ هذا يصبُّ في مصلحتك يا حنّا. لقد بعت شرفي الكهنوتي لشمونيا حتى لا تُساق إلى الحرب وتموت كما حدث للأطفال السبعة.. قل لي أين خبَّأتَ حقيبة الذهب؟

قال حنّا بأنفاس منتظمة:

– الحقيبة معي في غرفتي.

أرجع الفاضل رأسه إلى الخلف وقال بعد أن استوعب الكلام:

– حقيبة الذهب مع ياسمين؟

أكملا سيرهما وكلاهما يشعر بالخيبة. قبل الخميس الماضي لم يكن حنّا يُميِّز بين الفاضل نوئيل وأيّ ذكرى أخرى لجَجّو. كلمات القدّيسة يوليانا هي التي جعلته يفكِّر في كلِّ ما حوله. حتى ياسمين أصبح ينظر إليها منذ أمس على أنّها تستحق منه المساعدة لا الطاعة فقط. أمّا نوئيل فقد انتكست نفسيّته لأنه تخيَّل ما يمكن أن يحدث إذا ما فشل في إرضاء أراسيا، واحتقر نفسه لأنه يُكافح بالوصايا من أجل أن يتمكَّن ابنه قرياقوس من استغلال ظروف جنون العائلة للفوز بقلب وارينا. لكنّ المرارة الأكبر التي كانت تضرب قلب الفاضل هي التدخُّلات غير

المحسوبة للربّ، فحنّا لن يكون بعد اليوم حنّا القديم مع خمسة كيلوغرامات من الذهب.

جلسا على حافة السور الواطئ لروضة النسور وأمامهما مزرعة قصر المطران. حدس الفاضل بأنّ حنّا يُفكِّر في إجابة لا تستفزُّه، فقد توتَّر حين كان يتكلَّم قبل قليل عن حقيبة الذهب. عمليّات التفكير لدى حنّا تعود أدراجها إذا ما اصطدمت بعائق انفعالي من المقابل. فكَّر الفاضل أنّ عليه ألا يكون مخوِّفاً، ويحافظ قدر المستطاع على ثقة حنّا به. توقَّفت سيّارة أمامهما وسأل سائقها عن الطريق إلى محطّة القطار.

قال حنّا بعد أن فرغ الشارع:

– الحقيبة في غرفتي.

نظر الفاضل بالاتّجاه الذي ذهبت فيه السيّارة إلى المحطة وقال:

– أنت حرّ يا حنّا. أنا قصدت أنّ الناس لا يحتفظون في المنازل بثروة كهذه. هناك طرق عدّة لحفظ الأموال وتكون آمنة.

قال حنّا وهو ينظر إلى الأرض:

– الحقيبة في غرفتي والقدّيسة يوليانا هناك أيضاً.

سأله الفاضل باهتمام:

– تقصد أنّ القدّيسة يوليانا تحرُس الذهب؟.. القدّيسون لا يفعلون هذا. إنّها مهنة الجنِّ والعفاريت.

– هي لم تكلِّمني عن الذهب ولكنّ القدّيسة يوليانا تجلس في غرفتي منذ أن عُدنا من كرمليس. جاءت معنا إلى الموصل في سيّارة بهنام الفورد.

قال الفاضل بانفعال:

– أخذت من أبلحد الذهب ومن الكنيسة القدّيسة يوليانا وكانت معنا في السيّارة، ولم تخبرني يا حنّا.. وماذا أخذت أيضاً؟

ردَّ حنّا:

– فقط القدّيسة والذهب.

نهض حنّا. تناسق جسده وبدا أطول من ذي قبل. استدار مواجهاً الفاضل وقال:

– لقد أخطأت الآن في إخبارك. يبدو لي أنّني لم أعد حنّا الذي كنته يوم الأربعاء، ولكن أنت عندي بمكانة جَجّو الذي لم يعد كاذباً. أنا لا أعرف ماذا يجري،

ولا أعرف ماذا تريدون أنت، والقدّيسة، وأبلحد، وياسمين، وتريزا، وشمونيا، وأراسيا. كلُّكم تتكلَّمون في رأسي في وقت واحد، وأحياناً تخرج من فمي كلمات مثل النور. قبل قليل كنت أفكِّر ووجدت أنّ هذا كلّه يزعجني. أريد أن تتوقَّف الحياة لكي أفكِّر بهذا اليوم مدّة سنة. كأنّني أراكم أول مرّة، أو أنَّني الآن عرفت من أنتم.

غاب اللون عن وجه الفاضل. نهض قائلاً:

– لنعد يا حنّا.. لا تنزعج أبداً.. طُزّ بالحياة كلِّها.. أعتقد أنّنا بحاجة إلى شرب البيبسي. الأفكار مضرّة مثل الغازات يا حنّا، ولكنك تتكلَّم جيّداً. لقد أخفتني للحظة يا رجل.

ضحك ثمَّ عاد ليقول:

– أنا معجبٌ بك يا حنّا.. نحن نحبّك.. هذا كلُّ شيء.. لا تفكِّر بنا أبداً. أنا، وأبلحد، وتريزا، وشمونيا، وأراسيا كبرنا في السنِّ، ونبدو مثل النكتة السخيفة.. ستتخلَّص منّا الواحد تلوَ الآخر، وتعيش حُرّاً، وتُؤسِّس لك عائلة جديدة غير معقَّدة.

عبرا التقاطع ومثلث مدرسة أمّ الربيعين، وسارا باتجاه سينما حمورابي. وفي شارع متاجر الأرمن أمسك الفاضل بكفِّ حنّا وقال:

– يا أخي، تُحيّرني القدّيسة يوليانا كثيراً، فجَجّو يقول إنّها تُحِب القُبُلات، وأنت تقول إنّها تعيش في بيت ياسمين.. هل تطوَّر الربّ إلى هذه الدرجة، أم أنا المتخلِّف في علم اللاهوت؟

خشبة الصليب

رغم مرور خمسة أشهر على تاريخ 31 أيّار آثرت كليّة الآداب في جامعة الموصل عدم ترك عام 1987 يمضي دون الاحتفاء بمرور قرن على ولادة الشاعر الفرنسي سان جون بيرس. اعتذرت مدام رينو عن مقابلة نوئيل يلدا السادس مرَّتين بسبب اختناق برنامجها الجامعي، ولكنّ الفاضل، وهو يغادر فندق نينوى أوبروي خائباً، رأى بنات الوجيه المرحوم بُطرس كنّي القبيحات يصلن بسيّارة البيجو 604، فقرَّر ألّا يعود مرّة أخرى إلى الفندق إلّا إذا كلَّمته مدام رينو بنفسها وأرسلت له سيّارتها الخاصّة.

لم يخرج من بيته مدّة ثلاثة أيّام، وحين وصلته نسخة من النشرة الاستثنائيّة التي أصدرتها مطرانيّة الكلدان وقرأ فيها عن نشاطات مدام رينو الإيمانيّة في السهل الشرقي، شعر بحزن عميق، وفكَّر بجديّة أن يذهب إلى كرمليس، ويعترف أمام أبلحد، وأراسيا، بخيانته إذ إنّه خدم مدام رينو. كانت سيتا أكثر صلابةً منه في تقدير الموقف، وقالت له إنّ عليه ألّا ينام ويأكل بجوار التلفون، ما دام قرَّر أن يكون رجلاً مع مجانين كرمليس ويعترف لهم بخيانته. لم يتحمَّل ثقل الوقت وهلوسات خياله فأرسل قرياقوس كي يعرف آخر الأخبار من وارينا، وقد صدق حدْسُه، فمدام رينو زارت تريزا أمس، وقالت إنها تنوي تناول العشاء الخميس في بيت الفاضل نوئيل يلدا السادس. رفضت سيتا فكرة الاستعدادات الباذخة، ولكي لا يحزن نوئيل، ويتهيَّج قولونه، أقنعته بأنّ مدام رينو لم تُعْلِمْهُم بمجيئها لأنّ سيّارتها لا تدخل الزُّقاق، وهكذا هي مجبرة على أن تعتبر نفسها من العائلة،

ولأنّ البرد كسر الجوَّ، فستطبخ لها حامض شلغم، وتستقبلها بالملابس التقليديّة لبلدة كرمليس.

زارتهم مدام رينو مساء السبت، وكانت الدنيا تسقط على الموصل مطر الخريف الأوَّل. تأثَّرت كثيراً للتشابه الكبير بين البيتين، فغرفة القعدة كانت نسخة متطابقة بأثاثها الديواني وسجّادها مع التي ببيت جَجّو، فقال لها الفاضل إنّهما وقتها كانا يتصرَّفان كمهاجرين تعصف بهما الغربة، ويشدُّ الخوف كلّاً منهما إلى الآخر. ضحكت سيتا بطلاقة، وقالت موطِّدة أوَّل صداقة دبلوماسيّة لها:

– كُنّا أنا وتريزا نطبخ الطعام نفسه، ونرتدي ملابس البيت نفسها.

تدارك الفاضل الموقف محوِّلاً الحديث ليكون عن جَجّو:

– كنت أعتمد على ذوق جَجّو الذي كان يختار كلَّ التفاصيل بإلهام استذكاري، فعندما اشترينا الأثاث والسجّاد قال لي إنّ هذه الألوان أصبحت المفضَّلة لدى شمونيا بعد أن تعلَّمت اللغة الفرنسيّة.

تبقَّع وجهها بالاحمرار وهي تردُّ مأخوذة:

– هذا صحيح.. إنّها ألوان العلم الفرنسي العظيم.

هزَّ الفاضل رأسه منتشياً بالنصر، وتابع:

– كانت كلُّ أمورنا تسير هكذا من وحي الماضي، وكان اختيار البيض من أهمِّ طقوس جَجّو البكائيّة. لقد عاش حياته لم يشترِ بيضة حكوميّة واحدة. كُنا ننزل إلى باب الجسر فجراً لانتقاء البيض من سلال القرى المسيحية. كان يشعر بالسعادة إذا ما وجد بيضاً بلون وحجم ما كانت تنتجه دجاجاتك يا مدام رينو.

– قُلْ شمونيا لُطْفاً.

– ولم يأكل البيض إلّا مسلوقاً يا شمونيا.

أخرجت من حقيبة يدها المربَّعة ماركة لويس فويتون منديلاً حريريّاً مخرَّماً مسحت به دمعة، وتطلَّعت بغير تركيز إلى الفاضل الذي رأى وجهاً لا عيب فيه بينما شعر بأنّ ظلامه الروحيّ مثل نور الصباح. أدركت سيتا أنّ وجودها بينهما ليس صائباً، فقامت من أجل صنع المزيد من الشاي. تأمَّل الفاضل نويل شمونيا بينما هي وحيدة مع الماضي. كانت بتايور رمادي أزراره كبيرة ومغلَّفة بالجلد وعلى ياقتها زهرة بنفسجيّة صناعيّة تدلُّ على الحزن. سأل نفسه إن كان جَجّو سيتركها ويذهب إلى الله لو أنَّها ظهرت له بهذه الهيئة أول ما خفق قلبها؟

قالت وهي تنظر إلى الباب:

– حين أخبرتني أنّ القدّيسة يوليانا ظهرت لحنّا أيقنت أنّ الأوان حلَّ لكي أسامح جَجّو. لقد ذهبت لرؤية تريزا متوقّعة أنّ هذا سيجعلني أعود إلى بيتي، وزوجي، وأنا طاهرة الذاكرة، ولكنّ هذا لم يحدث. كلُّ النساء يتزوَّجن رجلاً واقعيّاً ويعشقن رجلاً خياليّاً. لقد عرفت أنّني لن أتخلّى عن جَجّو مثل فرنسا التي لن تتنازل عن إصرارها على إقامة مهرجان لورين للمناطيد بعد سنتين. الحبّ مثل منطاد فيه مليون لون.. طائرة ورقيّة تلعب بها مع الريح.. يشبه مغامرة صيد سمكة تونة، ومجازفة تسلق جبل ببركان ثائر.

قال الفاضل بارتباك:

– سأكون أميناً على هذه الصراحة يا شمونيا.

نظرت في عينيه وقالت:

– جَجّو اختار أن يذهب مع يوليانا، وها هي يوليانا تذهب مع حنّا.. هل فهمت الآن لماذا أنا أحبّ كبريائي؟

ردَّ الفاضل بخجل:

– يوليانا ليست امرأة.. إنّها نور.. رحمة من ربّنا.

عادت لتنظر إلى الباب:

– كانت امرأة قبل أكثر من ألف عام.

عادت سيتا مبتسمة وهي تحمل صينيّة مذهَّبة، إلّا أنّ شمونيا قالت مستغلّة رجعة ذاكرتها:

– سألتقي بالراهبة تيما قريباً. لقد استدعيت بنات كنّي من أجل إقامة جمعيّة خيريّة بدعم من كنائس باريس. لا أريد أن يُقال عن حنّا إنّه مجنون كأبيه.

سألها الفاضل وهو يتصنَّع الجديّة:

– وماذا عن حقيبة الذهب؟

ردَّت وهي تُشبك ذراعيها تحت ثدييها:

– لم أفكر بهذا. حنّا بين امرأتين الآن كما كان جَجّو من قبل. الذهب ليس مهمّاً.

قال بنبرة توحي بالأسف:

– حنّا لم يُكمل العشرين من عمره بعد، وهذه ثروة كبيرة. ياسمين ستطمع فيها.

غابت شمونيا عمّا حولها، وقالت وهي في أجواء الماضي:

– ليت حقيبة مليئة بالذهب تشتري لي بيضة دجاجة واحدة.

حكَّ نوئيل أنفه وكأنّه لم يسمع. استأذنت سيتا في طرح سؤال، فاعتدل الفاضل موسّعاً عينيه، وراح شعر رأسه ينتصب قلقاً:

– لماذا علينا أن نؤمن بجَجّو.. وماذا تريد فرنسا من حنّا؟

عبّر الفاضل بملامحه عن أنّه يعتبر سؤال زوجته وقحاً، فعادت سيتا مخاطبة زوجها:

– لا تنظر إليَّ نظرة أيّوب لامرأته.. أنا لم أجدِّف على الربّ، ولم أخطئ بشفتيّ.

قطعت شمونيا اشتباكات ملامحهما بحركة من يدها وقالت لسيتا:

– منذ أن أهدت الإمبراطورة أوجيني، زوجة نابليون الثالث، تلك الساعة لكنيسة اللاتين في الموصل وفرنسا ملتزمة بعهدها الثقافي. لا يُفترض بفرنسا التفكير ببلدة مثل كرمليس، ولكن حاجتنا هي التي تتوسَّل. كنيستنا بلا أمجاد يا سيتا. نحن نؤمن بالله، ولكننا لم نصنع الجمال. حتى تكون لنا كرامة في بلدنا، نحتاج إلى أشخاص مثل مايكل أنجلو، وبيتهوفن، لا إلى يسوع فقط. في كلِّ سبع سنوات نجدِّد لبخات الجصّ، ولا يوجد قُدس أقداس واحد يستحقّ منّا الانبهار. نحن بحاجة إلى جَجّو وحنّا كي نقول: أخيراً ها هو الربُّ يشفق علينا.

وبعد أن غادرت مدام رينو الميّاسة في العاشرة مساءً قالت سيتا للفاضل وهو يحكم إغلاق الباب بعد رجوعه من التوديع:

– هذه المرأة تريد توريط الله في مسائلها العاطفيّة.. لن تتردَّد في خلق يسوع جديد، وبلا أمٍّ هذه المرّة، من أجل تضميد جروح قلبها.

***

في التاسعة من صباح الأحد تلقى الفاضل نوئيل يلدا السادس اتّصالاً هاتفياً من فندق نينوى أوبروي. انتظر ربع دقيقة ثمَّ سمع صوت أراسيا تقول له:

– أريدك أن تكون في مطعم بانيبال الساعة الواحدة بعد الظهر.

اقترحت عليه سيتا أن يَسْتَعْلِم من الفندق إن كانت مدام رينو موجودة، قبل أن يستسلم للمصيبة، وحين عرف أنّها لم تغادر بعد، جهَّزت له ثيابه الدينيّة الحزينة، وأعطته جرعة من زيت بذور الكتان، ونصحته بأن يتقاعد حين يأتيه قسّ الدرّاجة الهوائيّة عشيّة عيد الميلاد.

لأنّ فندق نينوى أوبروي ليس فيه سوى جناح رئاسي واحد تشغله مدام

رينو، تعمَّدت أراسيا إرباك كلِّ طاقم الخدمة في الفندق، وجعل جناح اللوكس الذي نزلت فيه يزدحم بالحركة. استدعت خيّاطتها جوليا اللبنانيّة مع مساعداتها الهنديّات، وأرسلت في طلب الصائغ حسين النجفي، وعقدت اجتماعاً مع وكيل وزير الزراعة، وقابلت أعضاء لجنة تطوير غابات الموصل، وأرسلت إلى مدام رينو هديّة عبارة عن شال حريري من صناعة مدينة فاراناسي.

صُعِقَ الفاضل برؤية أراسيا، ومدام رينو، والراهبة تيما يتناولن الغداء في ركن خاصّ في مطعم بانيبال. لم يتلقَّ على تحيَّته سوى ابتسامات آليّة، وأمرٍ من إصبع أراسيا حدَّد له الكرسيّ. أخذ مكانه مثل قطٍّ متسلِّل، بينما مدام رينو تحكي بفخر عن تعلُّق طلّاب كليّة الآداب بسان جون بيرس، وعدّت ذلك هوساً عراقيّاً خاصّاً. تعطَّفت الراهبة عليه بأسئلة تخصُّ الصحّة والعائلة، وشعر بالحرج حين جلبوا له طبقاً لا خيار له فيه يحتوي على الأرزّ الأصفر مع المكسَّرات، والخضار، وقطع من لحم الدجاج. حين بدأ يأكل بحذر شديد، لم ينل أيَّ انتباه من السيّدتين حتّى إن الراهبة انفصلت عنه بنظرها، واندمجت في حوار مرح عن ذكريات الحياة القديمة في كرمليس. كانت أراسيا، بشعرها الأشقر وفستانها الليموني المشغول بتطريزات نباتيّة ذهبيّة وملامحها الطفوليّة الدقيقة، تشعُّ هيبة، وبدت متحكِّمة بفكِّها وعينيها، فكانت ابتسامتها متوازنة مع استمتاعها بالأكل، ونظراتها تعبّر عن اهتمامها بما تسمع على عكس مدام رينو التي ظهرت مقيَّدة بتايورها الأبيض، ووجهها يظلِّله شحوب التعب. تُحرِّك شوكتها دون تركيز، وغير قادرة على كبح شهوة الكلام. ضبط نوئيل حركة مضغه مع صوتي أراسيا ومدام رينو، وفضَّل أن يتريَّث في شرب الماء رغم عطشه إلى أن تسنح الفرصة لذلك. تحوَّل الحديث بين السيّدتين إلى ما تحتاج إليه الموصل، وقرى السهل الشرقي من نشاطات خيريّة. وتكلَّمت الراهبة تيما التي لا تزال تحتفظ بآثار جمالها القديم في شفتيها الورديّتين ولون عينيها، رغم البدانة الظاهرة عليها، عن ضرورة الاهتمام بالأيتام والأرامل لأنّ الحرب أوجدت وضعاً اجتماعيّاً ضاغطاً، كما أنّ إجراءات الحكومة، وحوافزها بشأن تشجيع الزواج بالأرامل غير فعّالة بالنسبة للمسيحيين. لم يكن الفاضل نوئيل يلدا السادس قد نطق بكلمة واحدة حين نظرت إليه مدام رينو وقالت:

– جِدْ لنا بيتاً نستأجره من أجل جمعيّة خيريّة، ووظِّف محامياً مسيحيّاً من أجل الحصول على الموافقات الرسميّة.

وقبل أن يتمكَّن من التعبير عن امتثاله للأمر سألته أراسيا وهي ممتعضة ممّا قالته مدام رينو:

– كيف حال حنّا؟

لم يسعفه جمود ملامح مدام رينو، فقال وهو يتخلّى عن الشوكة والسكّين:

– هو متعلِّق بياسمين، ولكنّه يسير على نهج جَجّو.

ابتسمت أراسيا وقالت:

– نعرف هذا، ولكن ماذا بشأن القدّيسة يوليانا. هل حقّاً هو يراها؟

قال الفاضل وهو ينظر إلى قدح الماء:

– لا أشكُّ في كلامه، ولكنّي لا أملك الأدلة الكافية.

شعر الفاضل بأنّ السيّدتين اتّفقتا على فضح ازدواجيته الجاسوسيّة، وأنّ الحوار لا يخلو من إذلال متعمَّد. قالت الراهبة تيما وهي توجِّه نظراتها إلى أراسيا:

– ظهور القدّيسة يوليانا لا بدَّ من أن يرتبط بظرف ما، وبما أنّنا في حرب، فهذه نبوءة الهدف منها تبليغ رسالة للمؤمنين.

استخفَّت أراسيا بكلام الراهبة بحركة من يدها، وقالت:

– لم نكن في حرب حين ظهرت القدّيسة يوليانا لجَجّو.

ردَّت الراهبة:

– ولكنّنا كُنّا بحاجة للسلام مع أنفسنا.

قالت مدام رينو:

– جَجّو حالة استثنائيّة، وكلُّنا شهدنا تفانيه من أجل يسوع، ولأن هذا حدث لرجل لا يمكن التشكيك في نزاهته، فإنّ ما يقوله حنّا الآن يجب أن يؤخذ بجديّة كاملة.

قالت أراسيا وهي تبتسم بخبث:

– حين كُنّا نلعب الكونكان أنا وجَجّو كان الأمر تسلية عاديّة. لم أشكّ في جنونه لحظة واحدة، ولكنّ أبلحد يريد التكفير عن ذنوبه بطريقة مادّية وعلمانيّة.

ظهر عرق أزرق في جبين مدام رينو وهي تردُّ:

– جَجّو لم يكن مجنوناً، والدليل ما يقوله حنّا الآن.

ضحكت أراسيا، وقالت موجِّهة نظراتها إلى الراهبة تيما:

– كرمليس بلدة تعيش على الخرافة، وحين غادرها جَجّو ظهر العديد من المجانين الذين كلَّفتهم القدّيسة بربارة بتنظيف العالم. حنّا مراهق يعيش مع

فتاة جميلة، ومغرية، والحبّ يصنع الكثير من الأوهام. مؤكَّد أنّ شاعر فرنسا الذي تحتفي به جامعة الموصل كتب شعراً عن هذا.

بدت الحيرة على الراهبة تيما وهي تقول:

– هناك طرق عدّة للدفاع عن النقاء، ومن الخطأ مطالبة حنّا بأن يكون نسخة طبق الأصل عن يسوع.

قالت مدام رينو:

– جَجّو وحنّا لا يمكنهما خيانة الربّ.

سألتها أراسيا:

– لماذا أنت متأكِّدة هكذا؟

– لأنّني عرفت جَجّو جيداً.

قالت أراسيا ضاحكة:

– يبدو أنّ باريس لم تغيِّرك. أنا أحسدك يا مدام رينو. كان أبلحد يقول إنّ شمونيا هي خشبة الصليب، وهذا بالطبع استفزَّني في البداية، ولكن أنا الآن أتفهّم موقفك، فحين نتحدَّث عن المسيح يجب ألّا نجد أيَّ فرق بين كرمليس وباريس، ولكن حين نُنعم النظر في الحياة، فعلينا الاعتراف بأنّ ياسمين ليست أكثر من بنت تغوي حنّا الذي هو ليس جَجّو.

تساءَلت الراهبة تيما وهي تنظر إلى الفاضل:

– هل القدّيسة يوليانا ظهرت حقّاً؟... هذا هو السؤال.

قال نوئيل بثقة:

– حنّا لا يكذب.

ابتسمت مدام رينو، فعادت الراهبة تيما لتقول، وهي توزِّع نظراتها بين السيّدتين:

– القدّيسون هم سُعاة بريد الربّ.

قالت أراسيا باستخفاف:

– العالم لم يعد ينتظر بريد الربّ. الحرب ستتوقَّف بعد أشهر. قد لا تكون فرنسا على علم بهذا، ولكنّ كرمليس تعرف أكثر من الأمم المتحدة ماذا سيحدث بعد ذلك. وإذا كان لا بدَّ من التفكير بيسوع، فعلينا أن نكون قوّة اقتصاديّة. يوليانا لن تفيدنا بشيءٍ ما دامت جيوبنا خاوية. إن كان لا بدَّ من مساعدة يسوع، فلن أسهم في بناء كنيسة، بل في تكوين إمبراطوريّة اقتصاديّة.

صُدِمَت الراهبة تيما، ولاح على ملامح مدام رينو أنّها تفكِّر بردٍّ يثأر لفرنسا. أبعد الفاضل صحنه قليلاً، وقال ما يعتقد أنّه جاء إلى هنا من أجل قوله:

– حنّا لا يكذب. ومع عظيم احترامي، فإنّ تفكيرنا كلَّه يتّجه عكس ما ينبغي. نحن نفكِّر بجَجّو، وتركنا الحقيقة المذهلة، وهي أنّ يوليانا الآن تعيش في بيت ياسمين. معنى هذا أنّها تركت كنيسة القدّيسة بربارة، وذهبت إلى مكان آخر، وهذا ما يجب أن نفكِّر فيه.

قالت الراهبة تيما وهي ترتجف:

– علينا إخبار مثلّث الرحمة، فهذه قضيّة لاهوتيّة.

تساءَلت أراسيا وهي منحنية:

– وماذا يعني هذا؟

أخذ الفاضل نَفَساً عميقاً، وقال:

– يعني أنّ يوليانا الآن ليست قصّة كرمليسيّة نؤمن ونعتزُّ بها. إنّها رسالة وعلينا أخذها على محمل الجدِّ كما حدث في مدينة فاطمة البرتغاليّة في سنة ١٩١٧ حين ظهرت سيّدتنا مريم للطفلة لوسيا سنتوس وأعطتها رسالة الأسرار. يوليانا لديها رسالة وستعطيها لحنّا، وهنا على كنيستنا الانتباه، وأيضاً على الجمهوريّة الفرنسيّة، وشركة ساس الأميركيّة العراقيّة الاستعداد لحدث مهمّ.

مدَّ الفاضل يده إلى قدح الماء، ورفعه إلى فمه.

غرندايزر

استغرق فرش البيت بالسجّاد، واستبدال السخّان بآخر كهربائي، وتعليق مدفأة الحمّام، ثلاثة أيام. تعمَّدت ياسمين أخذ كلِّ هذا الوقت لأنّها كانت مستمتعة وسعيدة. أرسلت حنّا إلى سوق النبي يونس لشراء كيلوغرام من الجوز المقشَّر، وطلبت منه عدم العودة قبل الواحدة ظهراً. لم يعارضها رغم معرفته أنّ هذه الأشياء تُشترى من سوق السراي، لا من الساحل الأيسر. ارتدت بلوزة وبريّة زرقاء تشتِّت النظر فوق تنّورة عريضة سوداء، واستأجرت بالهاتف سيّارة تقلُّها إلى شارع غازي لتحقيق أوَّل مفاجأة جميلة تقوم بها في حياتها. أمرت السائق بانتظارها عند الزاوية المتّصلة بشارع النجفي. سارت بخطوات سريعة وهي غير متيقِّنة من أنّها ستعثر على الشيء الذي يناسب قلبها. وقفت عند واجهة محالّ الحاج خليل وأولاده، وألقت نظرة على ما تحمله من نقود في حقيبة يدها. كانت قد أخذت كلَّ مدَّخراتها، ولكنّها لا تعرف كم المبلغ الذي معها، ولا تملك أيَّ تصوُّر عن الأسعار. لم يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة. اشترت سجّادة قوقازيّة يدويّة الصنع بمئتي دينار تناسب مساحة غرفة حنّا الصغيرة، وعادت إلى البيت وهي منتشية. نظَّفت أرضيّة الغرفة، ومسحت الجدران، وأعادت ترتيب السرير بوجود السجّادة الحمراء الثريّة بالرسوم النباتيّة والرموز النجميّة، وحين لم يبقَ أمامها أيُّ شيءٍ تفعله سوى أخذ استراحة قصيرة، استلقت على سرير حنّا، وراحت تبكي.

***

فتحت ياسمين الباب لحنّا وعادت سريعاً إلى المطبخ. استغرب من عدم اهتمامها بالجوز الذي جلبه. بَقيَ واقفاً في جهة النافذة ينظر إليها وهي تضيف بحذر الماء إلى الطنجرة ثمَّ تضبط درجة النار. لم تمنحه الفرصة ليتحقَّق من أنّه قام بعمل أرضاها. تصنَّعت الانزعاج من ضيق المطبخ وهي تتحرَّك بين جهتين مثل كرة مرتدّة. قالت إنّها واثقة هذه المرّة من توصّلها إلى درجة هشاشة واحدة لكلِّ حَبّات الأرزّ. ثمَّ واجهته والملعقة بيدها وتابعت:

– النساء الكبيرات يحافظن طوال حياتهن المطبخيّة على خدعة النكهة البهاراتيّة الثابتة، ويُقدِّسن الأكلات القديمة التي لا تتطوَّر، ولا يجازفن بالمقادير والأشكال وطريقة الطهو أبداً، لأنّ الطعام اللذيذ هو الذي يجعل الرجل يعود إلى بيته. نشعر بالغربة والضياع إذا لم نأكل في بيتنا، لهذا فكلُّ الأشياء خارج البيت هي نزوات عابرة. لقد عشت حياتي الأولى تحت منضدة مطبخ، وكنت أسمع كلَّ الوصايا التي توجِّهها الخالة بتول بقلاوة إلى بناتها العاهرات. لا تظنّ أنّنا بلا تربية، وبلا أخلاق، وبلا قلق، وبلا حرص. نحن نعيش لزمن قصير جدّاً كعاهرات، ولكن كلَّ النساء سواء كُنَّ طفلات، أو مراهقات، أو عاشقات غبيّات، أو عانسات قبيحات، هُنَّ أمّهات فقط.

أعطته ظهرها دون أن تذكر الجوز، وقالت:

– اذهب وغيِّر ثيابك.

خُيِّل لحنّا أنّه يرى صورة غير حقيقيّة. كانت السجّادة قد غيَّرت درجة الرطوبة، وأنعشت بياض الجدران، وأخمدت، فور دخوله إلى غرفته، إحساسه بالبرد الذي رافقه طوال رحلته إلى سوق النبي يونس. هبط بركبتيه على الأرض، ومرَّر أصابعه بحذر على السجّادة ثمَّ داس عليها بكفِّه، عندها شعر بملمس جديد تماماً، فعرف أنّ هذه السجّادة نزلت من السماء. غيَّر ثيابه بسرعة، وارتدى البدلة الرياضيّة الفوسفوريّة التي بأشرطة بيضاء على طول الذراعين، وحين تأكَّد من أنّه بوضع لائق قال بأنفاس خاشعة:

– أيَّتُها الطوباويّة المقدَّسة.

امتلأت الغرفة بالضوء الأبيض ثمَّ تضاءل إلى وهج ذهبيّ انحسر عن يوليانا:

– أهلاً حنّا.

نظر إلى الأرض، وقال بارتباك بينما القدّيسة تجلس على السرير:

– ستسألني ياسمين عن السجّادة، ومن أين جلبتها. لقد اتّفقنا على فرش البيت بعد عودتي من السوق.

قالت يوليانا، وهي تضع يديها في حجرها:

– لن تسألك.

ابتسمت مستدرجة خجله السعيد، ولكنّ وجهه تغطّى بظلال الأفكار. سألها وهو يُمسك يده اليسرى من المعصم:

– ستختفي السجّادة حين تذهبين؟ وهكذا لن تعرف ياسمين بها.

– أنا بلا جسد يا حنّا.. لا أقدر على حمل سجّادة.

سألها مجدّداً:

– هل ستجعلين ياسمين غير قادرة على رؤية السجّادة؟

ردَّت يوليانا بخيبة:

– لا أستطيع فعل هذا.. حياتك هي المعجزة يا حنّا.. أنا لا أرى ما خلف الجدران، ولا أعرف بماذا تفكِّر، ولا أدرك الغيب. هذه أشياء يفعلها الله فقط.

– سأقول لها إنّ أبلحد أهداها لي.

رفعت يوليانا يدها محذِّرة:

– إذا كذبت، فلن تراني.

فقد حنّا السيطرة على أطرافه، فعادت يوليانا لتقول:

– قلبي لم يعد ينبض بالحياة، ولا أملك نقوداً لشراء سجّادة كهذه.. إنّها غالية وجديدة.

جلس على السرير. خُيِّل إليه بلمحة خاطفة أنّها دنت منه، أو أنّه خُدِعَ بالمسافة التي كانت بينهما. تنفَّس رائحة مختلفة، وهو يسألها:

– أليس الله وأنتِ من فعل هذا؟

ردَّت يوليانا ببياض مرتبك:

– الله يملك كلَّ شيء، ولكنّه يُعطيك رزقاً لكي تتصرَّف.. ليس الله من اشترى لك هذه السجّادة يا حنّا، بل ياسمين.

نظر في عينيها، فتجسَّدت له زرقتُهما، وتكشَّفت مع كلامه ملامحها البشريّة:

– أنا أرى، وأسمع ما حولي، ولكنّه ليس كالذي أسمعه في نفسي وأراه في داخلي.. الذي حولي ليس لي، والذي لي لا يمكنه أن يكون حولي. أنا حنّا الذي

أعرف، وحنّا الذي تعرفون، فمن منّي هو أنا؟
أمرته مبتسمة:
– اذهب واشكرها.
سألها وهو ينهض:
– أين تذهبين أيَّتُها القدّيسة حين أودّعك في كلِّ مرّة؟
ردَّت مبتسمة:
– أصعد إلى سطح البيت لأنّ جَجّو هناك. نجلس لنتحدَّث عنك، وعن شمونيا، إلى أن تستدعيني مرّة أخرى.
وجدها في المطبخ تدخِّن بجوار النافذة الصغيرة المفتوحة ذات الزجاج المدهون باللون الأزرق والتي تُطلُّ على الزقاق. شكرها وهو مستغرب من حزنه. لم تكن تنتظر منه هذا، فقد تلاشت كلُّ تصوُّراتها عن اليوم، وبدأت تشعر بترهُّل الوقت. تذكَّر ملابسه الجديدة، فقال لها وهو يدنو منها مقلِّداً وقفتها المائلة:
– هذه المرّة الأولى التي أملك فيها سجّادة جديدة.
قالت بتوتُّر وهي تنظر إلى الزقاق:
– ليست جديدة. فرشت غرفتك لأنّها لا تحتاج إلى جهد كغرفتي أو الهول.
– ولكنّ القدّيسة يوليانا قالت إنّها جديدة، وغالية، وإنّك أنتِ من اشتراها.
سألته بتشنُّج:
– هل قالت هذا في الراديو؟
ردَّ وهو غير قادر على الثبات:
– قالته في غرفتي قبل قليل. لقد جاءت معي من كرمليس.
– أنت تشبه جَجّو، وهذا يزعجني يا حنّا.
حين لحق بها إلى الأريكة وجدها تداري ابتسامتها متجنِّبة النظر إليه. سألته وهي تلفُّ حزام روبها الإسفنجي الأصفر حول معصمها:
– هل أعجبتك السجّادة؟
ردَّ وهو يميل نحوها:
– إنّها جميلة جدّاً، وغالية. لقد ظننت أنّها نزلت من السماء، ولكنّ القدّيسة يوليانا قالت إنّها لا تملك النقود لشراء سجّادة كهذه.
غصَّت ياسمين بضحكة جعلتها تنطوي على نفسها، فعاد حنّا ليقول بجديّة:

– كنت أتمنّى لو رآها جَجّو، ولكن يبدو أنّه لا يستطيع النزول من السطح. القدّيسة ستحكي له عن السجّادة، وستصفها له حين تصعد إليه.

حرَّكت ياسمين ساقيها في الهواء وهي تضحك بعنف. شاهد حنّا الدموع في عينيها. ضغطت بذراعيها على بطنها، ومسحت بظاهر كفِّها خيط اللعاب الذي بين شفتيها، ثمَّ سألته وهي تشير بإصبعها نحو الأعلى:

– جَجّو في سطح بيتنا؟

ردَّ بملامح جامدة:

– نعم هذا ما قالته القدّيسة.

غطَّت وجهها بكفّيها إلى أن هدأت تشنُّجاتها، وقالت:

– لولا جنونك يا حنّا لكنت انتحرت.

قال وهو ينظر إلى أظفار قدميها الملوَّنة بالأحمر:

– القدّيسة طلبت مني أن استشيرك بشأن ما أريد أن يحقِّقه الله لي. هي قالت إنها ستدعو الله من أجلي كي يحقِّق أمنيتي. أنا تمنّيت أن تقف الحرب، ولكنّها طلبت أن أستشيرك.

مسحت ياسمين عينيها وقالت:

– لا توجد أمنية أفضل من هذه. أنت لست مريضاً، ونحن نعيش بسعادة في بيتنا. وقف الحرب أمنية جيّدة لأنّها تنقذ الناس من الموت.

نهضت وأخذت تعيد شدَّ حبل الروب حول خصرها. قالت وهي تمسح أنفها:

– يبدو أنّني شبعت من تذوُّق الأرزّ. سأذهب لأنام في سريرك يا حنّا. أيقظني حين تبدأ فترة برامج الأطفال في التلفزيون.

***

في السابعة صباحاً خرج حنّا إلى بيت تريزا دون أن يتناول فطوره، أو يشرب الشاي. الشعرة التي وجدها على وسادته لم تدعه ينام طوال الليل، ولأنّ القدّيسة يوليانا ليس لها جسد، فقد تلوّى في فراشه متعذِّباً من يقين أنّ ياسمين معه في السرير.

كانا قد اتّفقا على الاستعانة بالفاضل نوئيل يلدا السادس من أجل شراء السخّان الكهربائي الجديد، وقالت ياسمين إنّها ستترك له نقوداً تحت وسادتها بإمكانه التصرُّف بها كما يشاء شرط أن ينجز كلَّ شيء قبل عودتها مساءً، وطلبت

منه ألّا يأكل خارج البيت، لأنّها ستسلق له دجاجة، وتضعها في الثلاجة قبل خروجها.

وجد حنّا تريزا مستلقية في غرفة القعدة ومتدثِّرة بلحاف أبيض بحافات بنفسجيّة. قالت له إنّها ستموت وهي حاقدة على جَجّو لأنّه لا يأتيها في الحلم منذ مدّة طويلة، فأخبرها أنّه مشغول الآن مع يوليانا لأمرٍ مهمٍّ، وسيعود إلى حلمها حين يفرغ. سأل حنّا وارينا إن كانت تملك علبة صغيرة يمكن وضع شيء صغير فيها. عرضت عليه علبة خاتم على شكل قلب، شفّافة الغطاء وفي بطنها إسفنجة. فرح كثيراً، ووعدها بهديّة ثمَّ طلب منها الاتّصال هاتفياً بالفاضل نوئيل كي يستعدّ للخروج معه. كان الهاتف موضوعاً في حامل على شكل برج إيفل من الخيزران يصل طوله إلى الخصر. تُخرجه تريزا في الصباح من حجرتها وتضعه في الحوش، وآخر فرصة له في الرنين هي الساعة التاسعة ليلاً. نظر حنّا من الشباك، فشاهد وارينا تتأرجح راقصةً بين باب غرفة تريزا وبرج إيفل، وعلى وجهها ابتسامة بريّة.

في العاشرة سارا معاً باتجاه شارع خالد بن الوليد. كان الفاضل يُعاني الزكام وحائراً في كيفيّة تنسيق ارتباطاته التي خرَّبها حنّا، أصرَّ على أن يسيرا في شارع السرجخانة. توقَّف لشراء حبوب FLU-OUT من صيدلية زينة، وقال إنّ عليه دائماً شراء الدواء من امرأة فائقة الجمال لأنّ هذا نصف الشفاء. وحين دخلا إلى شارع النجفي سأله:

– كيف حال القدّيسة يوليانا.. هل تراها؟

أجاب حنّا وهو يلتصق بالفاضل متفادياً صبيّاً يحمل على رأسه صينيّة حلاوة الطحينيّة:

– إنَّها بخير.. هي تظهر حين أريد.

قال نوئيل بصوت مضغوط:

– حين خدم جَجّو في الكنيسة كان يعيش على أمل أن تشفيه القدّيسة بربارة. كرمليس شعرت بالخيبة وقتها لأنّ بركة حارس الذخائر لم تتحقَّق. أتمنّى أن تنجح يوليانا معك وتشفيك.

قال حنّا وهو يشعر بألمٍ في ركبتيه:

– أنا أريد أن تتوقَّف الحرب كي لا يموت المزيد من البشر.

دخل الفاضل إلى مطعم لحم بعجين وبلع حبّة FLU-OUT بقدح ماء. اختلف الجوُّ في منتصف الشارع حين بدأت المكتبات بالظهور على الجانبين، وأخذت أصوات المطابع تصلهما من روافد الأزقّة الضيّقة. قال الفاضل بصوتٍ فيه شفقة:

– عليك أن تفكّر بنفسك يا بُنّي، وتنتهز الفرصة. يوليانا صديقتك الآن، ويمكنك من خلالها تحقيق مكانة عظيمة، وفائدة كبيرة.. هي تستطيع أن تهبك قدراتها، فتخرج الشياطين من جسد ياسمين، وتجعلك تقدر على معالجة الأمراض، ويمكنها أن تشفيك بلمح البصر، وتجعلك أقوى من غرندايز إذا أحببت.

قال حنّا وهو يتمهَّل:

– يوليانا تريد أن أطلب شيئاً تتوسَّل فيه إلى الله من أجل أن يحقِّقه لي بينما ياسمين وأنا نريد إنهاء الحرب.

توقَّف الفاضل عن السير ممسكاً حنّا من ذراعه:

– أنا أستطيع إقناعها بإيقاف الحرب. حدِّد لي موعداً معها، وسأبذل جهدي من أجل ألّا يموت المزيد من البشر.

***

بدأ السخّان يعمل في الساعة الثانية بعد الظهر، وأثبتت المدفأة الكهربائيّة أنّها مناسبة للحمّام. انفعل الفاضل ووبَّخ حنّا الذي لم يكن يحمل نقوداً عندما وصلا إلى شارع خالد بن الوليد لأنّ ياسمين كانت نائمة حين خرج من البيت، لذا اضطرّا إلى تغيير وجهتهما نحو سوق هرج والاستعانة ببائع الخردوات يعقوب دقّي الذي أرسلهما إلى متخصِّص في السخّانات قام بكلِّ العمل وقبض نقوده من حنّا بعد أن اشتعل الضوء الأحمر في السخّان. أكل حنّا أجنحة الدجاجة والقليل من لحم الصدر ثمَّ استدعى يوليانا، وأخبرها برغبة ياسمين في إنهاء الحرب العراقيّة – الإيرانيّة. طلبت منه إعادة المحاولة معها بعد أسبوع، فربَّما تُغيِّر رأيها. شعر حنّا بالخمول، وقال إنّه يفقد قدرته على التفكير الجيّد إذا ما احتار بين أمرين، وسألها إن كانت تقبل بلقاء الفاضل نوئيل يلدا السادس الذي يريد هو أيضاً إقناعها بإيقاف الحرب.

دعته إلى الجلوس بقربها على السرير، وقالت:

– أنا لا أملك القدرة على هذا يا حنّا.

قال وهو يراها حقيقيّة تماماً:

– لو أنا بقوّة غرندايزر لاستطعت إيقاف الحرب بمفردي.

– من هو غرندايزر؟
ردَّ بحماسة:
– دايسكي.. دوق فليد.
قالت بخجل:
– لا أعرفه.
سألها وهو ينظر إلى أصابعها البيضاء:
– هل تستطيعين إخراج الشياطين من جسد ياسمين.
تراخى صوتها، وهي تقول:
– يسوع فقط من بيده معجزة الإيمان. آسفة لأنّني خيَّبت ظنّك. أنا لا أملك أيَّ قدرة سوى مواساتك. لم أكن قد بلغت العشرين حين أحببت الله وتعذَّبت من أجله. أليست الحقول، والطيور، والينابيع، والأشجار، والشمس محبّة من الله لي، فاذا ما أعطيته روحي التي خلقها هو فهل أكون قد أعطيته شيئاً؟.. من الذي يتعب في الزرع يا حنّا نحن أم البذرة والتراب والغيوم والشمس؟ نحن نجلب إلينا ما مقدَّر أن يكون لنفسه، فاذا ما بارت أرضنا التي ليست لنا، فإن الأرض التي ليس فيها إنسان ستخْضرُّ وتُنبت الثمار. نحن نأخذ ولا نعطي، نملك ولا نسأل عن العدالة، فإذا كنت تريد أن تُشفى من عوقك فستُشفى، ولكن لا تقل أنا أحبّ الله.

عادت ياسمين في الثامنة مساءً. بدت يابسة، وغائبة عن الواقع. تحرَّكت في اتّجاهات عشوائيّة مثل لعبة تتحسَّس الصدمات، ثمَّ نادت حنّا، وأخذت تخلع ثيابها بباب غرفتها حتّى أصبحت عاريةً تماماً. سارت إلى الحمّام متلمّسة الحائط، فشاهد حنّا خدوشاً على إليتيها. جمع ثيابها وألقاها في السلّة الصفراء. اقترب من الحمّام، ودمه يتدفَّق بقوّة حارقة. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يتخيَّل فيها ما يُفترض أن تكون فعلته طوال تغيُّبها عن البيت. عاد إلى غرفتها، وانتقى ملابسها وهو حزين. أخذ منشفة إضافيّة، وانتقل إلى غرفته. وضع ملابسها على سريره مبقياً المنشفة تحت إبطه.

كانت ياسمين ضائعة في بخار الماء حين دخل حنّا الحمّام. علَّق المنشفة خلف الباب، وخلع بدلته الرياضيّة مع الفانيلة وبَقيَ بالبوكسر. حوَّل الماء من الدوش إلى خلّاط الحنفيّة، وسحب ياسمين من ذراعها، وأجلسها على تختة بلاستيكيّة دفعها بقدمه إلى منتصف الحمّام. أزاحت ياسمين شعرها عن

عينيها، ولم تقل شيئاً. وقف حنّا خلفها عاصراً علبة الشامبو فوق رأسها. سكب القليل من الماء من طاسة خضراء، وبدأ يلمُّ شعرها بأصابعه مكثِّراً الرغوة، وممشّطاً فروة رأسها. استسلمت له وهي مسترخية. كانت أصابعه تتحرَّك ببطء، وبلمسات خفيفة مرجعاً الرغوة إلى الأعلى مدلّكاً رقبتها وكتفيها. عثر على شامة بالقرب من منبت ثديها الأيسر، وعلى بقعة صغيرة ورديّة عند خط عمودها الفقري. كانت منحنية إلى الأمام حين دسَّ ذراعيه تحت إبطيها. أحسَّت بأنفاسه وهو يرفع ثدييها بكفّيه ثمَّ يطوف بأصابعه حولهما. كرَّر الأمر بضغط خفيف فعرفت أنّه أحبّ انزلاقهما من بين أصابعه. شدَّ بكفّيه على ثدييها وكأنّه يريد معرفة حجمهما بين ضغطهما بالسوتيان وبين شكلهما الحرّ. دفع حلمتها اليمنى إلى الداخل بحذر، وخدّه يلامس خدّها. مال رأسها إلى الخلف وهو يحصر حوضها بركبتيه بينما إصبعه يلج سُرَّتها العميقة. عاد إلى رقبتها وكتفيها، فأدركت أنّه يعرف مواقع بقع البرد في جسدها. أخذت تصغي للماء المتساقط على الأرض فاتحة عينيها للبخار الجديد الذي يأتيها من الجانبين. وحين ابتعد عنها رأت القضيب الأحمر لمدفأة الحائط. أغلقت فمها، وأغمضت عينيها حين أخذ يسكب الماء على رأسها. كانت زفرات حنّا مسموعة، وتنقُّلاته حولها لها وقعٌ أليف. وقف قبالتها فرأت البوكسر الأبيض المبلَّل يجسّم عضوه. أعطاها يده، فنهضت مستندة إلى كتفه. لم ترَ صابونة الغار، ولكنّها أحسَّت بثقلها وهو يمرِّرها على مهبلها داخلاً بها إلى ما بين ساقيها. شعرت بحافة الصابونة تضغط على بظرها وزاويتها تدخل فيها. كرَّر ذلك بقوّة أكبر كما تمنَّت. كانت تعرف أنّه يراقب وجهها بينما هي مغمضة العينين. لم يلتصق بها لكنّها شعرت بغضبه. حافظت على استسلامها رغم أنّها تودُّ أن تبكي. دار حولها ثمَّ وقف خلفها، حشر حافة صابونة الغار بين إليتيها وحركها صعوداً ونزولاً وهي تنظر إلى القضيب الأحمر للمدفأة. مسكته لكتفها كانت تدلُّ على حزن غاضب. سحبها من ذراعها، وانحنى محوِّلاً الماء إلى الدوش. وقفت وحدها تحت الماء الحارّ وهي واثقة من أنَّه يتألَّم.

لم يقل أيَّ شيء. قرَّبها إلى المدفأة. وضع عليها ثلاث مناشف. أبقاها واقفة ووجهها نحو الحائط. خلع البوكسر، وجفَّف نفسه، وارتدى بدلته الرياضيّة ثمَّ أخذها إلى غرفته. كان ينظر إلى قدميها وهو يعاونها على ارتداء ملابسها. كانت رائحتها الجديدة تفوح في كلِّ حركة تقوم بها. طلبت منه جلب المشط الخشبيّ من غرفتها. سألها قبل أن يخرج:

– هل أنت جائعة؟
نظرت إليه طويلاً ثمَّ سألته:
– هل تريد أن تنام معي يا حنّا؟
قال وهو يفتح الباب:
– كلّا.. أريد فقط أن تعطيني الشعر الذي سيعلق في المشط.

سرير حنّا

أيقظته في السادسة صباحاً. وجد أنّها فرشت قطعة من فروة الخروف في الفراغ بين الباب والسجّادة. وفي طريقه إلى الحمّام انتبه إلى أنّ ضوء سُلَّم السطح كان مضاءً، وأحذيتهما غير موجودة عليه. نادته من المطبخ، فلحق بها آخذاً منها إبريق الشاي. جلسا على السجّادة وبينهما الصينيّة المستطيلة. أكلا البيض بالتمر وشربا الشاي. لم تنظر في عينيه. كانت ياسمين تبدو لامعة الوجه، وحيويّة أكثر من المعتاد. سألته إن كان تضايق من النوم بطريقة متعاكسة على السرير. ردَّ بأنّها المرّة الأولى التي يهرب فيها رهبان دير الربّان هرمز من أحلامه. كتمت ابتسامتها بقطعة من الخبز دسَّتها بين شفتيها، وفضّلت ألّا تتكلَّم عن ضربات ساقيه تحت البطانيّة التي جمعتهما معاً. قالت إنّها صعدت إلى مخزن السطح حين استيقظت في الخامسة، وإنّ عليهما إنزال السجّادة الكبيرة، وبعض البسط. هزَّ حنّا رأسه موافقاً، فقالت وهي تميل مسندة ذراعها إلى سريره:

– أريد أن أبقى في غرفتك يا حنّا، وننام كلَّ يوم بطريقة متعاكسة على سريرك. قد تكره هذا، وتتضايق منه بعد يومين، أو ثلاثة، ولكنّ هذا يشعرني بالأمان. كُنا ننام هكذا تحت منضدة مطبخ بتول بقلاوة، وكُنّا نضحك كثيراً. كنتُ أظنّك تتعمَّد ضرب وجهي بقدمك، ولكنّ أمّي قالت إنك تُحرِّك قدميك وذراعيك بهذه الطريقة لأنّك تحبّ أن تطير.

قال وهو يتأرجح مثل حصان خشبي:

– نعم.. نعم أنا أحبّ أن أطير.

وضعت يدها على ركبته كابحة حركته، وبالأخرى أبعدت قدح الشاي من أمامه. قال حنّا بأنفاس متقطِّعة:

– نعم ستبقين هنا في الغرفة، ويمكنك أخذ الذهب إذا أحببت. خذيه كلَّه.

أبعدت يدها عنه وهي تسأله بملامح منكمشة:

– عن أيِّ ذهب تتكلَّم؟

أشار حنّا إلى الحقيبة التي فوق الخزانة، وقال:

– ثروة جدّي أبلحد الحقيقيّة. إنّها في الحقيبة. خذيها وسنبقى هنا.. نعيش هنا في غرفتي. لا أريد أن تعملي شيئاً يشعرك بالحزن، أو يؤذيك، وسأطلب من القدّيسة يوليانا أن تدعو الله كي يحمينا، ونبقى هكذا إلى الأبد، ننام، ونأكل هنا، ونشرب الشاي.

بقيت ياسمين جامدةً، تنظر إليه بخيبة. نهض حنّا. قطع خطوة عريضة وهو لصق خزانة الملابس متجنِّباً الصينيّة. رفع كعبيه وأمسك بمقبض الحقيبة. بان ظهره وهو يسحبها مسنداً إيّاها، من وسطها، بكفِّه. وضعها على سريره. دفع الصينيّة فاختفى نصفها تحت الخزانة. نظر إلى الحقيبة وهو ينشر ذراعيه مثل ساحر. فكَّ الأحزمة وفتح القفل. ظهرت السبائك الذهبية الخمس لامعةً وسط قماش من القطيفة الحمراء. شهقت ياسمين وهي تطلُّ برأسها ناهضةً على ركبتيها. لم يتوقَّع حنّا أن يكون منظر الذهب أخّاذاً، ومُشعّاً إلى هذا الحدِّ، فهذه هي المرّة الأولى التي يفتح فيها الحقيبة منذ أن عاد بها من كرمليس. شدَّهما البريق، والختم الدائري الذي في وسطه رسمة أسد. فاحت عفونة جلد الحقيبة وهما يُطلّان برأسيهما على عمقها.

قالت ياسمين:

– هذا ذهب.

ردَّد حنّا مقلِّداً خامة صوتها:

– هذا ذهب.

تحرَّكت ياسمين ملتصقة بحنّا الذي استند بذراعيه إلى السرير بينما أنفه يصدر صفيراً. صعد ثديها على مرفقه وهي تقول:

– إنّه يشبه الذهب الذي شاهدناه في فيلم برنامج سينما الأطفال قبل أسبوع.. فيلم «القراصنة» هل تذكره؟

ردَّ حنّا:

– نعم.. إنّه ذهب سينمائي.

توتَّرت ملامحها وقد عاودها الشكُّ:

– إذاً هو سينمائي كما تقول، فهو غير حقيقي.

رفع حنّا سبيكة وأعطاها لياسمين التي أخذتها بكفّيها وتفحَّصتها. قالت مرتجفة:

– إنّه ذهب حقّاً.

قال حنّا بثقة:

– إنّه ذهب سينمائي حقيقي.

قلَّبت السبيكة بين يديها متعرِّفة إلى وزنها. فعاد حنّا ليقول:

– كلُّ هذا الذهب لك.. خذيه كلَّه.

قرَّبت أنفها من أنفه هامسةً:

– ماذا أفعل به. هذا ذهب يا حنّا.

– خذيه، ولا تخرجي للعمل، ودعينا نعِشْ في هذه الغرفة، وننَمْ متعاكسين على السرير. أنتِ مريم المجدليّة وأنا خادمك.

سألته وهي تعيد سبيكة الذهب إلى الحقيبة:

– من هي مريم المجدليّة؟

– امرأة آمنت بالمسيح.

استدارت جالسة على الأرض، وظهرها على السرير:

– أنا لست مسيحيّة يا حنّا.

سألها وهو يقلِّدها في جلستها:

– ألا تؤمنين بالمسيح؟

ردَّت وهي تعصر أصابعها:

– أمّي حكت لي قصّة المسيح، وأنا أؤمن به، وأؤمن كذلك بالمسلسلات الدينيّة التي يعرضها التلفزيون. أنا لا أعرف الكثير عن هذا، ولكن أيُّ شيءٍ فيه عدالة، وخير، وحبّ، ورحمة أحبّه، ويبكيني حين أشاهده.. أنا أحبّ قصص الأنبياء التي في التلفزيون، ولكن لا يمكن أن أكون مثلهم لأنّني فتاة سيّئة.

شاهدها تنكمش مقاطعة ذراعيها على صدرها. قالت وهي تشدُّ على رقبتها ياقة بيجامتها:

– أنت تملك ثروة الآن.. لست بحاجة للعمل معي.

تردَّد حنّا في وضع يده على كتفها. التفتت إليه، فرأى الحزن في عينيها. قال بصوت متكسّرِ:

– بالدنانير التي تعطينني إيّاها أستطيع شراء سمسميّة، أو شرب السحلب في مقهى المصريّين، ولكن لا أستطيع فعل هذا بالذهب الذي معي. دنانيرك لها قيمة، أمّا هذا الذهب، فلا أستطيع وضعه في جيبي.. هل أنت بردانة؟

– نعم.

سحب حنّا البطانيّة. أسدلها على كتفيهما، فشدَّت ياسمين طرفها وهي تلتصق به أكثر. أغلقا الفتحات بقدميهما، ونظرا معاً بجمود إلى خزانة الملابس. شبكت ذراعه تحت البطانية، فشعر بليونة ثديها.

قالت وكتفها خلف كتفه:

– أحب هذه الغرفة لأنّها صغيرة. علينا شراء مدفأة حائط، والكثير من الشراشف المنقوشة الجميلة. هل تحبّ أن أصنع لك وسادة من ريش؟

حاول حنّا أن يتذكَّر المسلسلات الدينيّة التي تحبّها ياسمين، ولكنّ عضوه انتصب. سألته مجدَّداً:

– أتحبّ الريش أم الصوف؟

ردَّ وهو يلاصق ساقيه:

– أحبّ ما تحبّين.

مال رأسها على كتفه، وقالت باسترخاء:

– أنت تتكلَّم مثل أبطال الأفلام. واثق من نفسك.. أنا أخاف من الغد. في أيِّ لحظة قد يدخل أحدهم، ويأخذك من هنا. أنت تعرف هذا، وتحاول تأخيره قدر استطاعتك، ولأنّك طيّب القلب تريد إعطائي الذهب كي لا أشعر بالخسارة.

أمسك حنّا بيدها قائلاً:

– لا أعرف إن كانت القدّيسة يوليانا ستغفر لي هذا. ما أفكِّر به هو أنّني لا أريدك أن تتألَّمي. أنا لا أنظر إليك كما تنظرين أنت إلى نفسك. أنا أيضاً من أسرة بتول بقلاوة. لقد وُلدنا معاً تحت منضدة المطبخ، والآن نعيش معاً في هذا البيت، ولكي نبقى هكذا إلى الأبد عليك أخذ الذهب.

قالت وهي تقبض على ركبته:

– لا تكن جحشاً يا حنّا. لا أحد يقدّم الذهب لعاهرة. أنت توجعني بكلامك. هو ذهبك ويجب أن تمنحه لامرأة تكون لك وحدك. ماذا أفعل بهذا؟.. أنت حمَّمتَني

أمس لأنّك تراني نجسة. تُجاملني في الدجاجة التي أسلقها. أنت لا تأكل جيّداً. لا تحبّ حلاوة الشعريّة. تُطيعني، ولا تُريدني أن أرضيك. إن كنت تحبّ الأجنحة فقط قل هذا، ولا تتركني أتألَّم. أنت لم تقل لي أبداً إنّ الكُبّة التي أصنعها تُعجبك. لم تشتهِ الدولْمة من يدي ولا حتى شوربة العدس. أنت لا تحبّ يدي.

شدَّ على أصابعها وهو يقول:

– في الدير قالوا لي إنّ الطعام لحمد الربّ وشكره وليس للشهوات. أمس حين لمست جسدك عرفت لماذا نأكل، وننام، ونشرب الماء، ونتنفَّس. الناس ومنهم أنت يعرفون الكثير من الأشياء، أمّا أنا فلا. لم أكن أعرف أنّنا يمكن أن نعيش الحياة بالطريقة التي نِمْنا بها على السرير. حنّا دائماً في ورطة كبيرة.

قالت وهي تسحب يدها:

– لأنّ حنّا ليس أكثر من جحش.

تكاثرت في رأسه صور أمس حين كانت ياسمين عاريةً بين يديه. لو لم يُحَمِّمْها لما كانت الآن ملتصقة به. قال وهو يكافح انتصاب عضوه:

– أخشى أن أكذب، فلا تظهر القدّيسة يوليانا.

– لا تتكلَّم مثل جَحّو.. أنا أكره هذا.

قال وهو يحرِّر البطانيّة من تحته:

– أنا أتكلَّم مثل حنّا.. منذ أن ظهرت لي القدّيسة يوليانا ولساني يقول ما لا أعرف. كلماتي أكبر منّي.

قالت ياسمين وهي تفتح البطانيّة وتنهض:

– لنصعد إلى مخزن السطح، وننزل السجّادة الكبيرة.

نظرت إلى الذهب وقالت:

– خذ حقيبة الذهب إلى بيت تريزا. ربما أتأخَّر هذه الليلة في العمل. سأتّصل بك هاتفيّاً وأبلغك.

سألها:

– لماذا لا تصدِّقين حنّا؟

– لأنّ حنّا مجنون كأبيه وأجداده.

سألها:

– هل تريدين رؤية القدّيسة يوليانا؟

سحبت الصينيّة المستطيلة ووضعت عليها إبريق الشاي وهي تقول بجديّة:

– أريد أن تصعد معي إلى السطح كي ننجز عملنا بسرعة وتذهب بعدها إلى السوق.

نهض حنّا. رفع البطانيّة وألقاها فوق حقيبة الذهب. عدَّل بنطال بدلته الرياضيّة وقال وهو يتراجع بظهره نحو ياسمين:

– أيَّتُها القديسة الطوباويّة.

امتلأت الغرفة بالضوء الذي غيَّب حنّا عن بصر ياسمين للحظات ثمَّ تراجع عن يوليانا المؤطَّرة باللمعة الذهبيّة. فقدت ياسمين توازنها وهي تشهق فسقط منها غطاء إبريق الشاي قبل أن يمسك بها حنّا، ويأخذ الصينيّة ويضعها عند قائمة السرير. بدت ياسمين مضغوطة الأضلاع، وكأنّها مسمَّرة على الباب، وقد عصر الرعب وجهها.

قالت يوليانا مبتسمة:

– أهلاً ياسمين؟.. كيف حالك؟.. أنا يوليانا التي يتحدَّث حنّا عنها. أنا سعيدة لأنّنا التقينا.

أمسك حنّا بيد ياسمين قائلاً:

– هي ترفض أخذ الذهب وتقول كلاماً لا أفهمه.

نظرت يوليانا إلى ياسمين المتيبِّسة عند الباب وقالت:

– حنّا يتكلَّم من وحي قلبه، وعليك قبول هذا.. حين نحبّ شخصاً نزهد فيه.. هو يحبّك أكثر من دجاجتك المسلوقة. حين مُتُّ في سبيل الله تركت الطعام، والفواكه، والينابيع، والربيع، والمطر، وكلَّ شيء وهي من صنع يد الله. نحن نخشى الذي نحبّ إلى درجة أنّنا نأكل الأجنحة فقط. لقد وهبك ما يملك لأنّك حَيّة مثله، ولو كنت قمراً، أو شمساً، أو حتّى حجراً عاديّاً لأنكر المسيح من أجلك.

أخذت ياسمين تتنفَّس بسرعة من فمها، وهي عاجزة عن الكلام. تساءل حنّا:

– لا أعرف إن كنت أغضبت الربّ في ما فعلت، ولكنّ ياسمين تريد النوم في سريري، وأنا أعطيتها الذهب كي لا تتألَّم.

قالت يوليانا:

– اسأل نفسك أوّلاً إن كانت محبّتك محبّةً عندها لن تسأل الربّ عن غضبه. لا شرَّ في الألفة، ولا خطيئة في أن يحتمي أحدكما بالآخر. آوَتْك فآوِها. آمنت بك،

فكن في ظلِّها. لا معجزة في الكون بلا بشر، ولا بشر بلا حبّ. الإيمان عِشْقٌ يا حنّا، والمجدليّة أحبَّت يسوع لأنّها لمست ظهره. الحبّ نعمة لا تحاسب، ولا تعاقب، ولو أنّ رجلاً ظهر لي وعشقته قبل الربّ لما استُشهدت في سبيل الله.

سألها وهو يشعر بنبض يد ياسمين:

– هل تباركيننا أيَّتُها القدّيسة؟

قالت يوليانا مبتسمة:

– أنا من يحتاج إلى بركتك يا حنّا.. قُلْ لنوئيل أن يأتي إلى بيت ياسمين كي يراني. لن أتكلَّم وعليه أن يصمت.

أربع بيضات وطحينيّة

سجَّل الفاضل نوئيل يلدا السادس شهادته، وأقسم أمام المطران أنّه قابل القدّيسة يوليانا برفقة المؤمن حنّا جَجّو بنيامين في بيت الآنسة ياسمين ياسين الكائن في منطقة الدوّاسة في مدينة الموصل، وذلك في يوم الخميس المصادف 5/1، وأنّ السيد حنّا جَجّو بنيامين طلب من القدّيسة الظهور للعلن، فاستجابت له وظهرت بهيئة نورانيّة مؤطَّرة بشعاع ذهبي، وكانت تبدو صغيرة السنِّ، ولم تبلغ العشرين بعد. وحين سأله المطران عن سبب عدم حضور حنّا لتقديم شهادته قال الفاضل إنّ السيد حنّا يعتبر القدّيسة صديقة شخصيّة، ولا يودُّ تكبير الموضوع.

كرَّر الفاضل شهادته بعدها بساعتين أمام مجلس خورنة كرمليس بحضور راعي كنيسة القديسة بربارة، والسيدة أراسيا إسماعيل دنحا، وحين وجَّه إليه السؤال نفسه قال إنّ السيد حنّا يعتبر إنكار الكنيسة لمزايا جَجّو الإيمانيّة بمثابة إهانة جسيمة، وإن المطرانيّة سبق لها أن أصدرت بياناً إيمانيّاً يُكذِّب الرائي جَجّو، لذلك فحنّا يظنّ أنّ ظهور القدّيسة يوليانا له يعدُّ مسألة تعاطفيّة شخصيّة، ولا يحمل أيَّ مدلول رسائلي، بينما الحقيقة غير ذلك تماماً. وحين طلب منه مجلس الخورنة الروحيّة توضيح قصده قال الفاضل إنّ القدّيسة لم تظهر في بيت جَجّو، كما يفترض المنطق، بل ظهرت في بيت الآنسة ياسمين التي هي ليست مسيحيّة، كما أنّها على علاقات مشبوهة مع ضباط في الجيش، وهذا يدعو إلى الشكِّ، وهو في هذا الاستجواب الإيماني يقرُّ بإخفاء الكثير من المعلومات عن المطرانيّة آخذاً في الاعتبار أنّ أبرشيّة الموصل كلَّها عرضة

لاستراق السمع. وبما أنّ كرمليس لم تخطر ببال الربّ منذ مدّة طويلة، فهو يتكلَّم الآن بأريحيّة لأنّه هنا لا يمكن أن يحدث أيُّ شيء له قيمة. وختم الفاضل كلامه قائلاً:

– أخشى أن يصادر مجلس قيادة الثورة القدّيسة ويستغلها عسكريّاً، ومخابراتيّاً.

***

التعميم البريدي الذي نقله بهنام في سيّارته الفورد في صباح اليوم التالي من أبرشيّة الموصل إلى خورنة كرمليس احتوى على سؤال محرج: من هي القدّيسة يوليانا؟ استدعت الخورنة مجدَّداً الفاضل نوئيل، وطلبت منه مفاتحة حنّا بلقاء موسَّع مع القدّيسة يوليانا يحضره وفدٌ منتخب من الخورنة، ولكن حنّا الذي ردَّ على الاتّصال الهاتفي قال لراعي كنيسة القدّيسة بربارة:

– القدّيسة يوليانا تعتذر عن اللقاء لأنّها مشغولة بتعليم ياسمين بعض أكلات المطبخ البيزنطي.

كلَّفت الخورنة بشكل سرّي وعاجل، القسّ حيدو الحدّاد بمتابعة ملفّ القدّيسة يوليانا، فقد استيقظت بلدة كرمليس صباح العاشر من تشرين الثاني على جداريّة كبيرة بالقرب من مقرّ المنظمة الحزبيّة تمثِّل رسماً لقدّيسة شابّة جديدة الملامح تُسَلِّم الرئيس صدّام حسين الذي بالزيّ العسكريّ لفافة ورق نورانيّة تظهر عليها الأحرف السريانيّة، وقد كُتبت في أسفل الجداريّة عبارة «هديّة أهالي كرمليس». كانت أراسيا قد رتَّبت لهذا الأمر في اليوم التالي للّقاء الذي جمعها بمدام رينو، والفاضل نوئيل، والراهبة تيما في فندق نينوى أوبروي، وكلَّفت رسّاماً يُدعى مارتن يستخدم اسمه الأوَّل فقط، وله شهرة عريضة باعتباره أفضل من يُقَلِّد رسوم عصر النهضة، برسم جداريّة للقدّيسة يوليانا، والعمل على نسخ متعدِّدة بالملامح نفسها لاستخدامها لاحقاً. كانت البلدة وقتها لا تتداول سوى الصور المنقولة عن اللوحة الزيتيّة المرسومة بفرشاة الفنّان المهندس حبيب حنونا والتي تمثِّل القديسة بربارة في أوضاع ترتبط بظُهوراتها المتعدّدة، وجاءت المفاجأة قاسية جدّاً حين عُمِّمت على مدارس كرمليس في يوم الخميس خطبة موحَّدة تُشيد بهديّة الأهالي معرِّفة الجداريّة على أنّها تمثِّل القدّيسة يوليانا وهي تهب الرئيس صدّام حسين البركة. حين وصل الخبر إلى الخوري سالم قهوجي تملّكه الانفعال، والتهب وجهه بحُمرة

الغضب، فركب درّاجته الهوائيّة وذهب باتّجاه قصر أراسيا إلّا أنّه لم يعبر القنطرة وعاد كسير القلب إلى مقرّ الخورنة في كنيسة مار أدي، فقد تذكَّر، وهو يشعر بآلامٍ في ركبتيه، فقراء كرمليس، وأوجعه مصير فرحة الأطفال بعيد القدّيسة بربارة إن هو تحدّى أراسيا، وعارض إرادتها. استدعى القسّ حيدو الحدّاد وكلَّفه بالذهاب إلى الموصل، والعمل على جمع تبرُّعات لعيد القدّيسة بربارة الذي سيحلّ بعد أيام كي تتجنَّب كرمليس الاعتماد كليّاً على إحسان أراسيا، وأوصاه بالتقرُّب إلى حنّا، ومحاولة لقاء القدّيسة يوليانا، والاستفسار منها عن تاريخها الشخصي.

خلع القسّ حيدو نظارته، وتساءل:

– ماذا لو جاءت إجابات القدّيسة يوليانا مغايرة لما تعتقده أبرشيَّتنا، ومخالفة لمذكّرات المستشرقين الرهبان أمثال دومينيكو لانزا، وكارستن نيبور، والأب جان فييه؟

ابتسم الخوري قائلاً:

– التزوير إثمٌ أيُّها القسّ.

ظهرت علامات الحيرة على وجه راعي كنيسة القدّيسة بربارة وهو يقول:

– أنا أخشى أن نفقد الربّ.

ردَّ الخوري وهو محتقن الوجه.

– هذا أفضل من أن نكذب.

تشجّع القسّ حيدو وقال:

– هذه القدّيسة ظهرت في بيت سيّئ السمعة، وتحبّ القُبُلات، وفنَّ الطبخ، وهي لم تقم بمعجزة ما. لم تشفِ مريضاً، ولم تُخْمِد النيران، وليس لها علاقة بالزراعة.. إمّا أن يكون لاهوتنا على خطأ، أو هي مكيدة شيطانيّة على قدر فائق الإتقان.

قال الخوري وجبينُه يَنْدى بالعرق:

– هذا ما يُحيّرني يا حيدو، ومن أجل هذا أرسلك إلى الموصل، ولكن من يدري، ربما القدّيسة يوليانا تريد أن تبدو عصريّة. إنّهم يتحدَّثون الآن عن شيء عجيب اسمه الكمبيوتر، بينما نصف كرمليس لا تصدّق أنّ التلفزيون أصبح ملوَّناً.

بعدها بيومين جاءت امرأة إلى كنيسة مار أدي، وأدلت بشهادة أنّها أصيبت بحروق في يدها وهي تخبز، وأنّها سمعت من الناس أنّ القدّيسة يوليانا ظهرت

في بيت امرأة تسكن في شارع الدوّاسة بالموصل اسمها ياسمين، وقد زارت هذا البيت وتبرَّكت به، وفي الليل جاءتها القدّيسة يوليانا في المنام، وقالت لها أطعمي ثلاثة بيوت تُشفَ يدُك، ففعلت هذا، فأصبحت وقد اختفت آثار الحروق. وفي اليوم التالي لتسجيل الشهادة نظمت أراسيا حملة سمّتها «نخبز للجنود» وأرسلت إلى معسكر الغزلاني في الموصل شاحنة محمّلة بالخبز المغلَّف بأكياس طبعت عليها صورة القدّيسة يوليانا كما ظهرت في الجداريّة. وعلى هامش قدّاس الأحد في كنيسة مار أدي اجتمع الخوري سالم قهوجي مع أربعة من كبار المزارعين في كرمليس، وطلب منهم إبعاد طموحاتهم عن واجبات الكنيسة، وعدم الخلط بين يسوع وأيِّ رمز دنيويٍّ آخر. وقال لهم إنّ أسلحة الربّ دائماً متواضعة لأنّها غير متكبِّرة، وباستطاعة ذبابة واحدة إزعاج وجوههم، وشلّ انتباههم، وتخريب مزاجهم.

***

فشل الفاضل نوئيل يلدا السادس في لفت انتباه حنّا إلى وجود القسّ حيدو في الموصل. كان يتمنّى في أعماقه أن يجد حنّا التنبيه اللازم لكي يصحو من افتتانه بياسمين ويفتح عينيه على ما حوله، فمنذ المقابلة الصامتة التي سمحت بها القدّيسة يوليانا، وحنّا بالنسبة للفاضل مثل شرطي مخمور. كانت سيتا تستيقظ ليلاً على نحيب تعذيبه لنفسه وهو شديد الشبه بشبح ضالّ، وأعمى. يدور في ظلمة البيت مكلِّماً نفسه، متعذِّباً بضياع احترامه لذاته، ومعصوراً بالندم، وبذلّ الفشل، وحين يلتقي بحنّا يتوقَّع منه أن يعبّر عن بسالة تحمُّله مسؤوليّة الثقة التي أولاه إيّاها الربّ في إعطائه القدّيسة يوليانا، إلّا أنّ انغماس حنّا بالسذاجة كان يجدِّد في نفس الفاضل حاجته للشيطان في تصريف أموره الدنيويّة، ويشجِّعه على ازدراء الحظِّ الذي جعل يوليانا تظهر للمعتوهين، وأنصاف الرجال.

نزل القسّ حيدو في فندق جورج بشارع الدوّاسة. كان بإمكانه من شرفة غرفته رؤية سينما الأندلس وسطحها الذي يحتلّه مقهى قرطبة بشطريه الصيفي والشتوي، كما باستطاعته رؤية سينما إشبيلية إذا ما استعمل مرونته العضلية. قضى القسّ حيدو يومه الأوّل في مكتبة كنيسة الساعة، وتناول العشاء في بيت الفاضل الذي أخذ يقصُّ مجدَّداً تفاصيل ظهور القدّيسة يوليانا له، وكلُّ ما كان يتكلَّم به حنّا منذ أن عادا من كرمليس معاً. كان القسّ حيدو يشعر بالأسى من كلِّ ما يحدث، ورغم الإشارات المشجِّعة التي حصل عليها من

كنيسة الساعة، تمنّى قلبه لو أنّ القدّيسة بربارة هي التي ظهرت وليست يوليانا.

أرسل الفاضل نوئيل وارينا إلى بيت ياسمين كي تأخذ من حنّا موافقة القدّيسة يوليانا على مقابلة مدام رينو والقسّ حيدو. رحَّبت يوليانا بلقاء شمونيا، ولكنّها اعتذرت عن الظهور أمام القسّ، وقال حنّا للفاضل الذي كان ينتظره برأس زقاق سينما حمورابي إنّ القدّيسة تريد من شمونيا أن تبدو حقيقيّة المظهر.

هبطت طائرة مدام رينو في مطار الموصل الساعة الرابعة عصراً. رافقها الفاضل في سيّارة البيجو إلى فندق نينوى أوبروي وحكى لها ما فعلته أراسيا في كرمليس. قالت مدام رينو وهي تنظر عبر زجاج النافذة إلى قلعة باشطابيا أثناء عبور السيّارة الجسر الثالث:

– التقيت بطارق عزيز قبل أن أغادر بغداد. هو على علم بما يجري في كرمليس. هذه فرصتك أيُّها الفاضل لكي تكون نزيهاً، وعليك أنت وأراسيا أن تفكِّرا في السبب الذي دفع القدّيسة إلى عدم الظهور أمام القسّ حيدو.. متى سيكون موعدي مع القدّيسة يوليانا؟

ردَّ الفاضل وهو يشعر بجرح في حنجرته:

– اليوم عند منتصف الليل، بعد انتهاء الحفلة الأخيرة لسينما حمورابي.

***

بقيت ياسمين مبلَّلة ليومين. تنام محنَّطة بالتعب، وشخيرها يصل إلى سابع جار. لم تترك شبراً في البيت إلّا دعكته بسوائل التنظيف، ومساحيق الغسيل. كانت الرغوة تعلو في الأركان لتظهر بعدها اللمعة والرائحة الزكيّة. تخلَّصت من ثيابها القديمة ونصف ما في البيت من كراكيب، ومن كلِّ الأشياء التي بلا نفع. كان حنّا يلهث خلفها منفِّذاً أوامرها، وهو متعكِّر المزاج لأنَّ معالم جسد ياسمين اختفت تحت أثواب عريضة لا يعرف متى اشترتها، أو من فصَّلها لها، تشبه التي تظهر بها القدّيسة يوليانا، ما جعلها تبدو له كدُبّة، وأحيانا كشبح تحت التمرين، وأصبحت تقفل عليها باب الحمّام بالمفتاح، ولا تضع على وجهها الميك آب، وحين تنهي جولة تنظيفاتها الشاقّة، تضع خِماراً على رأسها وتسير على أطراف أصابعها مثل راهبة. زرعت أعواد البخور الهندي في كلِّ الزوايا، وصارت قليلة الكلام، ومقتصدة في الطعام. ساهمة، ومطرقة الرأس دائماً، وزاهدة تماماً في التلفزيون والراديو. كانت تطلب منه استدعاء القدّيسة يوليانا، وتنفرد بها لساعات

بينما حنّا يكابد البرد على الأريكة وهو خائف من أن ترفض ياسمين ليلاً أن يناما متعاكسين على سريره. كانت تتسلل إلى الغرفة بلا تحضيرات مسبقة، تنكمش نائمة على السرير واضعة رأسها في الجهة التي تجلس عليها القدّيسة يوليانا. يتأمَّلها حنّا لساعات مراقباً الابتسامات التي تظهر على وجهها، وتلك اللمعة الفضيّة التي تتشكَّل على مشطي رموشها بين الحين والآخر، ثمَّ يصعد إلى السرير آخذاً مكانه عند الحائط، ويشرع في مصِّ أصابع قدميها إلى أن يغلبه النوم.

كان حنّا يُفتن صباحاً بالبياض النقيّ لعيني ياسمين، وبالاحمرار الرطب لشفتيها كلَّما تكلَّمت. تسحره برهافتها، وبانتعاشات بشرتها، وبروائحها المتغيِّرة. فصلت التلفون بعد أن سمعت حنّا يتكلَّم مع القسّ حيدو، وأخفته في غرفتها، ونقلت ثيابها الجديدة إلى خزانة ملابس حنّا، وأخذت تنشر ملابسها الداخليّة في السطح، وهي مغطّاة بالمناشف، ومقيَّدة بقراصات الغسيل. أعدّت له أطباقاً غريبة من الطعام قالت عنها إنّها الأكلات المفضَّلة للقدّيسة قبل استشهادها. توقَّفت عن طلب البيرة، والبيبسي، وأرسلت حنّا إلى السوق للسؤال عن الأسماك البحريّة المتوفِّرة. وحين جاءت وارينا لأخذ موعد لمدام رينو والقسّ حيدو، استقبلتها ياسمين بفرح، وراحت تقبّلها، وتشمُّها، وتتفحَّص شعرها، وانفردت بها لربع ساعة في الغرفة، وعندما غادرت وارينا البيت تعاركت ياسمين مع حنّا لأنّه لم يخبرها أن وارينا تركت المدرسة. جرَّته إلى المطبخ، وأغلقت عليهما الباب قائلة:

– البنت رثّة الثياب، ورائحتها ثوم وبصل، وشعرها خشن مثل الليفة.. لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟

ردَّ حنّا بارتباك:

– كنت أودُّ إخبار القدّيسة بهذا ولكنّني نسيت.

– طبعاً تنسى لأنّه لا شغل لك سوى اللحاق بي مثل قرد. في الغد تذهب إلى نوئيل كي يعمل على إعادتها إلى المدرسة، وأريد أن تأتي وارينا إلى هنا كلَّ أسبوع. وعقوبتك اليوم أن تنام ووجهك إلى الحائط، ولن أدعك تمصُّ أصابع قدميّ.

حتى القدّيسة يوليانا تغيَّرت، فحين يستدعيها حنّا، تسأله حال ظهورها عن ياسمين، وملامحها النورانيّة قلقة، وحين تأتي بيدين مبلولتين، وبشعر منفوش،

وتجلس على الأرض طاوية ساقيها تحتها بخشوع وزهد، تزول الارتباكات الضوئيّة عن جسد القدّيسة، وتتجلّى ملامحها، وكأنّها من لحم ودم، وإذا ما تكلَّمت ياسمين تبتسم القدّيسة بانشراح، وتنفتح شهيّة ذكرياتها، وتتكلَّم عن ماضيها وهي تتمايل، وأكثر من مرّة وعدتها القدّيسة أن تعلِّمها لغة مدينة نيقوميديا كي لا يضطرّا إلى إخراج حنّا من الغرفة حين يجرُّهما الحديث إلى أمور حسّاسة تخصُّ البنات.

وحين كثرت حواراتهما المنفردة سأل حنّا القدّيسة يوليانا:

– هل تُعلِّمين ياسمين حبّ يسوع؟

ردَّت يوليانا مستغربة سؤاله:

– البيت لا يحتاج إلى يسوع أيُّها المغفَّل وفيه كلُّ هذا الحبّ.

سألها مجدَّداً، وقد زادت حيرته:

– هل طوباويّتك النورانيّة تأكل الطعام؟

ابتسمت وهي تقول:

– كلا.. ياسمين عاشقة، لهذا أنا أعلّمها كيف تعدُّ بعض الأكلات الغرامية على طريقة مقاطعة بيثينيا الرومانيّة.

***

جاءت مدام رينو وهي ترتدي زيّاً كرمليسياً ومعها أربع بيضات مسلوقة وعلبة طحينيّة زنة كيلوغرام من صناعة بلدة بعشيقة، وكيس فيه خبز رقاق، وما إن رأت ياسمين بثوبها الأبيض المسرحي حتى زال عنها الحرج. لم تكن تملك أيَّ فكرة عمّا ينتظرها لذلك سألتها ياسمين إن كانت تودُّ الانفراد بالقدّيسة وحدها. ظهر الفرح على وجه مدام رينو، وقبل أن يدعوها حنّا لدخول غرفته قبَّلت ياسمين وقالت لها:

– قلبُك أكبرُ من برج إيفل.

خارت قوى مدام رينو حين رحَّبت بها القدّيسة. أخذت تتنفَّس بسرعة وهي غير قادرة على التحكُّم بأطرافها، وشعرت بأنّ لسانها يخنقها، وقلبها يوشك على التمزُّق. لم تكن قد تخيَّلت الأمر بهذه الصورة، ولكنّ البساطة التي بدت عليها يوليانا زادتها ارتباكاً، ورأت أنّها أجمل بكثير ممّا يستطيع جَجّو أن يحتمل. شكرتها القدّيسة على البيض، والطحينيّة، والخبز، وأمرتها أن تتركها على الأرض. نفَّذت مدام رينو وهي غير قادرة على رفع رأسها، وغير واثقة من أنّه

المكان الصحيح لتقديم القرابين. طلبت منها القدّيسة يوليانا الجلوس بجوارها. انتشرت السكينة في بدنها حين أخذت الملامح النورانيّة تتحوَّل إلى اللون البشري.

قالت القدّيسة:

– كان جَجّو يسير باعتدال كرجل سليم لأنّه كان يتّجه إليكِ. لم تكن قُبُلاته لرخامة قبري هي من تفعل به هذا. الرجال لا يحبّون امرأة ميتة.

قالت شمونيا دون أن ترفع رأسها:

– هو استمع إليكِ أيَّتُها الطوباويّة وسافر إلى الموصل. جئت بالبيض والطحينيّة في اليوم التالي فلم أجده في الكنيسة.

– وها أنت تجلبين البيض والطحينيّة، فما الذي تغيَّر أيَّتُها العاشقة؟

رفعت رأسها قائلة:

– لا أفهم قصدك أيَّتُها القدّيسة.

قالت يوليانا بنبرة جافّة:

– أنا طلبت أن أقابلك وأنتِ متواضعة، أردتكِ أن تأتي إليَّ وأنت حقيقيّة، ولكنّك جئت حاملة البيض والطحينيّة.. حضن زوجك، وتعلُّق أولادك بك، وجمال باريس، ومكانتك العالية، وأموالك، وقوَّتك، وثقافتك. كلُّ هذه الأشياء ليست بقيمة أربع بيضات، والقليل من الطحينيّة.. لقد أرسلني الربّ إليك كي أريك الحقيقة. حقيقة أنّك إلى الآن تحملين البيض والطحينيّة.

ارتجفت شمونيا، وأخذت تبكي. قالت يوليانا وهي تنهض:

– أنا لم أرسل جَجّو إلى الموصل. الربّ أراد هذا لأنّه يعرف أنّ كلَّ شيء زائل إلّا حبّك لجَجّو. لا قيمة لحياة ممكن نسيانها. لا قيمة للطعام، والملابس، والمال. إثم الإنسان يقع مع الأشياء التي بلا قيمة، لهذا لا إثم في الحب أيَّتُها العاشقة. العاشق لا يكذب، ولا يخون، ولا ينسى.. لقد فعل الربّ ما فعل لأنّ حبّك أكثر رسوخاً من الحياة. مهما طال بك الزمن، ومهما ذقت من الملذّات، ونلت من القوّة، ستبقين حاملة البيض والطحينيّة. هذه هي رسالة الرب، وقد نقلتها إليكِ يا شمونيا.

شيرا بربارة

أرسل الفاضل نوئيل يلدا السادس وارينا كي تقنع حنّا بالمجيء إلى مقهى قرطبة للقاء القسّ حيدو. قالت له هامسةً قبل أن تلحق بياسمين إلى المطبخ:

– نوئيل يقول إنّ الأمر أخطر من نكبة طاعون 1830.

كانت ياسمين مندمجة كليّاً مع مزاج القدّيسة يوليانا وتقضي كلّ وقتها في إعداد المزيد من أطباق الطعام الغريبة، وتفصيل الملابس على غرار تلك التي كانت ترتديها يوليانا في نيقوميديا قبل أن تُستشهد، وحفظ بعض الكلمات باللغتين اللاتينيّة والبيثينيّة القديمة. رفضت يوليانا مقابلة الكرمليسيين العشّاق والذين يأتون برفقة أطفالهم ومرضاهم، فاضطرّ حنّا إلى مواساتهم وتقديم الماء لهم مخلوطاً بقطرات من عصير برتقال نادر المركّز. كذلك أخذ حنّا على عاتقه تنظيف باب البيت كلَّ صباح من لطخات الحنّاء، وإزالة توسُّلات الحبّ المكتوبة بالطباشير وما يُثبَّت على الحائط من ياقات ممزَّقة، وأكمام مقصوصة، ولفافات شعر، وتمائم، وخرز، وعظام طيور. كانت ياسمين تتجاهله طوال النهار، تخبره أنّها طبخت له فيبسانيا، ولا تسأله إن كان يجد الأكلات البيزنطيّة لذيذة ومستساغة. خصَّصت ياسمين البيت وما فيه ليوليانا، والذي لم يتوافق مع الزهد الايماني، والسموّ الروحي، أخفته في حجرتها التي تحوَّلت إلى مخزن للأشياء المعيبة. كانت تتصرَّف كسكرتيرة للربّ. لا تحدث أيَّ صوت، وتقف أكثر ممّا تجلس، وإذا ابتعدت إلى المطبخ تعود بسرعة لتكون بجوار باب غرفة حنّا. انقطعت عنها ذكريات بيت بتول بقلاوة، وفي الليل، كان يرجع إليها وعيها، فتجلس بجوار حنّا على الأريكة، وتطلب منه أن يحكي لها عن جَجّو، وكيف

ظهرت له القدّيسة أوَّل مرّة. تستمع إليه وهي ساهمة. يتورَّد وجهها وتباغتها الرعشات الناعمة، وتكثر من اللعب بشعرها. وحين خرجت مدام رينو من غرفة حنّا بعد مقابلة القدّيسة، اعترضت ياسمين طريقها وهي تبدو شبيهة بإيخو حوريّة نارسيس، وسألتها عن مصير ثوب الوعظ المطرَّز الخاصّ بجَجّو، فقالت لها مدام رينو بعد أن أخرجت من كمّ بلوزتها الداخليّة منديلاً مخرَّماً جفّفت به دموعها إنّها أودعته في بيت أمّها في كرمليس، ووعدتها بأن تجلبه في زيارة قادمة لتراه وتتبرَّك به. انتشت ياسمين بالطمأنينة، ولانت أعماقها حدَّ الاسترخاء، فقد تبيَّن لها أنّ نيل استحسان السماء غير معقَّد، وممتع، وفيه شعور بالنظافة، وتغيير لطيف، ونشوة حميميّة. أخذ حنّا ينتظر تبدُّلات الليل، ويجهّز لها. حدَّد الساعة السادسة موعداً لعودة القدّيسة إلى جَجّو في السطح، ولإخلاء البيت من دخان البخور، واسترجاع الحياة الطبيعيّة. تبقى ياسمين على احتشامها إلّا أنها تتابع حنّا بعينين خافقتين بالحياء، وتكرِّر ابتساماتها، وتصبح حركتها موسيقيّة، وإذا مكثت في جهة ما لدقيقة واحدة تُخَلِّف رائحة كعك، وعندما تجرُّ خطواتها إلى غرفته وهي متشرنقة بالنعاس، فإنّ على حنّا اللحاق بها بعد نصف ساعة. يعتلي السرير وهو لا يمتلك أيَّ فكرة عمّا تبتكره البيزنطيّات في حالات كهذه، يجد ياسمين وقد أضافت إلى أصابع قدميها نكهة الفانيلا، أو حصرت بين قدميها عود قرفة، أو نثرت على حدود باطن قدمها سبع حبّات قهوة محمَّصة، أو وضعت بين أصابع كلِّ قدم أربع قطع صغيرة من الشوكولاته.

كان مظهر القسّ حيدو الحدّاد يوحي أنه بحاجة عاجلة إلى إغاثة، فقد بدا بلحيته النابتة المنقوشة بالشيب، والصُفرة في عينيه أنّه لا يأكل ولا ينام. تشبَّث بحنّا وأجلسه بجواره ممسكاً إيّاه من معصمه. حاول الفاضل تنبيه حنّا إلى أنّ الوقت يمضي بسرعة، وعيد القديسة بربارة على الأبواب، وأنّ من واجبه تنبيه القدّيسة يوليانا إلى هذا.

هزَّ القسّ حيدو رأسه مؤيّداً نوئيل، وقال بصوت مبحوح:

– لم يبقَ على الجمعة الأولى من شهر كانون الأوّل سوى القليل. كيف سنحتفل بعيد القدّيسة بربارة وكلُّ كرمليس تقصد بيت ياسمين من أجل يوليانا. أراسيا بَنَتْ بالقرب من الكنيسة نافورة صغيرة بهيئة وثنيّة من أجل النذور، واشترت الأراضي المحيطة بتلِّ بربارة، وتنوي إنشاء أبنية سياحيّة. كرمليس ستفقد شفيعتها يا حنّا، وإذا لم تساعدنا فسوف نخسر سلطتنا، وتضيع مكانتنا.

تساءل حنّا وقد تملّكه الخوف:

– وكيف أساعدكم؟

قال القسّ حيدو وهو يضغط على معصمه:

– أقنع القدّيسة بأن تعود إلى كنيسة بربارة. عُدْ بها إلى هناك، وقُلْ للناس شيئاً معقولاً. قل لهم إنّ القدّيسة بربارة أرسلت يوليانا لك، وها أنت تعيدها. هكذا لن تستطيع أراسيا المتاجرة بالربّ.

انكمش حنّا قائلاً:

– أنا لا أكذب.

ضيَّق الفاضل عينيه، وقال بحدّة:

– هذه ليست كذبة يا حنّا. يوليانا خادمة بربارة ولا تستطيع التحرُّك بلا أمر من القدّيسة الشفيعة. اسألها وسوف تقول لك الحقيقة. أراسيا تدفع أهالي كرمليس إلى بيت ياسمين، وتعدهم بالشفاء، وتحقيق الأمنيات وستحاول لاحقاً خطف يوليانا منك.

قال القسّ حيدو بتوسُّل:

– أرجعها إلينا يا حنّا.

***

الرسالة التي نقلها بهنام بسيّارته الفورد من مقرّ الأبرشيّة في الموصل إلى خورنة كرمليس كانت مقلقة للخوري سالم قهوجي، فقد ذكرت أن مثلث الرحمة سيقيم القدّاس الحبري في شيرا بربارة في عصر يوم الجمعة المصادف 6/12/1 لتكون الفرحة تامّة للذين لم يتزعزع إيمانهم، ولم تأخذهم أهواء الدنيا إلى الخطيئة.

كانت أراسيا، قبلها بيوم، قد اقترحت على الخورنة إقامة عيد للقدّيسة يوليانا لأنّ معجزات الشفاء من الأمراض تزداد في كرمليس، وعرض محاميها على المجلس مخطَّطاً لقرية سياحيّة صغيرة بالقرب من كنيسة القدّيسة بربارة تتكوَّن من خمسة وعشرين شاليهاً بخمسة وسبعين سريراً. وحين قال الخوري سالم قهوجي للمحامي إنّ الخورنة الروحيّة لا تملك صلاحية البتِّ في أمر خطير كهذا، ردَّ المحامي بأنّه جاء من أجل تخفيف وقع المفاجأة فقط، وأنّ عائلة أبلحد بابكا هي صاحبة الملكيّة الإيمانيّة للقدّيسة يوليانا، وصاحبة الأرض أيضاً، وقد حصل المشروع على موافقة محافظة نينوى.

كانت مظاهر الزينة تنتشر بسرعة في كرمليس استعداداً لعيد الميلاد، ففي قلب حديقة كازينو صوفيا ارتفعت شجرة صنوبر كبيرة الحجم من النوع الأميركي، غُرست في مرتفع ترابي متدرِّج وثبِّتت في أعلاها نجمة كهربائيّة ضخمة يمكن رؤيتها من أسطح المنازل. وبين أعمدة الكهرباء نشرت صور سانتا كلوز وهو بين القدّيستين بربارة ويوليانا وهما بالزيّ الكرمليسي. وقامت سيّارة صندوقيّة مجهولة بتوزيع تي شيرتات على شباب البلدة مطبوعاً عليها صورة القدّيسة يوليانا وهي تحمل السيف والكأس الذهبيّة. لم تشهد البلدة بذخاً كهذا من قبل وهو أمر أخذت الخورنة تتحسَّس منه لأنّه يجري بسرعة فائقة وبغير علمها إلى درجة أنّ الخوري شكَّ في وجود مؤامرة خارجيّة، وطلب أكثر من مرّة مقابلة أبلحد بابكا لكنّ أراسيا كانت تدَّعي أنّ حالته الصحيّة لا تسمح بالاختلاط مع أبناء البلدة.

توقَّفت نشاطات أراسيا الاحتفاليّة حين أعلن في البلدة عن وفاة القسّ يوسف كوماني. وصلت مدام رينو ومعها حنّا والقسّ حيدو لحضور قُدّاس الجنازة. صمتت كرمليس، وتغشّاها الحزن، وخرجت البلدة كلُّها في التشييع. حاول الخوري سالم قهوجي الانفراد بمدام رينو بعد الدفن إلّا أنّها بدت منهارة من شدّة الحزن، وطلبت منه أن يزورها في بيت أمّها في العاشرة من صباح اليوم التالي.

استقبلته مدام رينو بزيّ الحداد، وقادته إلى غرفة القعدة الدافئة التي تحتوي على ديوانيّة قديمة تستند في المنتصف إلى أحجار سمر، وعلى الحائط عُلِّقت سجّادة عليها رسمة القدّيسة بربارة. قدَّم الخوري سالم قهوجي تعازيه قائلاً بخجل:

– تصرُّفي غير لائق، ولكنّ عذري أنّ روح القسّ يوسف ستكون راضية عني.

تجدَّد بكاء مدام رينو ثمَّ تمالكت نفسها:

– كنت سأتّصل بك لدعوتك إلى فندق نينوى أوبروي، ولكن يبدو أنّ القسّ يوسف فضَّل أن نلتقي بسرعة وهنا تحديداً. أنا على علم بكلِّ ما يجري في البلدة، والحقيقة أنّ ما تفعله أراسيا في بغداد والموصل أوسع بكثير ممّا يظهر لعينيك في كرمليس.

قال الخوري وقد تسلَّلت حرارة مدفأة الكيروسين إلى عظامه:

– أنا مستغرب كيف استطاعت أراسيا في أقلّ من أسبوعين شراء الأرض، وإعداد مشروع القرية السياحيّة، وتحصيل الموافقات الرسميّة. لقد سلبتنا

القدرة على الحركة، وصِرْتُ لا أستبعد أن تكون الأبرشيّة قابلة بما يجري. مع احترامي وتبجيلي للقدّيسة يوليانا لكنّ كرمليس لا تستطيع التخلّي عن شفيعتها. القضيّة لا تتعلَّق بالإيمان بل بالرعاية النفسيّة التي يقدِّمها الربّ لنا. منذ القرن الثامن ونحن نؤمن بوجود أمٍّ لنا ترعانا. نحن بلدة صغيرة وبسيطة. كلُّ ما نحلم به هو ألّا تأكل الآفات مزروعاتنا، وألّا تمرض مواشينا، وألّا يقلّ الخبز عن عدد الأفواه.

قالت مدام رينو وقد استعادت صفاء صوتها:

– أراسيا لم تفعل هذا في أسبوعين كما تظنّ. أوروبا كلُّها تضغط على العراق من أجل حماية المسيحيّين، وهذا لا يدلُّ على النزاهة بل هي متطلَّبات المراوغة السياسيّة. لقد طلب السيد طارق عزيز مني عدم تحريض الحكومة الفرنسيّة بشأن ما يحدث، لأنه يريد تجنُّب المزيد من الشروط التي تُفرض على التسليح. ونحن المسيحيّين أيضاً لا نحبّ التشكيك في وطنيّتنا. أنا قابلت القدّيسة يوليانا في بيت ياسمين، والذي أردت إبلاغك به أنّ ظهور القدّيسة لا يتعلَّق برسالة عامّة توجَّه للمسيحيّين بل هي رسالة شخصيّة.

قال الخوري بحرج:

– لا أهواء للقدّيسين.

ابتسمت مدام رينو وقالت:

– لا يجوز أن يكون هذا هو ظنّك بالربّ. لقد ظهرت القدّيسة يوليانا من أجل إنقاذ الحبّ. الأمر لا يخدش مكانة القدّيسة بربارة أبداً. لقد وعدني السيد طارق عزيز أن مشروع القرية السياحيّة لن يتحقَّق. لقد رحل القسّ يوسف، وأنا هنا من أجل الدفاع عن جَجّو، وذكرياتي.

بَقيَ وجه الخوري على جموده:

– بإمكان الدولة إيقاف مشروع أراسيا ولكنّ القدّيسة يوليانا الآن تشفي المرضى. كرمليس كلُّها تريد الذهاب إلى بيت ياسمين في العيد. أراسيا تحاربنا بسلاح يسوع يا مدام رينو. كنت أودُّ الحديث مع حنّا ولكنّه عاد إلى الموصل سريعاً. لقد طلبنا منه أن يعيد القدّيسة يوليانا إلى الكنيسة، ولكنّه لم يستجب. سأقيم القُدّاس في الثامنة صباحاً مع الشمامسة والجوقة، وفي الساعة الثالثة عصراً سيقيم مثلث الرحمة القُدّاس الحبري، ولكن علينا توقُّع ألّا يأتي أحد. أنا

ومعي قساوسة كرمليس سنذهب إلى حنّا في بيت ياسمين لنطلب منه إعادة القدّيسة يوليانا إلى قبرها في كنيسة بربارة. سأفعل هذا وكلّي ألم وحزن.

قالت مدام رينو مواسية الخوري:

– حنّا يسقيهم الماء بإضافة قطرات من عصير برتقال نادر المركَّز.. الشفاء يحدث بإرادتنا. أراسيا ليست ابنة كرمليس. إنها تشبه تراجانوس، وجنكيز خان، ونادر شاه.

ابتسم الخوري قائلاً:

– مع احترامي العميق مدام رينو، أنت تتعاملين مع الأمر بعاطفة شديدة، ولكن الحقيقة ليست كما تقولين. قطرات عصير برتقال نادر المركَّز شفت زوجة دانيال من سرطان الثدي، وبها برئت ابنة شبوبة من اللوكيميا، وتوما خرج من المستشفى لأنّه لم يعد بحاجة إلى زراعة كُلْية. ونعيمة إسرائيل عاد إليها بصرها وهي في الخامسة والسبعين. هذا بعض ما فعلته قطرات عصير برتقال نادر المركَّز.

قالت مدام رينو بارتباك:

– القدّيسة يوليانا لم تظهر من أجل هذا.

قال الخوري بحدّة وهو يقف ناظراً إلى سجّادة القدّيسة بربارة:

– ولكنّ هذا ما تفعله.. الأمر لن يتوقَّف عند كرمليس وقضاء الحمدانيّة، فالعالم كلُّه يريد أن يتحقَّق من الربّ.. قريباً، ستقلب يوليانا الدنيا كلَّها.

سارعت مدام رينو إلى القول:

– بالحبّ أيُّها الخوري.. بالحبّ.

***

لم تستطع مدام رينو دخول زقاق سينما حمورابي إلّا بعد أن أظهرت للشرطة جواز سفرها الفرنسي الدبلوماسي وهويّة اعتمادها. كانت أراسيا قد طلبت من المحافظ توفير حماية ليليّة لبيت ياسمين، وأوكلت مهمّة تنظيم الزيارة ومسك الشارع إلى سبعة حرّاس مدنيّين من شباب كرمليس يتميَّزون بأجسام رياضيّة، ويتمتعون بحسٍّ خدمي. صُدِمَت مدام رينو بمنظر كتابات الطباشير التي نقشت واجهة البيت وامتلأ بها الباب. قرأت على الضوء الساقط من بوابة الخروج لسينما حمورابي توسُّلات مؤطَّرة بالرسوم كتبتها نساء عاشقات يطلبن من يوليانا لمّ الشمل وتحقيق المراد.

تشنَّجت عضلات حنّا من شدّة ثقل الخيبة وهو يرى ياسمين تأخذ من مدام رينو ثوب الوعظ الخاصّ بجَجّو الذي كان مطويّاً على شكل مربَّع، وملفوفاً بثلاث طبقات من الأقمشة الحريريّة الملوَّنة. جثت ياسمين على ركبتيها وهي تأخذ الثوب العطر بذراعيها، وكأنّها رافعة شوكيّة، ثمَّ أسقطت رأسها فيه وهي ترتجف من هول اللحظة. كانت قبل ربع ساعة قد وعدته بأنّها ستستحمّ بغسول عرائس نيقوميديا الذي علَّمتها القدّيسة يوليانا كيف تُحضِّره، ولأنّ هذا يأتي في منتصف شهرها الأنثوي، فإنّها ستُغَمِّسه بذلِّ الحبّ، وتجعله يكابد عذابات الوجد وهو يقصُّ بأسنانه أظفار قدميها، إلّا أنّ ثوب جَجّو خرَّب عليه ليلته، وربَّما يتوارى عنها هذا الإلهام العرائسي في الغد أيضاً، وتنسى البشارة.

أخبر حنّا مدام رينو أنّ القدّيسة صعدت إلى السطح مبكراً كي تستعدّ لاستقبال القسّ يوسف كوماني، لكنّ مدام رينو أصرَّت على لقاء يوليانا، وقالت باللغة السورثيّة إنّ عليه إظهار الرجولة والصلابة في هذا الوقت تحديداً لأنّ كرمليس تترنَّح من شدِّة عصف المكائد، وإذا لم يقف اليوم كرجل مسؤول وناضج، فسيخسر منحة الربّ، ويفقد ثقة النساء.

وقف حنّا، فقالت له مدام رينو بالعربيّة:

– قل للقدّيسة يوليانا إنّني أريد الحديث معها في أمر يخصُّ سمعتها.

بقيت ياسمين جالسة على الأريكة وفي حضنها ثوب الوعظ، وحين أبلغ حنّا مدام رينو أنّ القدّيسة بانتظارها طلبت منه البقاء في الخارج. كانت ياسمين تمرِّر أصابعها على ثوب الوعظ وهي مبتسمة. قالت حين جلس حنّا بجوارها:

– له ياقة دائريّة مخرَّمة على شكل زهرة. كان لك مثلها حين كنت في الصفّ الأوّل الابتدائي. الخالة شمونيا قالت إنّها أضافت هذه الياقة عندما كفَّ الناس عن ضرب جَجّو في الطّرقات. وقالت إنّها أضافت تطريزات بالأحمر، تصوَّر كيف قَبَّلت عفيفة إسكندر يد جَجّو في كازينو صوفيا.

رفعت ياسمين رأسها وتنهَّدت قائلة:

– لديَّ كلمات كثيرة في قلبي، ولكن لا أعرف متى يجب عليَّ قولها.

نظر حنّا هو أيضاً إلى السقف وقال:

– كما ترقد الدجاجة على بيضها نرقد نحن بقلوبنا على كلماتنا إلى أن يفقس فينا الحبّ.

***

قالت القدّيسة يوليانا وهي جالسة على وسادة ياسمين، ووجهها نحو خزانة الملابس:

– لم أشفِ أحداً ولا قدرة لي على هذا. حين رفض حنّا أن يبرأ من علَّته حُبّاً بشفقة ياسمين نال من الربّ فوق ما يحلم وأكثر ممّا يستطيع أن يتمنّى. لقد وضع الربّ إرادته في كأس ماء حنّا، وفي الصباح حين يخرج متثائباً، ويمسح كتابات الطباشير عن باب البيت شاتماً النساء، ومتمرّغاً بخيالات شهوته، فإنّ كلَّ أمنية يمسحها بإسفنجة غسل الصحون تتحقَّق. كلُّ خرقة ثوب يرفعها بيده عن حائط البيت تجمع الحبيب بحبيبته والولد بأمّه، وتنصر المظلوم على الظالم. هو لا يعرف يا شمونيا، ولا يجب أن يعرف.

تساءلت شمونيا وهي ترتجف:

– وماذا عن العفّة أيَّتُها الطوباويّة؟

ردَّت يوليانا:

– العفّة في صدق الحبّ وليست في فعل الجسد.

قالت شمونيا:

– في الغد سيأتون إلى حنّا للمطالبة بك أيَّتُها القدّيسة.

قالت يوليانا:

– سأصمت وحنّا سيتكلَّم.

تساءلت شمونيا وهي تنكمش باكية:

– ماذا أقول لكرمليس؟

نهضت القديسة قائلة:

– لا تفضحي سرّي وسرَّ حنّا. إنّهم يظنّون أنّني أشفي المرضى لأنّهم يُفكِّرون في مصالحهم ويريدون لأيديهم أن تطول السماء. من يظنّ هذا فسيشقى في درب آلامه، ولن يبلغ نور العالم. إن كانوا يحبّون القدّيسة بربارة كما أحبَّها الربّ فعليهم أن يصدقوا. قولي لهم القبور للأجساد، وأنا لست عظاماً نخرة كي أعود إلى قبري. قولي لهم إن كانوا يريدون الحقيقة فعليهم أن يطلبوها من حنّا. قولي لهم لقد فعل جَجّو ما لا تعلمون، وحواسّكم جاهلة، وقلوبكم خشب.

رسالة حنّا إلى شعب كرمليس

استيقظت ياسمين قبل الجميع. تفقَّدت حنّا الذي كان ينام على الأريكة في الهول. غطَّت ظهره بالبطانيّة، وعدَّلت الوسادة تحت رأسه. وخزها قلبها لأنّها لم تنتبه إلى طول شعره. وقبل أن تدخل إلى الحمّام، أشعلت مدفأة الكيروسين وقرَّبتها منه. كانت مدام رينو قد رفضت أخذ سرير حنّا، وفضَّلت النوم على الأرض. تقلَّبت ياسمين كثيراً شاعرةً بأنّها غير ثابتة ويمكنها أن تقع في أيِّ لحظة.

في الظلام سألتها مدام رينو:

– هل جَجّو فوق في السطح الآن؟

ردَّت ياسمين وهي تطوي ساقيها، وتنكمش في مشيمة خيالها:

– نعم جَجّو في السطح وحنّا في الهول على الأريكة.

سلقت ياسمين أربع بيضات، وسكبت الطحينيّة في كاسة شفّافة من الكريستال، ووضعت إبريق الشاي على نار خافتة بعد أن أضافت إليه حبّات الهيل ثمَّ أيقظت حنّا كي يذهب لشراء الخبز. قال لها إنّه لا يجد في نفسه الرغبة اليوم في حمل الجردل والإسفنجة وتنظيف واجهة البيت، فقالت ياسمين إنّ هذا الكسل غير لائق، لأنّ عليه في صباح كلِّ يوم مسح البيت كما تُمسح سبورة المدرسة مع كلِّ درس جديد.

***

كان جرس سينما حمورابي يدقُّ معلناً بدء حفلة الساعة العاشرة صباحاً حين أدخلت مدام رينو وفد كرمليس إلى الهول الذي انتشرت فيه الشموع وجثمت في فضائه رائحة البخور الهندي. كان عددهم اثني عشر شخصاً. انقسموا إلى

قساوسة بالزيّ الاحتفالي، ووجهاء ببدلات رسميّة. طلبت منهم الوقوف في صفّين متساويين قبالة الأريكة قائلةً إن القدّيسة يوليانا تفرض عليهم الصمت في حضرتها.

أومأت مدام رينو برأسها للقدّيسة وهي تدخل غرفة حنّا. تنفَّست بعمق وظهرها يلتصق بالباب. وضعت كفَّها اليسرى على صدرها، ثمَّ قالت لياسمين:

– إذا تخلَّيتُ عن كلِّ شيء وعدتُ، فهل تقبلين أن أسكن في بيتك؟.. أريد أن أموت قريباً كي أصعد إلى جَجّو في السطح.

ردَّت ياسمين مبتسمة:

– أنا وحنّا سنجهِّز لك غرفتي القديمة بعد خروج وفد كرمليس.

طلبت يوليانا من ياسمين أن تُلبس حنّا ثوب جَجّو فوق البدلة الرياضية، وقالت:

– حنّا يتقدَّمنا وتليه ياسمين ثمَّ شمونيا وأنا الأخيرة.

حين ظهرت القدّيسة يوليانا سائرة خلف مدام رينو ببياضها المؤطَّر بلمعة الذهب، اضطرب صفُّ القساوسة الأوَّل وراحلوا يرسمون شارة الصليب بهمهمات مخنوقة. أخذ الخوري سالم قهوجي يُحرِّك شفتيه وهو يتنفَّس بسرعة، بينما كلُّ الأبصار انعقدت باتّجاه القدّيسة التي جلست على الأريكة جهة الباب، وراحت تتنقَّل بنظراتها بين وجوه القساوسة وهي مستقيمة الظهر وتعابير وجهها مشدودة. جلست ياسمين على يمين حنّا، ومدام رينو على يساره. بانت نقاوة الصمت بعد ثوانٍ، فنهض حنّا قائلاً:

– من حنّا جَجّو بنيامين إلى شعب كرمليس. عليكم النعمة والسلام من الله. أنتم هنا لأنّكم تستكثرون على البسيط هذه الهبة الكبيرة، وتريدون استردادها. أنتم هنا لأنّكم لا تجيدون سوى السير إلى موتكم كما قُدّر لكم. أنتم تعبدون الله بعمق وإصرار، ولكنّكم لا تحبّون أن يقوم بشيء يكسر استحواذكم عليه، ويهدِّد طمعكم به. فرحون أنتم لأنّكم تعلمون كلمات الله، وحزين أنا لأنّني أجهلها. سعداء أنتم لقربكم من السماء، وبائس أنا لأنّني لا أراها. (يفتح حنّا ذراعيه) أنتم هنا لأنّ بإمكان ثيابكم المقدَّسة الناعمة أن تتكلَّم، وترفع الأكمام معترضة. صليبكم الجميل تحملونه ذهباً وفضّة، وأنا أحمله بالمسامير والآلام. بديعة روائحكم، ومقرفة أنفاسي. (تظهر الثقة في صوته) يا شعب كرمليس: إنّ ما جاء بكم إليَّ ذهبَ بي عنكم، وما تصمتون عنه الآن، أتكلَّم به أمامكم. لقد جئتم

تريدون استرداد القدّيسة يوليانا العروسة. تريدون إحلال الظلام في بيت إنسان من أجل إشعال الشموع في بيت الله. (يصمت قليلاً متفحِّصاً وجوههم) أهكذا قال الربّ؟ حين كنت أسير في الطرقات كسيراً كأبي جَجّو، وحزيناً كإنسان معاق، كنت أسأل الله في سرّي لماذا مشيئتك جعلت الجميع يكسبون حسناتهم وأفعالهم الحميدة من ذُلّي أمامهم؟ لماذا هم يتفضَّلون عليَّ بالشفقة، وينالون رضاك، بينما أنا لا أقدر على إشهار إحساني؟ لماذا هم سعداء بطيبة قلوبهم، وأنا تعيس بالظلم الذي وقع على قلبي؟ كنت أقول لله ورأسي على وسادتي إنْ كنت تحبّني فدعني أستيقظ وأنا معافى البدن، وكنت أستيقظ ودمعتي في حلقي لأنّ الله لا يحبّني. كنت أقضي وقتاً طويلاً في الشوارع من أجل أن يرضى الله عن الكثير من الناس الذين يعطونني خبزاً لأعيش، وكنت أضع رأسي على وسادتي في اليوم التالي ولا أسأله شيئاً. كنت أنهك بدني من أجل أن يفرح الله بعباده. أذلُّ نفسي في الطرقات كي يصبح في المدينة الكثير من الخيِّرين والمحسنين وحتى يتَّضح للجميع أنّ قلوبهم طيّبة، وسلميّة، ويطبِّقون كلام الله، ويعمِّرون الأرض بالخير والمحبّة. (يصمت قليلاً ناظراً إلى الخوري سالم قهوجي) أنا أحبّ بيتي مثل كلِّ الناس، ولكن لم أكن أستطيع البقاء فيه كي لا تتألَّم أمّي من رؤيتي، ولا تشعر أختي وارينا بأنّ شقيقها بلا هيبة، ولا يستحقّ التعلُّق به. وكنت أرجع وأقول لله وأنا على وسادتي، إن كنت لا تحبّني، فأنت بالتأكيد تحبّ وارينا وتريزا، فلا تعذِّبهما بي، وإذا عافيت بدني فإنّني سأهبهما نظرة واحدة إليَّ ثمَّ أخرج ولا أعود. وكنت أستيقظ في اليوم التالي وأرى نفسي حنّا المعاق نفسه الذي إذا مشى تضحك عليه الدنيا كلُّها. حنّا الذي بلا أصدقاء، وبلا احترام، وبلا قيمة. حنّا الذي يعلِّق الناس حسناتهم على كتفيه ليمضي هو بلا فضيلة. (يلتفت إلى القدّيسة يوليانا التي تبادله النظرات مبتسمة) أنتم كآبائكم، ولكنّني شقيت كثيراً لأنّني كأبي جَجّو. لم يكن يحبّ أن نسير معاً كي لا يكون لي المرآة. لم نكن نضحك، ولا نتسلّى، ولا نذهب في الربيع إلى البراري كما تفعلون أنتم. كان جَجّو يختبئ عنّي كي لا أرى نفسي في شكله، وكنت مثله، أجلس منزوياً في المدرسة كي لا يسخر منّي أحد. لم أتعلَّم جيّداً لأنّ معلّماتي كنّ يهبنني درجات النجاح كي يدخلن الجنّة، وأبقى أنا في الشوارع غير قادر على تذكُّر قوانين كتاب العلوم. الناس يتحوَّلون إلى محسنين وطيّبين لأنّ ملاك المصائب لم يلقِ عليهم صرّة المرض، أو العوق،

أو التعاسة الأبديّة. إنّ الذين هم مثلي لا يمتلكون أيَّ اعتبار للقادم، فنحن لن نُشفى، وإذا ما كبرنا فإنّنا سنقطع الأمل بالسماء، وعندها سننتقم بشدّة من الذين كسبوا الحسنات من ذلِّنا، وحزننا، ووجعنا. ولكن ماذا سيتغيَّر؟ الذي أطعمني خبز الشفقة سيبقى طيباً، وأنا الذي أكل خبز الإحسان سأكون ناكراً للجميل وسيلعنني الربّ. أهذه هي عدالة الأصحّاء أيُّها السادة؟ أهذه هي عدالة الأرض التي عليها تسيرون؟ (يوجّه إليهم سبّابة يده اليمنى) أنتم تعلمون ظاهري لكنّكم تجهلون قلبي. لقد قلت لله ورأسي على الوسادة، لن أكون منتقماً ولاعناً قدري، سأعطي الناس فرصاً جديدة ليتقرَّبوا إليك. قلت لن أغضب وأزعل. قلت له سأصنع الخير بعاهتي وحبّي لك. (يعلو صوت حنّا) أيُّها الناس: الخطيئة رحم الخير. الخطيئة مفروضة علينا كي نخطو مجدَّداً الخطوة الأولى. ألا ترون أنّ الطيّب يخرج من السيّئ. ألا ترون أنّ المعذَّبين على الأرض يجدون دائماً لمسة مواساة. أنتم، يا من ترتدون مسوح حبّ الربّ، لمستكم غير شافية لأنّ طمعكم فيها. أيُّها الطامعون في الربّ، لن يكون في مقدوركم صنع معجزة ما لأنكم تعملون لأنفسكم وتقودون الحياة بخوفكم، وتريدون لدمكم أن يكون طاهراً. أنتم تزرعون لبطونكم، وتحصدون لجيوبكم، تقولون الكلام الحسن كي تجمعوا الحبّ لأنفسكم، وتبسطون السلام على الأرض كي تصان مكاسبكم. وتصنعون الخير كما تعصرون الزيتون والسمسم. (تتغيّر نبرة صوت حنّا وتصبح خافتة) في بيت بتول بقلاوة كانت الحياة نظيفة لأنّني رأيتها بعين الطفل. هذا قد يكون قولكم، ولكنّني الآن أرى تلك الحياة نظيفة رغم أنّ عيني كبرت، ونظرت كثيراً. كانت تلك السيدة تنظر إلى سقف بيتها، ولا تنظر مثلكم إلى السماء. كانت صادقة القلب وحنونة، لقد أحبّتني هذه الأمّ وهي غير طامعة بالجنّة، وتدرك تماماً أنّها صديقة الشيطان. وفّرت لي الرعاية، والحبّ، والقلق، والانتظار، وكلَّ التفكير. لقد تساءلتُ بعدها بسنوات ورأسي على وسادة النوم: أيُّها الربّ إذا كانت الخطيئة حفرة نار عميقة، فلماذا بتول بقلاوة طيّبة القلب بينما الذين عيونهم تلتصق بالسماء قساة؟ لماذا أيُّها الربّ تضعني في حضن الشيطان؟ (يعلو صوت حنّا) يا شعب كرمليس: أنتم من قال إنّ جَجّو الواعظ يجاور سيّدة سيّئة السمعة، ويهب ابنه للرذيلة. لقد عاش جَجّو عمره ينتظر شفقة القدّيسة بربارة، وحين ظهرت يوليانا كذَّبتم الحقيقة، ورميتم ثوب وعظه بالأحجار. وحين أتت شفقة بتول بقلاوة رضي بها وهو غير آثم. (يعلو صوت حنّا أكثر) لقد اتّهمتم

أبي جَجّو بالجنون لأنّكم تستكثرون على الإنسان نيل شفقة الله. تستغربون إذا ما تجلّى نور العالم لرجل معاق أحبّ الله، وعبّر عن حبّه بطريقة ساذجة. أليس الشيطان، أولاً وأخيراً، هو ظنون يأس وعلامات تمرُّد؟ (ينظر حنّا إليهم محرِّكاً رأسه من اليمين إلى اليسار) يا شعب كرمليس: العالم رحمة، والرحمة رزق الحزين. (يضع حنّا يده على رأس ياسمين) هذه البنت الطيّبة أسكنتني تحت منضدة طعام وهي طفلة صغيرة، وحين كبرت أسكنتني تحت سقف بيتها. أليس معنى هذا أنّ قلبها من ذهب؟ وحين خرجت قدّيستنا الطوباويّة يوليانا من كرمليس جاءت وسكنت في بيتها معي. (يمسك حنّا بيد ياسمين ويدعوها للوقوف) أنتم الآن تنظرون إلى امرأة أعطاها الله نعمته لكي تصنع منّا هذه الأسرة. يا شعب كرمليس: أنا وياسمين لا نستطيع إعادة القدّيسة يوليانا إليكم. لا أعرف كيف أفهمكم الأمر، ولكن نحن هنا نعيش بطريقة مختلفة، ونرى السماء بعيون الطيور، والقدّيسة يوليانا روحها جميلة وطيّبة، وهي مثقَّفة، وسهلة جداً في المسائل المتعلِّقة بالربّ، وياسمين تحبّها كثيراً.. في الحقيقة لا أعرف كيف أشرح لكم الأمر، ولكن أرجو منكم قبول اعتذاري.

بغداد، 15 يناير 2016